مواهب الرحمن

في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

عني بنشره

محمد علي القره داغي

المجلد الثالث

الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

بقية الجزء الخامس

من سورة النساء

<3>

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (66) ﴾

عن السدي قال: لما نزلت هذه الآية افتخر ثابت ابن قيس بن شماس ورجل من اليهود، فقال اليهودي: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لقتلنا أنفسنا. فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لقتلنا أنفسنا. فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ الآية أخرجه ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ولو أنا فرضنا عليهم ان تَعرضوا بأنفسكم للجهاد لتُقتلُوا، أو فرضنا عليهم قتلَ أنفسهم مباشرةً ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ واتركوا أرضكم ودياركم ووطنكم، كبني إسرائيل حين استتيبوا من عبادة العجل ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ وهم المخلصون ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وإطاعته الكاملة في أمره ونهيه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لهم في دينهم لأن الإيمان يتكامل بمزيد الطاعات، والقلب يطمئن بالذكر والمجاهدات، وكل ذلك يوجد في إطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (67) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (68)﴾

هو طريق الإخلاص في العبادة.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (70) ﴾

نزلت هذه الآية في ثَوبانَ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله: أخاف أن لا ألقاكَ في الآخرة يا رسول الله، ورآه رسول الله متغيرا لونه وكان يحبه حبا شديدا لا يكاد يصبر عنه، فذكر الله كرامته، فقال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ﴾ بالانقياد والتسليم لأمره ونهيه وتطبيقهما بقدر الاستطاعة، ﴿وَالرَّسُولَ﴾ أي ويطع الرسول النبي الأمي العربي محمدا صلى الله عليه وسلم المبلغ للاحكام من الله إليه بالذات أو بالواسطة فآمن به وبما جاء به من أحكام الإيمان والإسلام وأحب الله ورسوله بإجلال واحترام واستقام على ذلك إلى الختام ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بالذكر في الحياة وبالزيادة الروحية البرزخية بعد الممات، وبالجسم والروح الاعتيادية الحقيقية بعد البعث والحشر والنشر ودخول الجنة كيفما شاؤا، وحسب الاشتياق الذاتي المقرر ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ والمرسلين وهم الذين تمدهم قوة إلهية وتصحبهم نفس في أعلى مراتب القدسية ﴿الصِّدِّيقِينَ﴾ وهم الذين حازوا المرتبة المتأخرة من مرتبة الأنبياء والمرسلين بموهبة نور التصديق بالوحي المقدس وصاحبه الأقدس الذين صعدت نفوسهم بمصاعد الإيمان والأدب وأنوار الحضور والخشوع لله تعالى وروح التضحية بما لديه من النفس والحال والمال في سبيل إعلاء كلمة الحق بكل حال، كسيدنا أبي بكر الصديق ومن حذا حذوه في ميدان الكرامة والإخلاص، أو ترقت أرواحهم بمراقي

التصفية وتخلية النفس عن الرذائل وتحليتها بالفضائل فتنورت أرواحُهم ومشاعرهم بنور العرفان فكانوا حاضرين بالشعور ومدركين بالبصائر فتحققت فيهم نتائج ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69) ﴾ أو الذين ترقوا من دركات الرذائل على درجات الفضائل بمراقي النظر في الحجج الساطعة والبراهين اللامعة من الآيات الكونية التي تشهد على وجود واجب الوجود الواحد الخالق لكل موجود، وتحقق الرسالة من الله إلى الناس في نظام عالم الوجود.

﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أصحاب المنزلة الثالثة وهم الذين أدى بهم الإيمان والإخلاص إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق بلا شرط وقيد وبلا ملاحظة لعمرو أو زيد، ففازوا بإحدى الحسنيين، وهم الذين ثبتوا أركان الإيمان وسقوا أشجار اهتداء الإنسان بدمائهم الزكية، فعلت وأثمرت ثمار العرفان، فجزاهم الله بإعلان الحياة السرمدية والفوز بالبشارات الأبدية على مرّ الزمان.

﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ الصارفين أعمارهم في طاعة الله تعالى، وأموالهم في مرضاته سبحانه، ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ﴾ الأصناف الأربعة الكرام ﴿رَفِيقًا﴾ لمن وفقه الله تعالى.

يقول صاحب روح المعاني أعلى الله مقامه: وقد ذكر أصحابنا أن الصديق صيغة مبالغة بمعنى المتقدم في التصديق المبالغ في الصدق والإخلاص في الأقوال والأفعال، ويطلق على كل من أفاضل أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأماثل خواصهم كأبي بكر رضي الله عنه، وأن الشهداء جمع شهيد، والمراد بهم الذين بذلوا أرواحهم في طاعة الله وإعلاء كلمة الله، وهم المقتولون من المسلمين بأسلحة الكفار، وقيل: المراد بهم ما هو أعم من ذلك. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما تعدّون الشهيد فيكم؟)) قالوا:

يا رسول الله من قتل في سبيل الله تعالى. فقال صلى الله عليه وسلم: ((إن شهداء أمتي إذا لقليل. من قتل في سبيل الله تعالى فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات مبطونا فهو شهيد)). وعد بعضهم الشهداء أكثر من ذلك بكثير. والصالح: هو الذي صلحت حاله واستقامت طريقته، والمصلح هو الفاعل لما فيه الصّلاح ولذا يجوز ان يقال لله تعالى مصلح، ولا يجوز أن يقال في حقه صالح.

ثم ليس المراد بالمعية اتحاد الدرجة ولا مطلق الاشتراك في دخول الجنة بل كونهم فيها بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر وزيارته متى أراد، وان بَعُدت المسافة بينهما. وذكر غير واحد أنه لا مانع من أن يرفع الأدنى إلى منزلة الأعلى متى شاء تكرمةً له ثم يعود ولا يرى أنه أرغد منه عيشا ولا أكمل لذة، لئلا يكون ذلك حسرة في قلبه، وكذا لا مانع من أن ينحدر الأعلى إلى منزلة الادنى ثم يعود من غير أن يرى ذلك نقصا في ملكه أو حَطّاً من قدره، وقد ثبت في غير ما حديثٍ أن أهل الجنة يتزاورون. وادعى بعضهم أن لا تزاور مع رؤية كل واحد الاخر، وذلك لأن عالم الأنوار لا تمانع فيها ولا تدافع فينعكس بعضها على بعض كالمرايا المجلوة المتقابلة. وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾. وقال بعض المحققين: إن الظاهر من الأحاديث الشريفة في أحوال أهل الجنة هو أن ليس الرؤية ثابتة لكل شخص بحيث يرى باقي أهلها وذلك لأن اختلاف درجات الأنبياء والمرسلين وسائر أهل الجنة من السابقين المقربين ومن سائر أصناف المسلمين محقق لا شبهة فيه. وإدراك كل منهم لمراتب كل منهم في كل وقت بعيد عن الواقع. وإنما هو جواز الزيارات واللقاءات

لكل أحد متى شاء على الأصول المقررة في عالم الجنة، إذ فيها ما تشتهيه النفس وتلذ الأعين فإذا تمنى شخص منهم رؤية شخص يجوز أن يمكنه الله تعالى من ذلك بحيث لا تكون الجنة محل الحسرة على فوات مقصود أو فناء موجود. وتفصيل ذلك موكول إلى عالم الاخرة التي خير للمسلم بدرجات من الأولى.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (71) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (72) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (73) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآَخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75) الَّذِينَ آَمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76) ﴾

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ الآية هذه الآيات الكريمة أمر من الله تعالى ونداء إلى المسلمين أن يستعدوا لمجابهة الأخطار ومجاهدة الكفار،

فإن كل نبي معه جماعة يعاديهم أهل الكفر والضلال ويعارضونهم بكل ما أمكن، فيجب على الطرف الأول أن يستعدوا للدفاع عنهم وعن مبدئهم المقدس الإلهي بكل ما في وسعهم. فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي عدتكم من السلاح الذي تحترزون به عن شر الأعداء، وهو في الأصل مصدر كالحذَر أي الاحتراز عما يخاف منه، ويراد به هنا ما به الحذر. أعني الأسلحة والمعدات ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أي أخرجوا إلى الجهاد جماعات ﴿أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي جماعة واحدة. والجماعات المتمايزة كل منها كتيبة، والجماعة الموحدة المركبة من الجماعات جيش.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ وإن منكم أيها المسلمون لَمَنْ لَيتثاقل في التحرك مع الجيش ويتأخر عن الجهاد، وهو عبد الله بن أبي سلول وأتباعه من المنافقين فإنهم يعدون إذ ذاك من المسلمين في ظاهر الحال ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ من جانب العدو كقتل أو جرح أو هزيمة ﴿قَالَ﴾ حامداً لرأيه الخطأ ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ بتأخري عن الحركة معهم ﴿إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضرا، فلم يصبني ما أصابهم. ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ من فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ تندما على تأخره ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ مزعومة: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ بأخذ الغنيمة لدنياي ونيل كرامة في الجيش لِمرآى. وقوله: كأن لم تكن بينكم وبينه مودة كلام الباري معترض بين القول والمقول، والمودة المنفية مودة صورية، وإلا فليس الان ولم تكن في الماضي بينه وبينهم مودة واقعية. فيعود الباري تعالى ويأمر الرسول معنى بدعوة المؤمنين المخلصين للجهاد، ويأمرهم بالحضور له لفظا، ويقول: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاة بِالْآَخِرَةِ﴾ أي يبيعون متاع الحياة الدنيا وملاذها بجزاء من الله في دار

الآخرة ذلك الجزاء الذي يعد به في قوله: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في سبيل مرضاته ولإعلاء كلمته ﴿فَيُقْتَلْ﴾ ويفدي بحياته في طريق مرضاته ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ على أعدائه ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لابد منه في الحالتين غالبا أو مغلوبا.

ثم ينادي الباري مستفهما ومحرضا للمؤمنين ومعرضا للكافرين: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾ الكفار ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وإعلاء كلمته ﴿وَ﴾ في سبيل إنقاذ ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ من أيدي الكفار ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الباقين في مكة ولا يقدرون على الهجرة إليكم ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ وهي مكة، ﴿وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمورنا ﴿وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا ويمنع تعرض الأعداء لنا ! فاستجاب الله دعاءهم وأيد رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ففتح مكة وجعل بذلك الفتح المبين أذلة الناس أعزة على الكافرين ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ المتمرد وهو الشيطان وأتباعه الكفرة، ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (79) مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ الآية اختلف في موردها: قال بعض: إن هذه الآية نزلت في عبدالرحمن بن عوف، والمقداد بن اسود، وقدامة بن مظعون، كانوا مع النبي قبل أن يهاجروا إلى المدينة ويلقون من المشركين أذى شديدا فيشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: إئذَنْ لنا في قتالهم، ويقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ فإنّى لم أوُمَر بقتالهم واشتغلوا بإقامة دينكم من الصلاة والزكاة، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأمروا بقتالهم في وقعة بدر كرهه بعضهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. واحتج الذاهبون إلى هذا القول بأن الذين يحتاج الرسول أن يقول لهم كفوا عن القتال هم الراغبون في القتال، والراغبون في القتال هم المؤمنون فدل هذا على أن الآية نازلة في حق المؤمنين ! ويمكن الجواب عنه بأن المنافقين كانوا يظهرون من أنفسهم أنا مؤمنون وإنا نريد قتال الكفار ومحاربتهم، فلما أمر الله بقتالهم الكفار أحجم المنافقون عنه، وظهر منهم خلاف ما كانوا يقولونه.

القول الثاني: إن الآية نازلة في حق المنافقين، واحتج الذاهبون إلى هذا القول بأن الآية مشتملة على أمور تدل على أنها مختصة بالمنافقين.

فالأول: أنه تعالى قال في وصفهم: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ ومن المعلوم أن هذا الوصف لا يليق إلا بالمنافق لأن المؤمن لا يجوز أن يكون خوفه من الناس أزيدَ من خوفه من الله تعالى.

الثاني: أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾؟ والاعتراض على الله ليس إلا من صفة الكفار والمنافقين.

الثالث: أنه تعالى قال للرسول: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾. وهذا الكلام يذكر مع من كانت رغبته في الدنيا أكثر من رغبته في الآخرة، وذلك شأن المنافقين. وأجاب القائلون بالأول عن هذه الوجوه بحرف واحدٍ هو أن حب الحياة والنفرة عن القتال من لوازم الطباع، فالخشية المذكورة في هذه الآية محمولة على هذا المعنى. وقولهم: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ محمول على التمني لتخفيف التكليف لا على وجه الإنكار لإيجاب الله تعالى.

وقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ مذكور لا لأن القوم كانوا منكرين لذلك بل لأجل إسماع الله لهم هذا الكلام مما يهوّن على القلب أمر هذه الحياة فحينئذ يزول عن قلبهم نفرة القتال وحب الحياة، ويقدمون على الجهاد بقلب قوي. والأولى حمل الآية على المنافقين لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية قوله ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ ولا شك أن هذا من كلام المنافقين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ فيه تعجيب الرسول وغيره ممن يمكن منه ذلك عن أحوال أولئك الناس، حيث كانوا في الزمان السابق على حال وفي الزمان اللاحق على حال آخر مخالف للاول. فيقول: ألم تر يا رسولي إلى الذين ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ سابقا: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ عن القتال ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ﴾

واشتغلوا بما ينفعكم وهم كانوا راغبين في الجهاد ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي يخشون الكفار الذين يقاتلون كما يخشون الله تعالى أن ينزل بهم بأسه ويميتهم ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ معطوف على قوله كخشية الله بتقدير مضاف وهو الأهل، أي يخشون الناس كأهل خشية الله أو كأهل يكون أشدَّ منهم خشيةً من الله. فإذا للمفاجأة وفريق مبتدأ ومنهم صفته، وجملة يخشون الناس خبره. وقوله ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ حال من فاعل يخشون. وقوله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ معطوف عليه، فيكون في مقام الحال أيضا ﴿وَقَالُوا﴾ على سبيل تمني التخفيف لا على وجه الإنكار إذا كان القائلون مؤمنين صادقين: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ في هذا الوقت؟ ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي منتظر مستقبل، فإن كل آتٍ قريب ! ﴿قُلْ﴾ يا رسولي تزهيدا لهم عن آمال الدنيا ونعيمها: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ولو استمر لكم زمانا طويلا ﴿وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ﴾ متاعا وراحة ودواما ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ ربه، فتجزون فيها جزاء وافيا جليلا جميلا ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ مقدار ما على نواة التمرة.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ لأنه مربوط بالوقت المحدد له في العلم الأزلي ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ أي ولو كنتم في قصور عالية مطليّة بالشيد وهو الجصّ ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، أي وإن تصبهم نعمة من الخصب ورخص السعر وتتابع السنة بالأمطار يقولون: جاءتنا هذه النعم من عند الله لما علم فينا من الخير، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي بلية ونقمة من القحط والجدب والشدة وغلاء الأسعار ﴿يَقُولُوا هَذِهِ﴾ البلايا جاءتنا ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي من شؤمك. وهذه الفقرة شاهد صدق على ان مورد النزول كان جمعا من المنافقين كعبدالله بن أبي بن سلول وأتباعه الذين تخلفوا عن القتال يوم أحد، وقال للذين قتلوا: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾

، فهم كانوا داخلين في عداد المؤمنين صورة ومن الكافرين سيرةً، وإذا أصابتهم غنيمة قالوا: هي من عند الله تعالى أعطانا لأهليتنا لها، وإن تصبهم هزيمة أو بلية قالوا: هذه من سوء تدبيره، أي الرسول صلى الله عليه وسلم. ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ تعالى. أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يقول لهم: كل من النعم والنقم، ومن النصر والهزيمة يأتيكم من عند الله، فلا خالق إلا هو ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ كلام سيق لبيان سوء مشربهم والتعجيب من حالهم أي أيّ شيء حصل لهؤلاء حالكونهم بمعزل من أن يفقهوا نصوص القرآن الناطقة بأن الكل فائض من عند الله تعالى، أو ماذا منعهم أن يفهموا كلاما يوعظون به؟

﴿مَا أَصَابَكَ﴾ أيها الإنسان ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ علمية أو عملية مالية أو حالية ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ تفضيلا وكرما، فإنه هو الموجد لكل شيء وكل حسنة ناشئة منك فبتوفيقه وتيسير الأسباب منه، وكل نعمة وردت إليك إذا لم تكن بمباشرة أسباب منك فهو بمحض الفضل والجود أو بمباشرتها، فالتيسير للاسباب من الله الفياض بالكرم والجود ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ أي نقمة وبلية ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ بمباشرة أسبابها أو بارتكاب معاص جلبتها وتسببت في نزولها؛ فإن المآسِيَ من المعاصي، مع أن كلا من الحسنة والسيئة مخلوقة لله؛ إذ لا مؤثر في الوجود إلا الله، فإضافة الأشياء إليك من أي باب إنما هي لمباشرتك للاسباب فقط ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ هاديا إلى الصراط المستقيم من العلم السليم والعمل القويم ولا يضرّك أحقاد الكفار والمنافقين ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على رسالتك وجلالة قدرك. ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ﴾ في ما امر به او نهى عنه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه هو المبدأ للأمر والنهي والرسول مبلغ ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن طاعتك ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ أعمالهم وتحاسبهم

عليها. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، والمراد من ذلك تطمين الرسول صلى الله عليه وسلم بانه أدى رسالته وبلغ أمانته.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (81) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82) ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي ويقول المنافقون إذا كانوا عندك امرنا سَمعٌ وطاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي خرجوا من مجلسك ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي دبرت وزورت طائفة منهم وهي رؤساؤهم غير ما قالت من القبول والرضا، والإطاعة في حضورك ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يعني والله يثبت في صحائف أعمالهم ما يدبرونه ويزورونه ويحاسبهم عليه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ قائما بما هو من شئونه من مراعاة الحقائق ومحاسبة العباد عليها، فلا يهمنك عداؤهم وأحقادهم وبغضاؤهم. ويظهر من أعمال وأحوال أولئك المنافقين أنهم لم يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى العالم من الإنس والجن ولم يؤمنوا بأن الكتاب المنزل عليه كلام الله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ حتى يتبين خطأهم في ذلك. ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ في آياته بعضها مع بعض. وإيضاحه أن في القرآن الكريم آيات تبحث عن الكواكب وحركاتها، والرسول لم يكن فلكيا، ولم يدرس علم الفلك، فكان اللازم على تقدير كونه كلامه أن يكون بعضه صادقاً وبعضه كاذبا، وفيه حكايات عن أحوال الأمم السابقة ورسلها وكلام كذلك مع طوله

لا يخلو عادة عن مخالفة بعضها لبعض، وفيه إخبار عن حدوث أمور في المستقبل، وليس الرسول عالما بالغيب، فلو كان القرآن كلامه لظهرت المخالفة في بعضها إلى غير ذلك من الأحوال التي لو كان الذاكر لها غير علّام الغيوب لوقع فيها الاختلاف، ويعلم ذلك أهل العقل والإنصاف. وما دام لم يجدوا فيه الاختلاف كان الواجب عليهم أن يؤمنوا بأنه كلام الله الأزلي الأبدي يعلم الكائنات وما فيها، ولا يغيب عنه منها شيء والذي نزل عليه ذلك الكلام هو الرسول المبعوث إلى الأنام لتبليغه وتطبيقه باعتبار أنه شريعة وأساس يبقى على مرّ الأيام.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (83) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (84) مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (85) ﴾

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما اعتزل النبي صلى الله عليه وسلم نساءه دَخَلْت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحَصى ويقولون: طلق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نساءه، فلم أصبر حتى استأذنت على رسول الله فقلت له: أطلقتَ نساءك؟ قال: لا فقلت: الله

أكبر. فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه. فنزلت هذه الآية فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾ أي وإذا جاء المنافقين أو ضعفاءَ المسلمين أمر مما يوجب الأمن والطمأنينة لقلوب الناس أو يوجب الخوف والفزع وانزعاج قلوبهم ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ ونشروه بين الناس فيسمعه المؤمن والكافر والصادق والمنافق، وربما يحصل من انتشاره بعض أضرار على المؤمنين، فهذه الإذاعة إضاعة لأسرار المؤمنين، ولا يجوز بأي حال من الأحوال إفساح المجال لهم، ويجب لمن سمع شيئا من هذه الأمور أن يتوقف ويتريث حتى تظهر الحقيقة ويردّه إلى أهله كالرسول وخواصه ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ مثل كبار الصحابة المطلعين على الحقائق وأسرارها ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي لعلم حقيقته وعلى أيّ وجه يذكر الذين يستنبطونه ويستخرجون تدابيره بتجاربهم وأفكارهم، ولم يكن ذكرها على وجه يورث الخطر على المسلمين ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وإيضاح ما في طيات آياته من الحقائق، وتثبيت قلوب المؤمنين بالإرشاد والبيان المفيد ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منكم خصه الله بمزيد عقل وعلم راجح ناجح اهتدى به إلى الحق والصواب كعمر بن الخطاب وسائر أهل الفكر والصواب ﴿فَقَاتِلْ﴾ الكفار ﴿فِي سَبِيلِ﴾ إعلاء كلمة ﴿اللَّهِ﴾ تعالى ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ ولست مسؤولا محاسبا إلا على فعل نفسك ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قريش وسائر المشركين بإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من أعداء الدين ﴿وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ وتعذيبا وتأثيرا بالتحطيم للكافرين منهم لكم وتحريضك للمؤمنين على الجهاد في سبيل الله ليجاهدوا فيخلصوا من شر الأعداء وإيذاء الناس لاسيما المستضعفين

والفقراء من قبيل الشفاعة لهم عند الله تعالى لتخليصهم بواسطة المجاهدة عن اتباع الهوى الموجب للانهيار والدمار واستحقاق عذاب النار. و﴿مَنْ يَشْفَعْ﴾ لأي فرد أو جماعة أو أمة ﴿شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ راعى بها الحق المحترم ﴿يَكُنْ لَهُ﴾ أي لهذا الشفيع ﴿نَصِيبٌ﴾ كبير ﴿مِنْهَا﴾ وهو ثوابها لأنه كان دليلا على نيل الخير والدال على الخير كفاعله ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ تحلل حراما أو تحرم حلالا، أو يوصل الإنسان الغير المستحق لدرجة إليها بأن يجعل له تصرفا في الأمة وهو سيء الإدارة، أو مدرسا لطلاب وهو غير قادر على الإفادة والإنارة.. ﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ اي نصيب من وزرها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ أي قادرا مقتدرا من أقات على الشيء إذا قدر عليه. وقال عليه السلام: ((من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له، وقال له الملك: ولك مثل ذلك)).

﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (86) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87) ﴾

قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ الآية الجمهور على أن المراد بالتحية هنا هو السلام. والمعنى أنه إذا سلم عليكم بسلام فردّوا السّلام وأدّوا الجواب بوجه أحسن منها في كمية الكلمات، وفي كيفية أدائها من إكرام وابتسامٍ ومحبة واحترام ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ بمثلها. والجمهور على أن ابتداء السلام سنةُ عينٍ وكفاية للجماعة، وأن الجواب للمسلم فرض عين للفرد وكفاية للجماعة، إلا في مواد استثنيت من الابتداء به أو الجواب عنه. ومنها السلام على من على قضاء الحاجة، أو في الحمام أو من يقرأ القرآن،

أو يؤذن أو يشتغل بالأكل. ويسلم الماشي على القاعد، والراكب على الماشي والصغير على الكبير، والأقل على الأكثر. وفي الكشاف من قال لآخر: إقرأ السلام على فلان وجب عليه أن يفعل، كما يجب على من قرئ عليه رده بعبارة صريحة، وأحسنها علينا وعليك وعليه السلام ورحمة الله. ويجوز السلام على النساء الأجنبيات إلا عند خوف الافتتان كأن كانت امرأة جميلة. ولا يسن السلام على كافر وذمي أو غيره إلا عند خوف الفتنة، وإذا سلم كافر على مسلم رد الجواب بعبارة وعليكم، ولا يسلم عليهم في كتاب إلا يمثل والسلام على من اتبع الهدى. ونقل السيوطي أن الأصح من مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه وجوب الرد حال الخطبة. وقيل: إنه مستحب، وقيل: إنه مباح. وأما القارئ ففي روضة النووي أن الأولى ترك السلام عليه فإن سلم عليه كفاه الرد بالإشارة. وفي تفسير البيضاوي: إن وجوب الردّ حيث السلامُ مشروع، فلا يردّ في الخطبة، وقراءة القرآن، وفي الحمام. ولعل هذا هو الراجح في مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه.

وفي الأنوار: لو ناداه من وراء حائط او ستر بالسلام أو كتب كتابا أو أرسل رسولا به وجب الرد.

وصيغة السلام أن يقول: السلام عليكم، أو سلام عليكم، ولو قال السلام عليك حصلت السنة. ويستحب صيغة الجمع وإن كان المسلَّم عليه واحدا خطابا له ولملائكته. وصيغة الجواب وعليكم السلامـ أو وعليك السلام للواحد، ولو ترك الواو كفى. ولو قال: وعليكم لا يكون جوابا. وكمال السلام أن يقول المسلّم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وكمال الجواب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ويستحب لمن دخل داره أن يسلم على أهله، ولمن دخل مسجدا أو بيتا ليس فيه أحد أن يقول: السلام

علينا وعلى عباد الله الصالحين. والسلام عند القيام ومفارقة القوم دعاء وليس بتحية. فيستحب الجواب ولا يجب. وقيل: يجب لأن ابتداء السلام سنة لخبر: إذا انتهى أحدكم من المجلس فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخِرة رواه الترمذي.

ثم: المراد بأحسن أنه إذا قال المسلِّم: السلام عليكم تقول في جوابه: وعليكم السلام ورحمة الله، وإذا زاد المسلم ورحمة الله تزيد في الجواب وبركاته، واذا زاد وبركاته لا يبقى مجال للرد بالأحسن بل رده بمثله. روي أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: السلام عليك فقال: وعليك السلام ورحمة الله. وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله، فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقال وعليك.. فقال الرجل: نقصتني فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ((إنك لم تترك لي فضلا فرددت عليك مثله)).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ تقرير لمراقبته تعالى لأعمال المكلفين ويدخل فيها ما أمروا به من التحية دخولا أوليا حسب السياق. وقوله تعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر. وقوله ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ جواب قسم مقدر تقديره: والله ليجمعنكم الى يوم القيامة. والمعنى: والله ليحشرنكم من قبوركم في يوم القيامة. والقيامة كالطلابة قيام الناس من القبور، أو قيامهم للحساب. وقوله ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في جمعكم أو في يوم القيامة، فهو حال من اليوم أو صفة لمصدر محذوف. أي جمعا لا ريب فيه. وقوله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ إنكار لوجود شخص يكون أصدق من الله حديثا؛ لأن الله لا يتطرق الكذب إلى خبره، لأنه نقص والنقص محال على الله تعالى شرعا وعقلا؛ لأنه إما لحاجة أو لغيرها

وهو الغني المطلق. والغير إما عدم العلم، وهو العليم الذي لا يعزب عن علمه مقدار ذرة، وإما قصدا وهو لا يليق بجنابه المقدس وتعالى.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (88) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (89) ﴾

عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أُحُد فرجَعَ ناسٌ خَرَجُوا مَعَه فكان اَصْحابُ رَسولِ اللهِ فيهم فرقَتَين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا. فأنزل الله الآية. أخرجه الشيخان وغيرهما.

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أن قوما من العرب أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا واصابوا وباء بالمدينة وحماها فأركسوها، فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ما لكم رجعتم؟ فقالوا: أصابنا وباء المدينة فاجتويناها. فقالوا: مالكم في رسول الله أسوة. فقال بعضهم: نافقوا. وقال بعضهم: لم ينافقوا وهم مسلمون. فأنزل الله الآية. وقال مجاهد في هذه الآية: هم قوم خرجوا من مكة حتى جاؤا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون ثم ارتدوا بعد ذلك فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها. فاختلف فيهم المؤمنون فقاتل

يقول: هم منافقون وقائل يقول: هم مؤمنون. فبين الله تعالى نفاقهم، وأنزل هذه الآية وأمر بقتلهم في قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فجاءوا ببضائعهم يريدون هلال بن عويمر الأسلمي وبينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم حلف وهو الذي حصر صدره أن يقاتل المؤمنين فرفع عنهم القتل بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ الآية الاستفهام إنكاري، وما مبتدأ ولكم خبره، وفئتين حال من ضمير المخاطب، ومعناه: ماذا يحصل أو حصل لكم حالكونكم متفرقين إلى فرقتين في أولئك الناس المنافقين؟ ولماذا ما اتفقتم على كفرهم ونفاقهم؟ ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي والله تعالى ردهم إلى الكفر أو أضلهم بما كسبوا من المعاصي وسوء النية. ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وتجعلونهم من المهتدين بعد إبرام القضاء بضلالهم؟ ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ إلى الرّشاد. وإن لم تعرفوا بواطنهم فاعلموا أنهم ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أنتم ﴿كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ﴾ أنتم وهم ﴿سَوَاءً﴾ في الضلال، فمادامت بواطنهم كذلك ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أصدقاء وأحبابا ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وتتحققوا إيمانهم بتلك الهجرة. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان وعن إثباته بحجة الهجرة ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ توالونه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ تناصرونه.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90) ﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ ويلتجئون اليهم ويدخلون في عداد المعاهدين ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ حالكونهم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي ضاقت عن ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ لأنكم مسلمون ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ لأنهم من أقاربهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بأن قوى قلوبهم لذلك ﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ ولم يتعرضوا لكم بسوء ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي الاستسلام والانقياد ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

عن الحسن البصري: أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم قال: لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم على أهل بدر وأحد وأسلم من حولهم قال سراقة بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج فأتيته فقلت: انشدك النعمة؟ فقال الحاضرون: صه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم دعوه، ما تريد؟ قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم فإن اسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا لم تخش قلوب قومك عليهم. فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد خالد بن الوليد فقال: اذهب معه فافعل ما يريد. فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن أسلمت قريش أسلموا معهم فأنزل الله الآية أخرجه ابن أبي حاتم.

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (91) ﴾

قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آَخَرِينَ﴾ الآية نزلت في أناس كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيُسلِمون رياءً ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا قومَهم فأبى الله تعالى ذلك عليهم، قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل الآية في حق المنافقين. فيقول الباري سبحانه وتعالى لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه: ﴿سَتَجِدُونَ آَخَرِينَ﴾ من الكفار غير المنافقين السابقين ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ﴾ بالايتان الى النبي صلى الله عليه وسلم واظهار الايمان ليأمنوا منكم ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ من مشركي مكة إذا رجَعوا إليهم بالاشتغال بأمور الوثنية المعتادة بينهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ أي دُعوا للاشتراك كما قال السدي ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ أي قُلِبُوا فيها اقبَح قلبٍ وأشنعه ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي فإن لم يعتزلوكم بالكف عن التعرّض لكم ولم يُلْقوا إليكم الصلح والمهادنة ولم يكفوا أيديهم عن قتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث وجدتموهم وتمكنتم منهم ﴿وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي وأولئك الناس الكافرون الموصوفون بما ذكر من الصفات القبيحة قررنا لكم عليهم حجة واضحة فيما أمرناكم به من قتلهم متى ظفرتم بهم وتمكنتم منهم.

(تنبيه) علم من ترتب قوله تعالى ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ﴾ على ما سبقه من الشروط أن قوله تعالى ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ وقوله ﴿ويكفوا أيديهم﴾ معطوفتان على المنفي فيما قبل ويستولى عليهما النفي، والتقدير: فإن لم يعتزلوكم ولم يلقوا إليكم السلم ولم يكفوا أيديهم فخذوهم.

في روح المعاني ما نصه: وعن بعض المحققين أن هذه الآية مقابلة للآية الأولى فقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ مقابل قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ﴾ وقوله جلّ وعلا ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ مقابل قوله: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ مقابل قوله: ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ والواو لا تقتضي الترتيب؛ فالمقدم مركب من ثلاثة أجزاء في الآيتين. وهي في الآية الأولى الاعتزال وعدم القتال وإلقاء السَّلَم فبهذه الاجزاء الثلاثة تم الشرط. وجزاؤه عدم التعرض لهم بالأخذ والقتل كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ وفي الآية الثانية عدم الاعتزال وعدم إلقاء السلم وعدم الكف عن القتال، فبهذه الأجزاء الثلاثة تم الشرط، وجزاؤه الأخذ والقتل المصرح به بقوله سبحانه: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ﴾ إنتهى باختصار.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92) ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ الآية شروع في بيان حال المؤمنين بعد بيان حال الكافرين والمنافقين. ومعنى الآية الكريمة: ما صح وما ينبغي لمؤمن وليس من شأنه المناسب له أن يقتل مؤمنا بغير حق، فإن الإيمان بالله ورسوله والشعور بالمسؤولية يوم القيامة وأخوة

الإسلام كل ذلك زاجر له عن أن يقتل مؤمنا بغير حق إلا إذا كان القتل خطأً فإنه مما لا يحترز عنه بالكلية، ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَ﴾ عليه ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي إعتاقها، ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي مؤداة إلى ورثة القتيل يقسمونها بينهم على حسب الميراث۔

أخرج أصحاب السنن الأربعة عن الضحاك بن سفيان الكلابي قال: كتب إليّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمرني أن أرِثَ امرأةَ أشيم الضبابي مِنْ عَقْلِ زَوجها ويقضي منها الدين وتنفذ الوصية، ولا فرق بينها وبين سائر التركة. وتجب الرقبة في مال القاتل والدية تتحملها العاقلة عنه، فإن لم تكن فهي في بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ أي إلا أن يتصدق أهله عليه ويعفونه عنها. وذكر بعنوان الصدقة حثا وترغيبا في العفو وقد أخرج الشيخان عن النبي صلى الله عليه وسلم كل معروفٍ صَدَقة.

مهمة يجب الانتباه لها هي: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه المجيد العمد والخطأ ولم يذكر شبه العمد وقد اختلف العلماء في القول به، فقال ابن المنذر: أنكر ذلك مالك وقال: ليس في كتاب الله إلا العمد والخطأ. وقال أبو عمر: أنكر مالك والليث ابن سعد شبه العمد فمن قتل عندهما بما لا يقتل مثله غالبا كالعضّة واللطمة وضربة السوط والقضيب وشبه ذلك... فإنه عمد وفيه القود، قال أبو عمر: وقال بقولهما جماعة من الصحابة والتابعين. وذهب جمهور فقهاء الأنصار إلى أن هذا كله شبه العمد، وممن أثبت شبه العمد الشعبي والحكم وحماد والنخعي وقتادة وسفيان الثوري وأهل العراق والشافعي. ورُوي ذلك عن عمر بن الخطاب وعليّ ابن أبي طالب رضي الله عنهما. وهذا هو الصحيح فإن الدماء اَحَقُّ ما احتيط لها، إذ الأصل صيانتها فلا تستباح إلا بأمرٍ بَيّنٍ لا إشكال فيه، وإذا كان أمراً مترددا بين

العمد والخطأ حكم له بشبه العمد، فالضرب مقصود والقتل غير مقصود، وإنما وقع بغير القصد فيسقط القود وتغلظ الدية، وبمثل هذا جاءت السّنة.

روى ابو داود من حديث عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((اَلا ان ديةَ الخطأ شبهِ العمد ما كان بالسوط والعصا مأةٌ من الإبل، منها أربعون في بطونها أولادُها)). وروى الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((العَمدُ قَوَد اليَدِ. والخطأ عقل لا قود فيه، ومَنْ قُتل في عِمِّيّةٍ بحجر أو عصا أو سوط فهو دية مغلظة في أسنان الابل)) وروي أيضا من حديث سليمان بن موسى عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((عقل شبه العمد مغلظ مثل قتل العمد ولا يقتل صاحبه)). وهذا نَصٌّ.

وإذا علمت أن العراقيين والشافعي قائلون بشبه العمد فاعلم أن القتل عند الفقهاء العراقيين أي أبي حنيفة وأتباعه خمسة أنواع:

الأول: عمد وهو أن يتعمد ضربه بسلاح ومحدد من خشب وحجر وليطة ونار، وموجبه الإثم والقود عينا، فلا يصير مالا إلا بالتراضي لا الكفارة، لأن القتل كبيرة محضة وفي الكفارة معنى العبادة ولا يناط بها.

والثاني: شبهه وهو أن يقصد ضربه بغير ما ذكر، وموجبه الإثم والكفارة ودية مغلظة على العاقلة لا القود لشبهه بالخطأ نظرا إلى آلته، وهو في مادون النفس من الأطراف عمد موجب للقصاص، فليس في مادون النفس شبه عمد.

والثالث: خطأ وهو نوعان لأنه إما خطأ في ظن الفاعل كأن يرمي شخصا ظنه صيدا، أو حربيا فإذا هو مسلم. وإما خطأ في نفس الفعل كأن يرمي غرضا

أو صيدا فأصاب آدميا، أو رمى غرضا فأصابه ثم رجع عنه، أو تجاوز عنه إلى ما وراءه فأصاب رجلا، أو قصد رجلا فأصاب غيره.

والرابع: ما جرى مجراه كنائم انقلب على رجل فقتله، وموجبه الكفارة والدية على العاقلة.

والخامس: قتل بسبب كحافر البئر وواضع حجر في غير ملكه من غير إذن من السلطان، وكذا واضع خشبة على قارعة الطريق ونحو ذلك. وموجبه الدية على العاقلة لا الكفارة. وكل ذلك يوجب حرمان الإرث إذا كان الجاني مكلفا، إلا هذا الأخير.

وأما عند الشافعي رضي الله عنه ففي منهاج الإمام النووي وشرحه لابن حجر رضي الله عنهما: الفعل المزهق ثلاثة لمفهوم الخبر الصحيح: ((ألا إن في قتل عمد الخطأ كقتيل السوط والعصا مأة من الإبل)): عمد، وخطأ، وشبه عمد. ولا قصاص إلا في العمد وهو قصد الفعل وعين الشخص بما يقتل غالبا جارح أو مثقل. فإن فقد قصدهما أو قصد أحدهما بأن وقع عليه فمات أو رمى شجرة فأصابه فخطأ. وإن قصدهما بما لا يقتل غالبا فشبه عمد ويسمى خطأ عمد، وعمد خطأ وخطأ شبه عمد. سواء أقتل كثيرا أم نادرا كضربة يمكن عادة إحالة الهلاك عليها. ومنه الضرب بسوط أو عصا، فلو غرز إبرةً بمقتل فعمدٌ، وكذا بغيرها إن تورّم وتألّم حتى مات. فإن لم يظهر أثر ومات في الحال فشبه عمد، وقيل عمد وقيل لا شيء ولو غرزها فيما لا يؤلم كجلدة عقب فلا شيء بحال.

أما الدية: فدية شبه العمد عند الإمام أبي حنيفة وأتباعه: مأة من الإبل أرباعا من: بنت مخاض، وبنت لبون، وحقة إلى جذعة. وهي المغلظة لا

غيرها. وفي الخطأ أخماس منها ومن بنت مخاض أو ألف دينار من الذهب أو عشرة آلاف درهم من الوَرِق أي الفضة. والدية على العاقلة على حسب ما ذكر في المدونات. والعاقلة: أهل الديوان وهم العسكر فتؤخذ من عطاياهم في ثلاث سنين وإن لم يكن أهل الديوان فعاقلته قبيلته، وتقسم عليهم في ثلاث سنين، فإن لم تسع القبيلة لذلك ضم إليهم أقرب القبائل نسبا على ترتيب العصبات، والقاتل أحدهم. ولا تَعْقِلُ عاقلةُ جنايةِ عمدٍ في النفس[1] أو الطرف فإن العمد لا يوجِب التخفيف، ولا ما لزم بصلح أو اعتراف فإنه على القاتل حالّاً إلا اذا أُجّل. وإذا لم يكن للقاتل عاقلةٌ فالدية في بيت المال إذا كان القاتل مسلما. ومن له وارث معروف ولو بعيدا لا يعقله بيت المال.

ودية المرأة على النصف من دية الرجل في دية النفس وما دونها. روي ذلك عن علي رضي الله عنه موقوفا ومرفوعا. وأما كفارة شبه العمد والخطأ فعتق عبد مؤمن، فإن عجز عنه صام شهرين ولاءً ولا إطعام فيهما إذ لم يرد به النص. وأما عند الإمام الشافعي فالدية في قتل الحر المسلم الذكر المعصوم غير الجنين مأة بعير إجماعا وهي مثلثة في العمد وعلى نفس القاتل معجلة مثلثة في شبه العمد أيضا لكنها على العاقلة مؤجّلةً وهي ثلاثون حقه وثلاثون جذعة وأربعون خَلِفةً، أي حاملا لخبر الترمذي بذلك ومخمسة في الخطأ: عشرون بنت مخاض وكذا بنات لبون وبنو لبون وحِقاق وجِذاع من الإناث فإن قتل خطأ في حرم مكة أو في الأشهر الحرم الأربعة أو محرما ذا رحم كأم

[1] هذا اذا عفا القاتل المتعمد على المال.

وأخت فهي مثلثة ولكنها على العاقلة أيضا. ولو عدمت الإبل فالقديم أن الواجب ألف دينار أو إثنا عشر ألف درهم، والجديد أن الواجب قيمة الإبل المأة بالغة ما بلغت. ودية المرأة والخنثى كنصف دية رجل نفسا وجرحاً وأطرافا إجماعا في نفس المرأة وقياسا في غيرها.

وأما كفارة القتل عمدا أو شبه عمد أو خطأ فهي ككفارة الظهار لكن لا إطعام هنا، فهي تحرير رقبة فإن عجز فصيام شهرين متتابعين. وهي فورية في العمد وشبهه تداركا لإثمهما بخلاف الخطأ فلا تجب الفورية فيها كما يظهر من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي وإن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين أو في تضاعيفهم ولم يعلم إيمانه فعلى قاتله الكفارة دون الدية لأهله، إذ لا وراثة بينه وبينهم لأنهم محاربون ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي وإن كان المقتول من قوم كفرة معاهدين أو أهل ذمة فحكمه حكم المسلمين في وجوب الكفارة والدية ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فيما شرعه من الأحكام.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93) ﴾

أجمعوا على أن الآية نزلت في مَقْيَسِ بنِ ضبابة، وذلك أنه كان قد أسلم هو وأخوه هشام بن ضبابة فوجد هشاما قتيلا في بني النجار فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فكتب له إليهم أن يدفعوا إليه قاتل أخيه وأرسل معه رجلا من بني فهر. فقال بنو النجار: والله ما نعلم له قاتلا، ولكنا نُؤدي الدِّيَةَ، فاعْطَوْهُ مأةً من الإبل ثم انصرفا راجعين إلى

المدينة. فعدا مقيس على الفهري فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة كافرا مرتدا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا اؤَمِّنُهُ في حَلِّ ولا حَرَم)) وأمر بقتله يوم فتح مكة وهو متعلق بالكعبة، ولما ثبت هذا بنقل أهل التفسير وعلماء الدين فلا ينبغي أن يحمل على القاتل المسلم قطعا. ثم ليس الأخذ بظاهر هذه الآية بأولى من الأخذ بظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ والأخذ بالظاهرين تناقض فلابد من التخصيص. ثم إن الجمع بين آية الفرقان وهذه الآية ممكن فلا نسخ ولا تعارض. وذلك أن يحمل مطلق آية النساء على مقيد آيَةِ الفرقان فيكون معناه فجزاؤه كذا إلّا من تاب لاسيما وقد اتحد الموجِب وهو القتل والموجَبُ وهو التواعد بالعقاب.

وأما الأخبار فكثيرة كحديث عبادة بن الصامت الذي قال فيه: ((تبايعوني على الّا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئا من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه)) رواه الأئمة. ولحديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الذي قتل مأة نفس أخرجه مسلم في صحيحه وابن ماجه في سننه وغيرهما إلى غير ذلك من الأخبار الثابتة.

ثم إنهم قد أجمعوا معنا في الرجل يشهد عليه بالقتل ويقرّ بأنه قتل عمدا ويأتي السلطانَ الأولياءُ فيقام عليه الحد ويقتل قوداً. فهذا غير مُتبع في الآخرة، والوعيد غير نافذ عليه إجماعا على مقتضى حديث عُبادة.

فقد انكسر عليهم ما تعلقوا به من عموم قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، ودخله التخصيص بما ذكرنا. وإذا كان كذلك فالوجه أن هذه الآية مخصوصة كما بينا، أو تكون محمولةً على ما حكي عن ابن عباس أنه قال متعمداـ معناه مستحيلا لقتله. فهذا ايضا يؤل إلى الكفر إجماعا أو أن المراد بالخلود المكث الطويل فإن الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم. وكأنه لما في الآية الكريمة مِنَ التهديد العظيم قال ابن عباس رضي الله عنه لا تقبلُ توبةُ قاتل المؤمن عمداًـ ولعله أراد به التشديد إذ روي عنه خلافه، أو أنه حملها على من قَتَل المؤمن لكونه مؤمنا. وذلك يوجب الكفر بلا شبهة ويكون مآل هذا التوجيه وقوله السابق مستحلا واحداً لابتنائهما على كفر ذلك القاتل. والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94) ﴾

عن ابن عباس قال: مرّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسوق غنما، فسلم عليهم فقالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية أخرجه البخاري والترمذي والحاكم. وفي غير البخاري: وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم دبته إلى أهله ورد عليه غنيماته.

واختلف في تعيين القاتل والمقتول في هذه المنازلة فالذي عليه الأكثر وهو في سير ابن إسحاق ومُصَنَّف أبي داود والاستيعاب لابن عبدالبرّ: أن القاتل مُحَلِّم بن جَثامة والمقتول عامر بن الأضبط. فدعا صلى الله عليه وسلم على محلّم فما عاش بعد ذلك إلا سبعاً ثم دُفِنَ فلم تقبله الأرض، ثم دفن فلم تقبله، ثم دفن ثالثة فلم تقبله ! فلما رأوا أن الأرض لا تقبله اَلْقَوه في بعضِ تلك الشعاب. وقال عليه السلام: ((إن الأرض لتقبل من هو شرّ منه)). قال الحسن: أما أنها تحبِسُ مَن هو شر منه ولكنه وعظ القومَ ألّا يَعُودُوا أي إلى مثل ذلك العمل.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ الآية شروع في التحذير عما يوجب الندم من قتل من لا ينبغي قتله. فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي سافرتم للغزو ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي فاطلبوا بيان الأمر ووضوحه في كل ما تفعلونه أو تتركونه، ولا تعملوا شيئا من غير تدبر وبصيرة ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ أي ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام وهي السلام عليكم لَسْتَ مؤمنا وإنما سلمت علينا خوفا من القتل والأسر وأخذ الأموال بل اقبلوا منه ما أظهره وعاملوه معاملة الأخ لأخيه المؤمن. ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حالكونكم عند ذلك القول تطلبون أسره أو قتله لتستولوا على متاع الحياة الدنيا مما عنده من السلب والأموال والمواشي وغيرها، فلا تطلبوا ذلك ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ في الدنيا ومواهب كثيرة في الآخرة تنالونها ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ فمثل ذلك الإنسان الذي ألقى اليكم السلام كنتم في مبادئ الإسلام أي لم يكن منكم إلا كلمات كانت تدل على الإسلام والانقياد له مثل كلمة التوحيد والشهادتين والسلام المعتاد في البين، وما اطلع أحد على حقيقة ما في قلوبكم مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم اقتنع منكم بذلك ولم يقل لأيّ واحد منكم لست

مؤمنا ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بقبول الإيمان ولم يأمر بالتوقف عن القبول حتى يظهر توافق القلب مع اللسان واضحا ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ هذا الأمر ولا تستعجلوا ولا تبادروا بإيذاء أمثال ذلك فضلا عن قتله وأخذ أمواله. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ولم يزل كذلك فيعاقبكم على الهجوم والاستعجال قبل بيان حقيقة الحال وهذا وعظ للاستقبال.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (96) ﴾

عن البراء بن عازب لما نزلت لا يستوي القاعدون من المؤمنين قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اُدْعُ فلانا)) أي زيد بن ثابت، فجاء ومعه الدّواة واللوح والكتف، فقال: ((أكتب)) ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ وخلفَ النبي ابنُ أم مكتوم، فقال: يا رسول الله أنا ضرير. فنزلت مكانها ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ أخرجه البخاري وأحمد والنسائي.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي.. ﴾ الآية شروع في الحث على الجهاد ليأنفوا من تركه وليرغبوا عما يوجب خللا فيه. والمراد بالقاعدين الذين أذن لهم في القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله

تعالى عنهم: هم القاعدون عن بدر، وهو الظاهر الموافق للتأريخ على ما قيل. وقال أبو حمزة: إنهم المتخلفون عن غزوة تبوك.

وروي أن الآية نزلت في كعب بن مالك من بني سلمة ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف. وهلال بن أمية من بني واقف حين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين أذن لهم بالقعود في بيوتهم وعدم خروجهم إلى الجهاد ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ من الذين ابتلاهم الله بنحو العمى والعرج مما يمنع الإنسان عن الاقتحام في الحروب، ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ إنفاقا بلا حيف وتضحية بها أمام السيف. فليسوا سواء في الأجر يوم القيامة؛ لأنه ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ﴾ في سبيله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ عن القتال من المؤمنين غير أولى الضرر ﴿دَرَجَةً﴾ مبهمة الأمر مجهولة القدر لا يعلم مداها إلا الله، لأنهم من الصابرين المحتسبين لله، وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴿وَكُلًّا﴾ من القاعدين والمجاهدين ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ المثوبة ﴿الْحُسْنَى وَ﴾ لكن ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ﴾ في كل كرامات وبركات ثابتة ﴿مِنْهُ﴾ تعالى لا من غيره لأنها من اختصاص فيض رحمته وشمول نعمته، وتلك الدرجات ارتقاءات في مواهب الحسنات، وزاد عليها ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ للذنوب والسيئات ﴿وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولم يزل ولا يزال ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾ بعباده المؤمنين المسيئين فضلا عن القاعدين والمجاهدين لإعلاء كلمة الحق والدين. وأما أولو الضرر المهتمون بالجهاد المكفوفون الممنوعون عن السير في العباد فلهم عين الدرجات على موازين الإيمان وحسن النيات، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99) ﴾

عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسْلَموا وكانوا يَسْتخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فأصيب بعضهم وقُتِل البعضُ. فقال المسلمون: قد كان أصحابنا هؤلاء مُسلمين وأُكرِهوا، فاستغفروا لهم. فنزلت فيهم هذه الآية. فكتب إلى من بقي من المسلمين بمكة بهذه الآية وإنه لا عذر لهم فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت فيهم الآية. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ العنكبوت. فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا وأيسوا من كل خير ونزلت فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ النحل، فكتبوا إليهم بذلك إن الله قد جعل لكم مخرجا فاخرجوا فخرجوا، فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل. أخرجه البيهقي في سننه وابن المنذر. وأخرجه البخاري مختصرا حيث يقول عن ابن عباس إن اناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادَ المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل. فأنزل الله الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية بيان لحال القاعدين عن الهجرة إثر بيان القاعدين عن الجهاد، أو بيان لحال القاعدين عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد معه من المنافقين بعد بيان حال القاعدين من المؤمنين، يعني إن الذين توفيهم الملائكة <37>

أي قبضت الملائكة أرواحهم وماتوا حالكونهم ظالمي أنفسهم بترك الهجرة عن مكة واختيار جوار الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بنفاقهم وتقاعدهم عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي قالت الملائكة لهم: في أي شيء كنتم من الشغل الشاغل عن إطاعة أمر الله من الهجرة أو المعونة والنصرة ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فقالوا في جوابهم: كنا مستضعفين في الارض، ومقهورين تحت أيدي الجبابرة، ولم نقدر على الهجرة أو النصرة، أو عملنا ما عملنا من الاعمال المضرة بالإسلام مضطرين مكرهين. ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ أي قالت الملائكة لهم: إن عذركم ذلك باطل، إذ كان يمكنكم حل تلك العقدة بالارتحال عن بلدكم إلى بلد آخر تقدرون فيه على إقامة الدين ونصره. فكلام الملائكة هذا معارضة لمعذرة أولئك المستضعفين.
وحاصلها: قد كان لكم وسيلة الخلاص لو كان عندكم شيء من الإخلاص. ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الناس المتقاعدون عن الهجرة أو أولئك المتقاعدون عن النصرة ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ لتركهم فريضة الهجرة والجهاد مع سيد العباد، أو لنفاقهم وتقاعدهم عما يؤدي إلى إعلاء كلمة الله. ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنمُ. ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ﴾ كعياش ابن أبي ربيعة وسلمة بن هشام والوليد ابن الوليد ﴿وَالنِّسَاءِ﴾ كأم الفضل لبابة بنت الحارث أم عبدالله ابن عباس، ﴿وَالْوِلْدَانِ﴾ كعبدالله المذكور وغيرهم رضي الله عنهم. حالكونهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ أي لا يتمكنون من أسباب الحركة والهجرة من الدليل والنفقات والحراسة لهم حتى يخرجوا من أيدي الأعداء، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ إلى المقصود بالمعنى العام أو الخاص ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ لعدم قدرتهم الكاملة على الوفاء بالواجب ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولم يزل ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وهذه الجملة للتقرير والاستثناء منقطع لأن <38>

الموصول المبحوث عنه قيد بقوله ظالمي أنفسهم وأولئك الرجال والنساء الضعاف ما لم تكن لهم حيلة ولا اهتداء إلى سبيل لم يكلّفوا بالهجرة، فلم يظلموا أنفسهم بالبقاء في أماكنهم.

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (100) ﴾

عن ابن عباس قال: كان سمرة بن جندب أو ابن العيص بمكة، وكان مسلما فلما نزلت إلا المستضعفين قال إني لغني وإني لذو حيلة وإني لدليل في الطريق ومالي من عذر، وكان مريضا فتجهز يريد النبي صلى الله عليه وسلم فأدركه الموت بالتنعيم قبل اَن يصلَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية. أخرجه ابنُ أبي حاتم وأبو يَعْلى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ﴾ الآية ترغيب في الهجرة وتحسين لها. والمراغم اسمُ مكان من باب المفاعلة بمعنى المتحول والمُهاجَر. وفي تعبير الباري به تأكيد للترغيب في المهاجرة لدلالته على أن ذلك المتحول الذي يجده المهاجر يكون سببا لرغم أنف قومه الذين هاجرهم. وقيل المراد بالمراغم طريق يراغم قومه بسلوكه فيه. أي يفارقهم على رغم أنوفهم والرغام التراب. وأصله لصوق الأنف بالرغام. والمراد به هنا الذل والهوان. ومعنى الآية: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ﴾ نصرةٍ دين ﴿اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ﴾ التي يسافر إليها ﴿مُرَاغَمًا﴾ واسعاً ومتحولا نافعا ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾

في المكان لسهولة الإسكان ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ قبل أن يصل إلى المقصد ويحط الرحالَ ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (101) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (102) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (103) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104) ﴾

عن علي قال: سأل قوم من بني النجار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله إنا نضرِب في الارض فكيف نصلي؟ فأنزل الله

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية... ثم انقطع الوحي فلما كان بعد ذلك بحولٍ غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في إثرها، فأنزل الله بين الصّلاتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ فنزلت صلاة الخوف أخرجه ابن جرير.

وعن ابن عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا النبي الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصَبْنا غرتهم ! ثم قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم وهي العصر. فنزل جبريل بهذه الآية بين الظهر والعصر. ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ الآية رواه أحمد والبيهقي والحاكم وأبو داود والنسائي.

وعن ابن عباس قال: نزلت ﴿وَلَا جُنَاحَ... ﴾ الآية في عبدالرحمن بن عوف كان جريحا. رواه البخاري.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي ذنب ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ بتصنيف ركعاتها ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يوقعكم الكفار في الفتنة بالقتل أو الجرح أو سائر وجوه الإيذاء ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ وهم متربصون بكم الدوائر فأباح الله لكم القصر لتفرغكم لمحاربتهم.

وهنا أمور ينبغي التعرض لها: الاول وهي: إن قوله تعالى وإذا ضربتم في الارض بمعنى سافرتم ودخلتم في السفر، ولكن هذا السفر لم يتحدد بالنص ولم يذكر حد السفر الذي يقع به القصر لا في القرآن ولا في السنة.

وإنما كان كذلك لأن السفر لفظ عربي استقر علمه عند العرب الذين خاطبهم الله تعالى بالقرآن، فمن المعلوم أن من برز عن الدور لبعض الأمور أنه لا يكون مسافرا لغة ولا شرعا، وإن مشى مسافرا ثلاثة أيام فإنه مسافر قطعا كما أنه يحكم على من مشى يوما وليلة إنه مسافر لقوله صلى الله عليه وسلم: ((لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم منها)). وهذا هو الصحيح لأنه وسط بين الحالتين، وعليه عوّل الإمام مالك، ولكنه لم يجد هذا الحديث متفقا عليه. وروى مرة يوما وليلة، ومرة ثلاثة أيام. فجاء إلى عبدالله بن عمر فعوّل على فعله فإنه كان يقصر الصلاة في السفر أربعة بُرُدٍ، لأن ابن عمر كان كثير الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم. وكافة العلماء على أن القصر إنما شرع تخفيفاً وإنما يكون في السفر الطويل الذي تلحق به المشقة غالبا. فالإمام أبو حنيفة اعتبر المسافة مقدرة بالزمن وهو ثلاثة أيام من أقصر أيام السنة، ويكفي أن يسافر في كل يوم منها من الصباح إلى الزوال.

والإمام الشافعي اعتبر أربعة بُرُدٍ أي ستة عشر فرسخا، وبما أن كل فرسخ ثلاثة أميال تبلغ ثمانية وأربعين ميلا، والميل ستة آلاف ذراع بذراع اليد، وهذه المسافة تساوي ثمانين كيلو متراً ونصف كيلو متر ومأة وأربعين مترا.

وظاهر قوله تعالى ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ ان القصر جائز لا واجب، ويؤيده أنه صلى الله عليه وسلم أتم في السفر وأن عائشة رضي الله عنها اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: يا رسول الله قصرت وأتممت وصمت وأفطرتُ. فقال: أحسنتِ يا عائشة. ولكن القصر أفضل عند الشافعي من الإتمام إن بلغ سفره ثلاث مراحل، فإن كان

السفر أقل من الثلاث فالإتمام أفضل. وأوجب الإمام أبو حنيفة القصر في السفر مطلقا لما ثبت عنده.

ثم ظاهر الآية الكريمة ان جواز القصر مشروط بالخوف من الكفار ولكن العلماء لم يعتبروا مفهوم هذا القيد لأنه ورد حسب رعاية الواقع أو أنه مبني وجارٍ على موافقة الغالب كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ ومنهم من قال: إن هذه الآية الكريمة بينت حكم صلاة الخوف، وأما القصر في السفر وقت الأمن فثابت بالسنة. وقد تظاهرت السنن على جوازه في الأمن فقد قال الشافعي رضي الله عنه: القصر في غير الخوف بالسنة. وأما في الخوف مع السفر فبالقرآن والسنة. ومن صلى أربعا فلا شيء عليه ولا أحب لأحد أن يتم في السفر رغبة عن السنة.

وقال أبو بكر الأثرم: قلت لأحمد بن حنبل: للرجل أن يصلي في السفر أربعا؟ قال: لا، ما يعجبني، السنة ركعتان. وقصر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أربع إلى اثنتين إلا المغرب في أسفاره كلها آمِناً لا يخاف إلا الله تعالى.

ثم إن صلاة الخوف كانت مشروعة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم له ولكل مسلم من أهل عصره معه صلى الله عليه وسلم أو منفردين عنه. واستمرت مشروعيتها إلى الآن، وهي مستمرة إلى آخر الزمان وأما شروط الصلاة وأركانها وسننها وعدد ركعاتها فهي في الخوف كالأمن بمعنى أنه إذا كانت في السفر تقصر أو في الحضر تكمل، إلا إذا اشتد الخوف ولم يبق مجال لإكمالها فعند ذلك تقصر، وإن لم يبق مجال لفعلها بالوجه المعتاد جازت كيف أمكن لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

وهي جائزة في كل قتال ليس بحرام سواء كان واجبا كقتال الكفار والبغاة وقطاع الطريق إذا قاتلهم الإمام وكذا الصائل على حريم الإنسان من نفسه وأهله وعرضه وماله وأولاده سواء أوجبنا الدفاع أو كان مباحا مستوي الطرفين كقتال من قصد مال غيره۔

وفي كيفية صلاة الخوف في قتال الكفار وجوه مروية. منها ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ في الصلاة، وليحرس طائفة أخرى منهم حذرا عن هجوم الأعداء ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ أي المصلون معك ﴿أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي الذين قاموا للصلاة معك ﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ أي فلينصرفوا للحراسة من العدو يقوموا مقام الطائفة التي حرست المصلين عند اشتغالهم بالصلاة ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا﴾ بعد وهي التي كانت تحرس ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ الركعة الباقية من صلاتك. ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ كالطائفة الأولى عند الصلاة حتى يكونوا في كمال الأهبة والاستعداد لرد هجوم المعاندين. والمراد بالحذر هو التنبه واليقظة، اعتبره كآلة يتحصن بها الغازي فجمع بينه وبين الأسلحة في وجوب الأخذ بتضمين الأخذ معنى الاستيلاء، أي وليستولوا على كل ما لديهم من المعنويات كالتنبه واليقظة، والماديات كالاسلحة نظير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي تمنوا أن ينالوا منكم غفلة في صلاتكم فيهجمون عليكم هجوما مباغتا. وهذه الجملة بيان سرّ الأمر بأخذ الحذر والأسلحة. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ في مدة الصّلاة، لأنها ثقيلة متعبة، لاسيما للمرضى، أو مع وجود عوارض أخرى كالمطر المبلل للثياب المثقل لها ﴿وَ﴾ لكن ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ إذا وضعتموها كي لا يهجم عليكم

الاعداء ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وفي هذا وعد بنجاح المؤمنين ووعيد بهلاك الكافرين ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي فإذا أديتم صلاتكم في الخوف ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ فاستمروا على ذكر الباري سبحانه في كل حال لأن الذكر أخو الصلاة ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ أي سكنت قلوبكم من الخوف ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فعدّلوها وأدوها كاملة غير مقصورة مع رعاية شرائطها وأركانها وسننها ومن جملة الإقامة أداء كل صلاة في وقتها المحدد. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ فرضا محدود الاوقات لا يجوز أداؤها قبلها ولا إخراجها بلا عذر مشروع ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي لا تضعفوا عن طلب الكفار للقتال. ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ أنتم بالمطالبة واللقاء والقتال ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾ أيضا ﴿كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ تعالى الجزاء الأوفى في الآخرة عند اللقاء ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ـه، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم وأحوالكم ﴿حَكِيمًا﴾ في ابتلائكم واعتلائكم بالانتصار في الدنيا والافتخار في الآخرة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (105) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (106) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (109) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (110) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (112) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113) ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ انزلت كلها في قصة واحدة، وذلك أن رجلا من الأنصار يقال له: طعمة ابن أبيرق، أحد بني ظفر ابن الحارث، سرق درعا من جار له يقال له قتادة ابن النعمان، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار، وفيها أثر الدقيق، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له: زيد ابن السمين فالتمِسَتِ الدرعُ عند طعمة فلم توجد عنده، وحلف لهم: والله ما أخذها وما له من علم ! فقال أصحاب الدرع: بلى والله قد أدلج علينا فأخذها وطلبنا أثرها حتى دخل داره فرأينا أثر الدقيق. فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه، فقال: دفعها إلى طعمة ابن أبيرق، وشهد له أناس من اليهود على ذلك فقالت بنو ظفر، وهم قوم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، فكلموه في ذلك فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرئ

اليهودي، فهمّ رسول الله أن يفعل، وكان هواه معهم، وأن يعاقب اليهودي فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا﴾ الآية وهذا قول جماعة من المفسرين.

وعن قتادة ابن النعمان كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق، وهم ثلاثة اخوة بشر وبشير ومبشر، وكان بشر رجلاً منافقا يقول الشعر يهجو أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يَنْحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا، وقال فلان كذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث فقال:

أو كلما قال الرجال قصيدة نحلت، فقالوا: ابن الابيرقِ

قال قتادة: وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة (قافلة من الإبل) حمولة من الشام من الدرمك (دقيق الحواري) ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير. فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة ابن رافع حملا من الدرمك فجعله في مشربة (اي غرفة الأكل) وفي المشربة سلاح له: درعان وسيفاهما باداتهما وما يصلحهما فعدا عليه ليلا، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي تعلم اَن قد عُدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا، فذهب بطعامنا وسلاحنا فتحسسنا في الدار وسألنا فقيل لنا: قد رأينا بني اُبَيْرِقَ استوقدوا نارا في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو اُبَيْرِقَ قالوا: ونحن نسأل في الدار والله ما نرى صاحبكم إلا لَبيد بن

سهل، رجلا منا ذا حسب ونسب وفيه صلاح وإسلام ! فلما سمع ذلك لبيد اخترطَ بسيفه. ثم أتى بني أبيرق وقال: أنا أسرق؟ ! فوالله ليخالطنكم هذا السيف او لَتُبَيّنُنَّ هذه السرقة ! قالوا: إليك عنا أيها الرجل فوالله ما أنت بصاحبها. فسألنا في الدار حتى لم تشك أنهم أصحابها.

فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له ذلك ! قال قتادة: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إن أهل بيت منّا أهل حفاء عمَدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له واخذوا سلاحه وطعامه فليردوا علينا سلاحنا. وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سأنظر في ذلك. فلما سمع ذلك بَنُوا اُبَيْرق اَتَوْا رجلا منهم، ابن عم لهم، يقال له أسير بن عروة، فكلموه في ذلك واجتمع إليه ناس من أهل الدار. فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا هم أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثَبَت ! قال قتادة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته وغضب علي وعلى عمي وجادل عن بشير ومن معه. ثم قال: عمدت إلى أهل بيت ذُكِرَ منهم إسلامٌ وصلاحٌ ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثَبَت؟ قال قتادة: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك. فأتاني عمي رفاعة فقال لي يا ابن أخي ما صنعت؟ فاخبرته بما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: الله المستعان. فلم نلبث أن نزل القرآن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ... ﴾ الآيات الى عظيما. فلما نزلت هذه الآيات أتى رسول الله

صلى الله عليه وسلم بالسلاح فردّه إلى رفاعة. وقال قتادة: فلما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخا قد كبر في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولا فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحا. ثم لحق بشير بالمشركين مرتدا۔ أخرجه الترمذي وابن المنذر والحاكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾: أي إنا أنزلنا إليك الكتاب ملابسا ببيان الحق وبطريق الحق لتحكم بين الناس بَرهم وفاجِرِهم بما أراك الله أي بما عرفك به وأوحى به إليك ولا تكن لأجل الدفاع عن الخائنين خصيما، ومخاصما للبراء المبتعدين عن الخيانة ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ تعالى مما قلت لقتادة، أو مما هممت به في براءة طعمة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن ما قاله صلى الله عليه وسلم لقتادة أو ما هم به من براءة طعمة لم يكن ذنبا وإثما حتى يستغفر منه الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن لعلو مقامه عن بيان شيء قبل الوحي أمر بالاستغفار، فليس ذلك استغفارا من الذنب عند المولى بل استغفار عنده من خلاف الأولى.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي لا تجادل بعض الناس من أجل الدفاع عن الذين يخونون الناس ويعود وبال خيانتهم إلى أنفسهم فهم باعتبار العاقبة خانوا أنفسهم لعود ضرر خيانتهم إليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا﴾ مبالغا في الخيانة متعودا لها ﴿أَثِيمًا﴾ كثير الاثم متعمقا فيه. والإتيان بصيغة المبالغة وتعليق النّفي به لموافقة الواقع لأن بني أبيرق كانوا كذلك وإلا فالباري تعالى لا يحب أهل الخيانة مطلقا سواء كانوا خائنين أو خوّانين.

ثم استانف في ذمهم بقوله ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي يريدون إخفاء عيوبهم عن الناس كي لا يطلعوا على عيوبهم ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ العليم العلام ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ معية علم وإدراك ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ في زمان كانوا يُدَبِّرونَ ما لا يرضى به الباري تعالى من رمي البرئ من السرقة بها وشهادة الزور ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والخفية ﴿مُحِيطًا﴾ اي مستوعبا بالعلم لا يعزب عنه شيء منها.

﴿هَا﴾ حرف تنبيه ﴿أَنْتُمْ﴾ مبتدأ و﴿هَؤُلَاءِ﴾ خبره، وجملة ﴿جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبرا، أو أنتم مبتدأ وهؤلاء منادى بحذف حرف النداء، وجملة جادلتم خبرٌ. يعني أنتم أيها الناس جادلتم عن الخائنين ودافعتم عنهم ﴿فِي﴾ دار ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي فمن الذي يتكلم مع الباري سبحانه وتعالى يوم القيامة عند شهادة جوارحهم عليهم؟ ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ بل من الذي يكون حافظا لهم ومحاميا حتى يخلصوا من عذاب الله في دار الآخرة؟ ومع ذلك كلّه فالأمر سهل، والسماح مرجو، والعفو منتظر ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ مما دون الشرك، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بالإشراك ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ بتوبة نصوح ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا﴾ لما صدر عنه مطلقا ﴿رَحِيمًا﴾ متفضلا عليه بالإحسان ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ صغيرا أو كبيراً ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾، ولا يتعدى ضرره إلى غيره ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمكاسب ﴿حَكِيمًا﴾ في ترتيب الجزاء على الأعمال ورعاية الحق. ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ صغيرة ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أي كبيرة ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ أي يرم إنسانا بريئا من تلك الخطيئة أو الإثم ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا﴾ أي كذبا على الغير ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ أي واضحا لا شبهة فيه أبدا. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإعلامك بحقيقة الأمر ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ يعني أسير بن عروة وأتباعه ﴿أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق مع اطلاعهم على حقيقة الأمر

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأن الله كان ولا يزال يوحي إليك الكتاب ويبين لك الصواب، ولا يتركك حتى تحكم بخلاف الصواب، ﴿وَ﴾ قد ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الجامع لمبادئ الأمور ومقاصدها، ﴿وَ﴾ أنزل عليك ﴿الْحِكْمَةَ﴾ أي العلم بالأمور والعمل بالدستور حسب الواقع، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ اعتقادا وعملا من خفيات الأحكام، ومزيلات الأوهام ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ من كل جانب من الجوانب من المواهب والمكاسب وتبقى كذلك إلى لقاء رب العالمين.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115) ﴾

قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ أي لا خير في كثير من نجوى الذين يختانون أو الناس على الإطلاق ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ أي إلا نجوى من أمَر ﴿بِصَدَقَةٍ﴾ وإحسان إلى محتاج، وإن قلت ﴿أَوْ﴾ أمر بـ ﴿مَعْرُوفٍ﴾ أي بما عرفه الشرع واستحسنه من الأقوال والأعمال كالإرشاد إلى الخير واعمال البرّ وإغاثة الملهوف وإعانة المنكوب وايواء المسكين ﴿أَوْ﴾ أمر ب ﴿إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ المتخاصمين في الأموال وسائر الأحوال ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ المذكور من فعل الصدقات ونحوها ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ لا لشيء آخر ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يحيط به البيان ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ ويخالف أوامره ونواهيه ويقع على الشق المخالف له، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

العالمين العادلين أي غير ما هم استمروا عليه من العقائد والاعمال ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ أي نجعله صاحبا واليا لما اتخذه وتولاه ونخليه على ما هو يريده ويتبعه من الضلال، ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ وندخله جهنم ليعذب فيها أبدا ﴿وَسَاءَتْ﴾ جهنم ﴿مَصِيرًا﴾ لأولئك الضالين.

واستدل بهذه الآية الكريمة على أن الإجماع حجة، وتقرير الدليل: أن الحكم الذي أجمع عليه المؤمنون واستمروا عليه سبيلهم، وما هو سبيلهم يجب اتباعه ولا يجوز اتباع غيره.. فالحكم الذي أجمع عليه المؤمنون يجب اتباعه ولا يجوز اتباع غيره. أما الصغرى فظاهرة، وأما الكبرى فلأن الله تعالى توعد الناس على اتباع غير سبيل المؤمنين، وكل ما وقع التوعد على اتباع غيره فهو مرغوب وواجب الاتباع.

واعترض بأن سبيل المؤمنين هو الإيمان ومن اتبعه فقد فاز ومن اتبع غيره فقد انحرف، وليس هناك دليل على إتباع غيره. وأجيب عنه بأن سبيل المؤمنين ما اتخذوه منهجا ومسلكا يمشون عليه، وهذا بظاهره شامل لكل عقيدة اعتقدوها ولكل عمل صالح عملوه بدون فرق بين ذاك وذلك، ولا مرجح لعقيدة على أخرى ولعمل على آخر ما داما من سبيلهم واستمروا عليه. لاسيما اذا كانوا مؤمنين عالمين عادلين كما قيدناه به سابقا. وسر ذلك أن الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب وبلغه رسوله وخوّله بيانه، وقد بينه بعد أنْ بلغه وأطاعه المؤمنون في ذلك وما يحتوي عليه من الجزئيات واستمروا على تطبيقه، فالظاهر من أحوالهم وهم مؤمنون عالمون عادلون السير على ذلك المنهج السليم فسبيلهم سبيل قويم وصراط مستقيم وغيره سبيل مُعْوَجّ وصراط غير مستقيم، وبالأخص إن المؤمنين جمع معرف وهو للاستغراق واستغراقه معناه كل المؤمنين فالخروج عن سبيلهم اتخاذ سبيل غير المؤمنين هذا في كون الإجماع منهم حجة بشرائطه.

وأعتقد أن آراء الأكثرية الساحقة هو أيضا كالإجماع فإذا كان في حكم شرعي اختلاف وهناك أكثرية ساحقة في جانب وأقلية في آخر يجب اتباع الأكثرية، لأن كلا الطرفين من المؤمنين، ورعاية الأكثر أوفر فائدة ولذلك روى عنه صلى الله عليه وسلم: ((وإذا رأيتم الخلاف فعليكم بالسواد الأعظم)).

عن المزني قال: كنت عند الشافعي يوما فجاءه شيخ عليه لباس صوف وبيده عصا، فلما رآه ذا مهابة استوى جالسا، وكان مستندا لإسطوانة وسوى ثيابه فقال له: ما الحجة في دين الله تعالى؟ قال: كتابه. قال: وماذا؟ قال: سنة نبيه صلى الله عليه وسلم. قال: وماذا؟ قال: اتفاق الأمة. قال: من أين هذا الأخير أهو في كتاب الله تعالى؟ فتدبر ساعة ساكتا فقال له الشيخ: أجَلتك ثلاثة أيام بلياليهن، فإن جئت بآية وإلا فاعتزل الناس. فمكث ثلاثة أيام لا يخرج، وخرج في اليوم الرابع بين الظهر والعصر وقد تغير لونه فجاءه الشيخ وسلم عليه وجلس، وقال: حاجتي. فقال: نعم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ لم يصله جهنم على خلاف المؤمنين إلا واتباعهم فرض. قال: صدقت وقام وذهب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (121) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (122) ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ لأن من أشرك به وهو يعتبر من أهل التكليف اعترف بموجود غيره في الكائنات له سلطة وتأثير في شيء بدون إرادة الله تعالى وبذلك أبطل اعترافه الصحيح به؛ لأن الاعتراف به يوجب الاستغناء عن كل ما سواه. وهذا منتهى ما تهبط إليه عقول البشر وأفكارهم، ونفوسهم، ومنه تنولد جميع الرذائل النفسية والأعمال الدنيئة، فلا يبقى معنىً بربوبية الرب وألوهيته لجميع الموجودات فلو غفر ذلك لم يبق فائدة للتشريعات والحرام والحلال. هذا ما قاله العلماء في سر عدم غفران الشرك، ومع ذلك فقد قال المحققون: إن غفران الكفر من الشرك وأمثاله ممكن لأن الله غني عن العالمين وعبادتهم له وسائر المعارضات لأنها لا تضره ولا تنفعه لكن لا يغفره لإخباره به دون التقييد بشيء إلا الندم عنه والرجوع إلى التوحيد ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. وهذه الآية الكريمة تكرار ما نزل سابقا لتأكيدها وتكميل قصة من سبق من الذين يختانون أنفسهم وقد ذكر أن لها سببا في النزول كما أخرج الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن شيخا من العرب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني شيخ منهمك في الذنوب إلا أنى لم أشرك بالله تعالى منذ عرفته وآمنتُ به،

ولم أتخذ من دونه وليا ولم أوقع المعاصي جراءة، وما توهمت طرفة عين أني أعجز الله تعالى هربا، وإنى لنادم تائب فما ترى حالي عند الله تعالى؟ فنزلت الآية.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ شيئا من الشرك بأن أسند الإيجاد والخلق إلى غيره معه سواء كان الغير من العلويات أو السفليات، ومن الموجودات الثابتة كالشمس وسائر الكواكب المصنوعة التي لا دخل للعباد في خلقها كالإنسان، أو المكتسبات له كالهياكل المنحوتة، ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن الطريق الحق ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لا يعودون إلى الصراط المستقيم إلا بتوفيق الله تعالى وهدايته. ويدل على معنى إشراك المشركين اهتمامهم بذلك الشريك واعتبارهم له كركن لإفادة الوجود للمقصود.

قوله تعالى ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ أي ما يدعون أولئك المشركون وما ينادون لحوائجهم من دون الله إلا أصناما يعتبرونها إناثا لما روي عن الحسن أنه كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بني فلان لأنهم يجعلون عليه الحلي وأنواع الزينة كما يفعلون بالنساء، أو لأنهم اعتبروها ممثلة لبعض الملائكة وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، أو لأنهم كانوا يسمون الأصنام بأسماء الإناث على ما قيل.

﴿وَ﴾ في الحقيقة ﴿إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ إذ هو الذي أضلهم بالوساوس الفارغة المضللة والمريد هو المارد المتنفر عن الإطاعة ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ طرده عن ساحة رحمته الواسعة، ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾: مقررا في العلم المتعلق بمن يصرف طاقاته في شهواته ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن طريق الحق بإلقاء الوساوس الفاسدة المفسدة للعقول ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي وألقي إلى قلوبهم الأماني الباطلة كإلقاء أن لا حساب عليكم ولا عتاب ولا عذاب ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ بأعمال فاسدة لا أصل لها في الواقع ويفسر ذلك بقوله ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾

إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا حتى يكون قطع آذانهن دليلا على تحريم ركوبها والحمل عليها. والبتك قطع الأذن من أصلها أو شقها ﴿وَلَآَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ آثار خلقه وإبداعه كخصاء العبد، والوشم والوشر وأمثالها من كل ما لم يرد به دليل شرعي، كحلق الرأس والعانة وقص الشوارب ونتف العانة والإبط، فإن ما ورد فيها دليل يكون من سنة الدين. ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا﴾ متوليا وآمرا مطاعا من دون الله العلي العظيم ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾: ظاهرا لا حاجة إلى بيانه عند أصحاب العقول السليمة. ﴿يَعِدُهُمْ﴾ الشيطان ما لا يفي به ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ الأماني الفارغة الفاسدة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا﴾ أشياء نوجب ﴿غُرُورًا﴾ وذلك يوجب خرورا في الدنيا في الأهواء الباطلة وفي الآخرة في نار جهنم خالدا فيها وبئس المصير ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين اتخذوا الشيطان وليا من دون الله ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي مفرا ومهربا. ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾: أي وعدهم الله وعدا وحَق حَقّاً. ثم ذيل الأخبار السابقة بقوله الحق: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ والقيل مصدر قال، ومثله القول والقال. وعن ابن السكيت: أن القيل والقال اسمان لا مصدران أي أنهما اسما مصدرٍ وليسا بمصدرين لِقَال.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (125) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (126) ﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ الآية عن ابن عباس قال: قالت اليهود والنصارى: لا يدخل الجنةَ غيرُنا ! وقالوا: لَن تَمَسَّنا النار إلا أيّاماً مَعْدُودات ! وقالت قريش: إنا لا نُحاسَب ولا نُبعث ! فأنزل الله الآية رواه ابن أبي حاتم.

وعن قتادة: جلس أناس من اليهود وأناس من النصارى وأناس من المسلمين وتفاخرت كل طائفة على غيرها، وقالت: نحن أفضل من غيرنا. فقال أهل الكتاب من اليهود والنصارى للمسلمين: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أحق بالله منكم. وقال المسلمون: نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على سائر الكتب فنزلت الآية... أخرَجَه ابن جرير.

قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين، والأماني بتشديد الياء جمع أمنية على وزن اُفعولة، وأصله اُمْنوية كأعجوبة وأضحوكة، اجتمعت الواو والياء، والسابقة منهما ساكنة، فقلبنا الواو ياء وأدغمناها في الياء صار اُمنيّة. وقال الراغب: هي الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء أي تقديره في النفس وتصويره فيها إنتهى.

قلت: والأماني هي من المشتهيات تقع أولا قريبة أو بعيدة. ومعنى الآية الكريمة: ليس الأمر الذي تتحاورون فيه من دخول الجنة وعدم دخولها مربوطة بالخيالات والاشتهاء النفسي لكم ولا لأحد. فليس دخولها وعدم دخولها بأمانيكم أيها المؤمنون حتى تدخلوها أنتم لا غيركم. ﴿وَلَا﴾ بـ ﴿ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ حتى يدخلوها هم لا أنتم، بل ذلك مربوط بنظام إلهي

مُحْكَمٍ عَدْلٍ قرره لجميع المكلفين وهو أنه ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ عاجلاً أو آجلاً إن لم يَعْفُ عنهُ الله تعالى ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: أي لا يجد من جانب غير الله تعالى وليا يُحامي عنه ويدفع عنه ما ينزل عليه من العقوبة، ولا نصيرا. او لا يجد له وليا محبّا يكفيه بالستر والإيواء ولا نصيرا قويا يدفع عنه العذاب بالقوة والاستيلاء.

وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تعالى فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: سدّدوا وقاربوا فإن في كل ما أصاب المسلم كفارة حتى الشوكة يُشاكُها والنكبة ينكبها. والأحاديث على هذا المعنى كثيرة. ثم مورد النزول يدل على أن الكلام المقدس والآية الشريفة نزلت لرد أهل الكتاب في دعاويهم الباطلة الفارغة، ولذلك قد حكم عامل السوء وعمل السوء على عامل الخير وعمله.

ومن المعلوم سابقا ولاحقا أن الله لا يغفر الكفر بسائر أصنافه عمن استمر عليه حتى مات، ولذلك نفى الولي والنصير على الإطلاق وإلا فالأدلة متضافرة ومتظاهرة على أن الشفاعة ثابتة يوم القيامة على تفصيلها المقرر في محله ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن تحقق الإيمان شرط لمثوبة الحسنات، وإلا فهي حابطة ساقطة. ﴿فَأُولَئِكَ﴾ العاملون للصالحات والعاملات لها مع مقارنة الإيمان ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ فضلا ورحمة على وعده سبحانه وتعالى ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾: أي لا ينقصون حتى شيئا حقيرا من ثواب أعمالهم. والنقير مأخوذ من النقرة، وهي نقرة في ظهر النواة منها تنبت النخلة. ثم قرر الإيمان والإسلام والأعمال المقرونة بالإخلاص فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي أخلص ذاته له ولم يعترف برب سواه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي عامل للحسنات وتارك للسيئات،

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي واتبع دين الخليل إبراهيم عليه السلام في الإخلاص له تعالى بدون اي شائبة ﴿حَنِيفًا﴾ أي وحال إبراهيم أنه كان مائلا ومبتعدا عن جميع الأديان الباطلة والأهواء العاطلة؟ ! وهذا الاستفهام الإنكاري جوابه أنه ليس هناك شخص هو أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله على ما تقرر وتقيد ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. جملة جيئ بها تذييلا لما تقدم، ذكرت للترغيب في اتباع عقيدة إبراهيم عليه السلام ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ علما وقدرة وتصرفا.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (127) ﴾

عن عائشة رضي الله عنها قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليّها ووارثها قد شركته في ماله حتى في العذق فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوِّجَها رجلا فيشركه في ماله فيعضلها. فنزلت الآية رواه البخاري. وعن السدي كان لجابر بنت عم دميمة ولها مال ورثته عن أبيها، وكان جابر يرغب عن نكاحها ولا ينكحها غيره خشية أن يذهب الزوج بمالها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزلت الآية أخرجه ابن ابي حاتم. وروي أنه إذا كانت الجارية يتيمة دميمة لم يعطوها ميراثها وحَبَسوها من التزويج حتى تموت فيرثوها فنزلت الآية. رواه عبد بن حميد وابن جرير.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ أي يستفتونك في ميراثهن والقرينة عليه ما ذكرنا من المورد، وما روي عن عبد بن حميد عن مجاهد أن

أهل الجاهلية ما كانوا يُورثون النساء والصبيان شيئا ويقولون: لا يغزون ولا يغنمون خيراـ فنزلت: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ ويبين حكمه فيهن ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ إما معطوف على اسم الجلالة على التجوز أي وما يتلى عليكم في الكتاب أي القرآن الكريم يفتيكم ويبين لكم. أو أن ما يتلى مبتدأـ وقوله في الكتاب خبرهـ والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ فتكون جملة معترضة بين متعلقات الفعل السابق. وقوله في يتامى النساء بدل من قوله فيهن ووجه اختصاصهن بالذكر الاهتمام بهن. وقوله والمستضعفين معطوف على يتامى النساء. وقوله وأن تقوموا معطوف عليه أيضا، أو مفعول لفعل مقدر أي ويبين لكم أن تقوموا. وحاصل المعنى: قل الله تعالى يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب أي ثابت في اللوح المحفوظ. وإفتاؤه في النساء ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وفرض من الإرث ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ للاستيلاء على حقوقهن لا للمعاملة المشروعة معهن في الزواج. أو ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ عن ﴿أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي تمنعوهن الحقوق وتعرضون عن نكاحهن فيبقين محبوسات كأسرى في البيت ﴿وَ﴾ كذلك يفتيكم في حق ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ اليتامى أن تؤتوهم حقوقهم ولا تمنعوهم من الميراث بحجة أنهم ليس فيهم قوة الغزو وأخذ الغنيمة ﴿وَ﴾ يأمركم ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى﴾ المذكورين ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل. أو يفتيكم في قيامكم لليتامى بالقسط ويبين لكم أن ذلك القيام واجب عليكم وإذا وفيتم بما يفتيكم الله تعالى به فالأجر عائد إليكم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ الآية أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خشيت سودة رضي الله عنها أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله لا تطلقني واجعل يومي لعائشة، ففعل ونزلت الآية. وعن سعيد بن المسيب أن ابنة محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج فكره منها أمرا إما كبراً أو غيره. فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقني واقسم لي ما بدا لك. ونزلت الآية فاصطلحا. وجرت السنة بذلك رواه سعيد بن منصور والشافعي والبيهقي. وعن سعيد بن جبير قال جاءت امرأة حين نزلت هذه الآية قالت: إني أريد أن تقسم لي من نفقتك وقد كانت رضيت أن يدعها فلا يطلقها ولا يأتيها فأنزل الله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ رواه ابن جرير.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: نزلت هذه الآية في المرأة تكون عند الرجل فلا يستكثر منها ويريد فراقها. ولعلها أن تكون لها صحبة ويكون لها ولد فيكره فراقها وتقول له لا تطلقني وَاَمْسِكني وأنت في حلّ من شأني فنزلت هذه الآية. رواه البخاري ومسلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ﴾ أي وإن خافت امرأة ﴿خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا﴾ أي زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ أي إرتفاعا ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها لسبب من الأسباب ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ بأن تترك المرأة له يومها أو تضع عنه بعض ما

يجب لها من نفقة أو كسوة ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة وسوء العشرة. ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي إن الشح واللؤم والبخل جعل حاضرا لها لا يغيب عنها أبدا. فلا تكاد المرأة تسمح بإعراض الزوج عنها وتقصيره في حقها أو تسمح ببعض الحقوق الواجبة لها فتهبها له. ولا الرجل يسمح بأن يمسكها ويقوم بحقها على ما ينبغي ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ في المعاشرة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز وسوء الخلق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ أي لا تقدرون على تطبيق العدالة بين الزوجات بحيث لا يقع ميل إلى جانب من الجوانب في شؤونهن كالقسم والنفقة والمجاملة والمفاكهة والمؤانسة وغيرها مما لا يكاد يعد.

وأخرج البيهقي عن عبيدة أنه قال: لن تستطيعوا ذلك في الحب والجماع ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ على العدل وبالغتم فيه ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ أي فلا تنحرفوا عن العدل المشروع كثيرا بحيث تمنعوها حقها من غير رضاها ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي فتجعلوا المرغوب عنها كالمعلقة، وهي كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: من ليست مطلقة ولا ذات بعل أي صارت مهملة الحقوق محتارة في شأنها ليست مطلقة فتبين وتتزوج، ولا ذات بعل تتمتع به وتبتهج ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا﴾ ما في قلوبكم من الرذائل الموجبة للميل والإعراض فتصلحوا ما أفسدتم من الأعمال معها ﴿وَتَتَّقُوا﴾ وتحترزوا عن الجور الذي نهاكم الله عنه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لما فرط منكم قبل نزول الآية. أو لما وقع من بعض اللّمم في ما بينكم، وراحما يزيدكم في الأجر والخير. ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ أي المرأة وبعلها بالطلاق ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ منهما فيتزوج الرجل بامرأة أخرى والمرأة بزوج آخر وذلك الإغناء ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ وبسط قدرته وفيض نعمته ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولم

يزل ولا يزال ﴿وَاسِعًا﴾ بالنعمة والبذل ﴿حَكِيمًا﴾ في رحمته لعباده بالكرم والفضل لا يعمل عملا إلا وفيه إتقانٌ وإحكام.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (132) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (133) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (134)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيسهل عليه القبض والبسط من نعمه بالنسبة إلى كل ذي حياة فلا يتعذر عليه الإغناء للزوجين بعد الفراق ولا الإيناس بعد الوحشة والشقاق ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أي وصيناكم بعد توصيتهم ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإن التقوى ملاك السعادة للعباد ووسيلة القرب بعد الابتعاد ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن الخلق وعبادتهم وكان الله ولم يزل ﴿حَمِيدًا﴾ أي غنيا عن العالمين وعبادة العقلاء منهم حميدا في آثاره وأفعاله ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ والوكيل هو الذي يتوكل عليه، والجملة تذييل لما قبله ﴿إِنْ يَشَأْ﴾ أي إن يرد إذهابكم وإبادتكم ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ ويهلككم كما أهلك كثيرا من الأمم البائدة ﴿أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ أي بأناس آخرين ممتازين في الافكار

والآثار ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولم يزل ﴿عَلَى ذَلِكَ﴾ وعلى أبدع من ذلك ﴿قَدِيرًا﴾ فإن الكائنات من آثار خالق البريات.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله وأقواله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من مال أو منصب أو متاع فليطلبه من الله وليعمل ابتغاء مرضاته حتى يجازيه بما يريده ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولم يزل ﴿سَمِيعًا﴾ لاقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالكم. وفي مسند الإمام أحمد عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من كان همّه الآخرة جمع الله تعالى شمله وجَعَل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله تعالى عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له)).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135)﴾

عن السدي نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم اختصم إليه غني وفقير وكان خُلقه مع الفقير رأى أن الفقير لا يظلم الغني فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير، فأنزل هذه الآية كلها. ذكره الواحدي في الأسباب والخازن في اللّباب.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أي قائمين جد قيام بتطبيق العدالة بين الناس ومواظبين عليه بالدوام حالكونكم ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ أي مبينين الحق ومراعين له لابتغاء مرضات الله سواء كنتم شهداء لهم أو

شهداء عليهم، أو حاكمين بين المتخاصمين منهم ﴿وَلَوْ﴾ كانت الشهادة ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ﴾ على ﴿الْوَالِدَيْنِ﴾ أو على ﴿الْأَقْرَبِينَ﴾ أي على أقرب الناس إليكم كأبنائكم وبناتكم وإخوتكم وأخواتكم المشهود عليه أو كل منه ومن المشهود له ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ ﴿غَنِيًّا﴾ يرجى نعمته أو يخشى سطوته، ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ يترحم عليه أو لا يهتم به ولا ينظر إليه ﴿فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ أي فالله أولى وأحق بحالهما ورعاية أمورهما لا أنتم. فإن كان حالهما تقتضي الشفقة فالله تعالى أشفق من كل أحد بكل أحد وإن كانت تقتضي غيرها فالله أولى برعايتها ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أي فلا تتبعوا هوى أنفسكم لأن تَعدِلوا وتتجاوزوا عن الحق أو كراهة أن تعدلوا بين المتخاصمين وتطبقوا العدالة بينهما على أن يكون المصدر مفعولا له وعلة لاتباع الهوى المنهي عنه. ولو جعل علة للنهي قدر المضاف إذا كان من العدول، ولم يقدر إذا كان من العدل على العكس مما سبق. أي أنهاكم عن اتباع الهوى كراهة العدول والتجاوز عن الحق أو للعدل بين الناس. ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾ وتعطفوا ألسنتكم عن الشهادة ولا تأتوا بها على الوجه الحق ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عن أدائها وتتركوا إقامتها رأسا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من اللّي والإعراض ﴿خَبِيرًا﴾ به وبأسبابه فيجازيكم حسب نظامه القائم بالعدل والحق وفيه تهديد لهم بأيّ تهديد !

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (136)﴾

عن ابن عباس قال جاء مؤمنو أهل الكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم عبدالله بن سلام وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إنا نؤمن

بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل. فقال لهم رسول الله: بل آمنوا بالله وبرسوله محمد وبالقرآن وبكل كتاب كان قبله. فأنزل الله الآية. ذكره البغوي والواحدي فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب لمؤمني أهل الكتاب أو للمؤمنين كافة. فقوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ معناه اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه. وإذا كان الخطاب للمنافقين المؤمنين ظاهرا فمعناه أخلصوا وأصدقوا في الإيمان بالله إلى آخر ما ذكره في الآية الشريفة.
﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي ومن يكفر بمجموع ذلك أو ببعض منه فقد ضل ضلالا بعيدا. والضلال البعيد هو الضلال البعيد عن المقصد الأسنى وهو الإيمان لأن الكفر والإيمان على طريقى الإيجاب والسلب متناقضان وهما متباعدان غاية البعد. وأما من آمن بما ذكر وانحرف عن دأب جمهور المسلمين في بعض المسائل الدينية فهو يسمى مبتدعا ولا يكفر وضلاله قريب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (137) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (138) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (139) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آَيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ الآية عن مجاهد وابن زيد انهم أناس منافقون أظهروا الإيمان ثم ارتدوا، ثم اظهروا، ثم ارتدوا، ثم ماتوا على كفرهم. وجعلها ابن عباس رضي الله عنهما عامة لكل منافق في عهده صلى الله عليه وسلم في البر والبحر. وعن الحسن أنهم طائفة من أهل الكتاب أرادوا تشكيك أصحاب رسول الله، فكانوا يظهرون الإيمان بحضرتهم ثم يقولون: قد عرضت لنا شبهة فيكفرون ثَمَّ وثُمَّ حتى ماتوا. وقال بعض: معنى الآية: إن الذين آمنوا بموسى عليه السلام من أهل الكتاب ثم كفروا حين عَبَدوا العجل ثم آمنوا بعد عوده من الطور إليهم، ثم كفروا بعيسى عليه السلام ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم. وهذا المعنى خلاف الظاهر المستفاد من السياق لأن أولئك الناس المذكورين في ذلك أناس مختلفون. والظاهر أن المحكوم عليهم بالأوصاف المتناقضة المتكررة جمع معينون. فالظاهر أن المعنى ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ ترددوا في أحوالهم فـ ﴿آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آَمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ وأخذت قلوبهم القسوة أزيد مما كان أولئك ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ لأنه تبين من أحوالهم أنهم لم يكن لهم إيمان أساسا وإنما هم قوم أظهروا الإيمان رعاية لبعض المصالح الدنيوية في فترة معينة وعند تبدلها بدلوا إيمانهم بالكفر وأظهروا الكفر وتقلبوا على هذه الأحوال مدة ثم غلبت عليهم القساوة فأعلنوا الكفر وأصروا عليه إلى الموت.

والخلاصة: إن أولئك الجمع لم يكن الله ليغفر لهم ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ سالما لأنهم كانوا معاندين ومتعمقين في الكفر، ولم يبق عندهم ذوق الإيمان والرغبة فيه. والله سبحانه وتعالى لا يهدي أمثالهم من المنافقين الفاسدين بل إنهم منافقون ويستحقون الإنذار النازل في قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي أنذرهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وكانوا يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين۔

ويقول الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ أي أصدقاء ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ أي القوة والمَنَعة. فإن كانوا يريدونها فليرجعوا إلى الإيمان وتولي المؤمنين دون الكافرين ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ومن آمن به ورجع إليه صار من أوليائه ويؤتيه الله العزة والمنعة في الدنيا والدرجات العالية في الدين ثم تحول الباري تعالى عن الحكاية عنهم إلى الخطاب معهم، وقال على طريقة الالتفات: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أيها المنافقون ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾، أي غير ما ذكر من الكفر والاستهزاء ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ في الإثم لأنكم قادرون على الإنكار وعلى الاعِراض، فما دمتم غير معرضين وغير منكرين عليهم فقد قررتم أعمالهم المنكرة، وصرتم شركاء لهم في الإثم المترتب على الكفر والاستهزاء بالدين. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ يعني إن الأحبار الكافرين والمستهزئين بالدين والمنافقين الذين قعدوا معهم وشاركوهم في ذلك هم يجمعهم الله معا في جهنم، فمصيرهم واحد وبئس المصير.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ الخطاب فيه للمؤمنين الصادقين. والموصول عبارة عن المنافقين وهو مع ما في حيزه مبتدأ، وخبره قوله تعالى:

﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ أي يحكم بينكم وبينهم ويخول كل إلى مصيره. ومعنى الآية الكريمة: المنافقون الذين يتربصون بكم وينتظرون عواقب أموركم؛ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ لموضع من المواضع، وظفر بالمقصود، ﴿قَالُوا﴾ لكم: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ نجاهد الأعداء؟ فأعطونا نصيبنا من الغنائم. ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ متاع دنيوي حاصل من الحرب ﴿قَالُوا﴾ للكفار: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي الم نغلب عليكم ونتمكن من قتلكم فسامحناكم ﴿وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من صولتهم فاعرفوا لنا هذا الحق عليكم، وهاتوا نصيبنا مما أصبتم. ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيثيب أحبابه ويعاقب أعداءه على سنّته في الأمم ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: إستيلاء يوم القيامة، وحين الحكم، وإن وقع ذلك في الدنيا استدراجا وابتلاء. روي ذلك عن علي وابن عباس رضي الله تعالى عنهم. أو لن يجعل الله لهم عليهم سبيلا بالإبادة والاستئصال في الدنيا، روي هذا عن السدي. أو لن يجعل الله لهم عليهم استيلاء بالحجة والبرهان فإن قواعد العقائد الإسلامية وأحكامها إما بديهية أو نظرية مثبتة بالبراهين القاطعة والأدلة اللامعة وكل دين كذلك وأهله غالبون لا مغلوبون. وقال بعض: إن الجعل رضائي واستحبابي أي إن الله تعالى لا يستحب أن يكون للكافرين على المؤمنين سبيل وإن أراده على سنته الاعتيادية من جعله الحرب سجالا، وللاعداء مجالا. واحتج الشافعية بهذه الآية على فساد شراء الكافر للعبد المسلم وتزويج المرأة المسلمة من الكافر.

وقال بعض: إن الآية مبنية على قيد وهو أنه إذا عمل المسلمون بما أمر الله به من إخلاص النية وتعلم العلوم النافعة والبراهين الساطعة وترك حظوظ النفس والمصالح الشخصية استحال أن يكون للكافرين سبيل على المؤمنين لأن الطرفين

كلاهما إنسان وهما يتكافآن في المعدات وللمسلمين نور ساطع من الإيمان وعقيدة راسخة بالفوز بالجنان فتزيد معنويات المؤمنين. ووسيلة الفوز والغلبة إما وجود المعدات أو الاعتقاد المبني على الأساس، وكلاهما موجودان في المؤمنين الذين كانوا على المنهج المقرر وكل ما وقع من ضرر في الإسلام من الأول إلى الأخير فهو نتيجة الإخلال بذلك النظام كمخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في واقعة أحد، والإعجاب بالنفس والغرور في حنين، وأمثال ذلك في سائر المهالك عصمنا الله تعالى منها بمنه وفضله آمين.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (144) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أي إنهم يفعلون ما يفعله الإنسان الحيال المخادع فيظهرون الايمان عند الرسول وأصحابه ويضمرون <70>

الكفر، وغايتهم من خداعهم هذا أن يعدوا من المؤمنين فتصان دماؤهم ويبذل لهم نصيبهم من الغنائم ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ والله تعالى يعاملهم معاملة المخادع أي يقبل منهم الإيمان إلى أن يعملوا ما يضر بكيان الإسلام، وعند ذلك يظهر سرّهم على حبيبه صلى الله عليه وسلم فيفتضحون بين المؤمنين. ﴿وَ﴾ من علامات نفاقهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ متثاقلين متباطئين حالكونهم ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أي ليس صلاتهم على أساس أداء الواجب حق الأداء، بل يظهرون للناس أنهم يصلون ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي لا يصلون إلا في أوقات معلومة وهي أوقات حضور الناس الكبار. ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي مترددين بين ذلك المذكور من الكفر والإيمان ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي لا منسوبين بالوجه الصحيح الثابت إلى المؤمنين ولا إلى الكفار. فأولئك قد أضلهم الله ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾مستقيما يمشي عليه. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ وأحباء وناصرين ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة واضحة على كفركم واستحقاقكم العذاب ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي في الطبقة السافلة منها لأن لها طبقات سبعاً ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخرجهم منها يوم القيامة ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوه من النيات والاعتقادات والأعمال بأن أخلصوا نيتهم لله في كل ما يفعلون ويتركون ويعتقدون بجميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الله تعالى، ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي وتمسكوا بكتاب الله واعتمدوا عليه ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ في مستقبل أمرهم لا يريدون بطاعته إلا وجهه ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين في الدرجات الدنيوية والأخروية ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم مقداره إلا الله ثم ذكر الله سبحانه وتعالى أن مدار تعذيبهم في الآخرة <71>

والتنفير عنهم في الدنيا هو كفرهم ونفاقهم وقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ﴾ أي قابلتم نعم الباري سبحانه بما يكافئها أو يقاربه أو يشبهه ﴿وَآَمَنْتُمْ﴾ وصدقتم بوجود الفياض لتلك النعم المختار في إفاضتها عليكم تفضلا وإحسانا. ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولم يزل ﴿شَاكِرًا﴾ مثيبا على شكر الشاكرين ﴿عَلِيمًا﴾ بإيمان المؤمنين. وقدم الشكر على الإيمان مع أنه لا يعتد به بدونه لأن الشكر وسيلة للإيمان حيث إن الشكر على النعمة يقتضي الاعتراف بالنعمة وبوجود المنعم. وللشكر درجات أعلاها صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله وهذا مقام كُمَّلِ عباد الله ولذلك قال تعالى: وقليل من عبادي الشكور. جعلنا الله تعالى من الشاكرين بمنه إنّه أرحم الراحمين. <72>

الجزء السادس

<72>

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (148) إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (149) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (151) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (152)﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ أخرج ابن جرير عن مجاهد أن رجلا ضاف قوما فلم يطعموه فاشتكاهم، فعوتب عليه، فنزلت. ومعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ومعنى الآية: لا يحب الله الجهر بالسوء ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾ إنه يغضب على من جهر بالقول السيء على الناس ﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ فإن جهره بالقول السيء على من ظلمه غير مسخوط عليه عنده تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولم يزل ﴿سَمِيعًا﴾ لجميع المسموعات ﴿عَلِيمًا﴾ بجميع المعلومات، ومن جملتها عمل الظالم وقوله، وقول المظلوم﴾، وجهره بالقول السيء عليه.

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ أي تظهروه بحيث يعلم به الناس ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ لا يعلم به غير الله تعالى ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أيّا كان هذا وذاك، ونص عليه مع اندراجه في ما سبق للاهتمام به. والجمل الثلاث شروط والجزاء محذوف وهو فقد اقتديتم بسنة الله تعالى، ويدل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ وما يقال إن إبداء الخير وإخفاءه لو كانا هنا مقصودين بالشرط لم يحسن الاقتصار على كون الله تعالى عفوا قديرا.. يعارضه أن العفو عن المسيء مع الاقتدار على الانتقام من أهم مهمات الخيرات الجهرية والسرية. وبذلك تتناسب الجمل الشرطية مع نائب الجزاء المقدر كما لا يخفى. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ مربوطة بالآيات السابقة عن المنافقين. ولا شك أن الآيات تنزل من لدن حكيم خبير بالعالمين، ولا تنزل إلا لمعالجة الواقع. وقد كان بين أولئك المنافقين أناس ملحدون كافرون بالله وبجميع رسله، ولكنهم ينافقون المؤمنين بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بشكل، وينافقون اليهود بشكل آخر؛ فيأتون إلى المؤمنين بإعلان الإيمان بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله ويأتون إلى اليهود بإظهار الإيمان بالله وببعض الرسل أي بموسى ومن سبقه ومن لحقه من أنبياء بني إسرائيل ما عدا سيدنا عيسى، وقد يلتقون بالمسيحيين فيجاملونهم ويرضونهم بأفواههم، وإذا لقوا الكفار المشركين بالغوا في المدح والثناء عليهم وقالوا لهم: أنتم أهدى من محمد ومن معه، ومشوا لا على حبلين بل على حبال.

فالباري سبحانه وتعالى كشف سترهم وأظهر سرهم وأعلن أنهم هم الكافرون بالله وجميع رسله ولا يؤمنون بمقدس قطعا، وهم الملاحدة الوجودية الكافرة بكل الشرايع والأديان، ولكنهم يتسترون عند المؤمنين بإظهار الإيمان بسيدنا محمد وما جاء به، وعند اليهود بإظهار الثبات على

دين اليهود والإيمان بالله وبموسى والأنبياء الذين كانوا على شريعته، ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ بهذا النفاق ﴿أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بسبب إعلان الإيمان بالله وببعض الرسل كموسى ومن وافقه دون بعض آخر كعيسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وإذ أعلنوا ذلك فقد فرقوا بين الله ورسله لأن الأنبياء والمرسلين كلهم جمعية مُوحَّدةٌ موحِّدة قدسية مربوطة بالله سبحانه في تبليغ شرائعه إلى الامم كل في زمانه، فإذا رفض الملحدون رسالة بعض منهم فقد فرقوا بين الله ورسله، ولم يخلوا الرسل على اجتماعهم متصلين برباط الرسالة من الله ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لليهود وفي مجتمعهم: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ من الرسل الذين نحن على شريعته ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ منهم، وهم الذين لسنا على دينهم وملتهم، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المذكور من الإيمان بالله ورسله ﴿سَبِيلًا﴾ ليس هو الإيمان بالكل ولا الإنكار للكل، بل هو الإيمان بالله وببعض منهم ﴿أُولَئِكَ﴾ المنافقون الملحدون المتسترون بالستارات المتنوعة ﴿هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ إذ لم يخلوا شيئا من المقدسات يؤمنون به ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ شديداً يُهانُون به.

وهنا طريق ثان لبيان أن الذين يفرقون بين الله ورسله أي يؤمنون بالله تعالى وببعض الرسل دون بعض هم الكافرون بالله وبجميع رسله، وهو أن الدليل الدال على صدق بعض الرسل الذي يؤمن به ليس إلا المعجزة، وإذا كانت دليلا على صدق الرسول لزم القطع بأنه حيث ظهرت المعجزة ثبت صدق صاحبها، فإن جوزنا في بعض المواضع ظهور المعجزة بدون صدق صاحبها امتنع الاستدلال بها على صدق الرسول الذي يؤمن به، وكذا على صدق سائر الرسل فحينئذ يلزم منه الكفر بجميع الرسل، وإذا لزم الكفر بجميع الرسل لزم الكفر بالله تعالى أيضا، لأن دليل الإيمان بالله تعالى لغير

الأنبياء والرسل الذين يوحى إليهم هو تبليغ الرسل وبيانهم لوجود ذاته الواجب الوجود وصفاته الكمالية، وإذا كفر الشخص بجميع الرسل لزم الكفر بالله تعالى أعاذنا الله تعالى منه آمين. فثبت أن الذين يفرقون بين الله ورسله هم الكافرون بالله تعالى وبجميع الرسل حقا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ الآية... يعني وكل الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي لم يفرقوا بعضهم عن بعض بأن آمنوا بالجميع ولم يؤمنوا ببعض مع الكفر بالآخرين ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ الموعودة لهم كاملة غير منقوصة ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولم يزل ﴿غَفُورًا﴾ لمن كانت صفتهم ما تقدم. و﴿رَحِيمًا﴾ بهم فيزيد على أجورهم زيادة وهي لقاء وجهه الكريم.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (153) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (154) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155)﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الآية عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء ناس من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن موسى جاءنا بالألواح من عندنا فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدّقك ! فأنزل الله الآية أخرجه ابن جرير. وعن ابن جُريج قال: إن اليهود والنصارى قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لن نبايعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله وصحف مكتوبة من السماء إلى فلان وفلان إنك رسول الله ! فنزلت الآية أخرجه ابن جرير وابن المنذر. ومعنى الآية الكريمة: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الآية يسألك يا رسولي أهل الكتاب الذين يعاندون الحق الأبلج ويتعنتون ﴿أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي أن تطلب من خالق الارض والسماء أن ينزل عليهم كتابا مقدسا. فإن سمعت سؤالهم هذا فلا تعجب من جهالتهم وتعنتهم وغفلتهم في تقدير القدسية واستغناء الباري تعالى وإنه مختار في شؤونه فإن ذلك دأب المتعنتين منهم ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى﴾ عليه السلام شيئا ﴿أَكْبَرَ﴾ وأبعد ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ الذي طلبوه منك ﴿فَقَالُوا﴾ له: يا موسى ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي مجاهرين معاينين، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي فأهلكت أولئك الناس نار نزلت من السماء فأماتهم الله بها ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ أي بتعدّيهم وتعنتهم وسؤالهم ما لا يناسبهم في تلك الحالة التي كانوا عليها، وقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا﴾ كلمة ثم للتراخي الذكري أي وهم قوم لهم بدائع من المنكرات، وعجائب من المخالفات، وصنائع من المخترعات واتخذوا ﴿الْعِجْلَ﴾ وعبدوه بعد ذهاب موسى إلى الطور ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ من المعجزات التي أظهرها الله من العصا واليد البيضاء وإنجاء بني إسرائيل من النيل وإغراق فرعون وأشياعه فيه. وتلك البينات كانت من المعجزات الباهرة ﴿فَعَفَوْنَا﴾ هم ﴿عَنْ ذَلِكَ﴾ الصنيع الشنيع الفظيع ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي قوة قاهرة وغلبة ظاهرة

على إكمال رسالته وإبلاغ شريعته ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ أي رفعنا الجبل الذي سكنوا عنده على رؤوسهم كأنه مظلة، وذلك ﴿بِ﴾سبب ﴿مِيثَاقِهِمْ﴾ أي بسبب امتناعهم عن قبول الميثاق بالعمل بالتوراة فقبلوه، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ﴾ بواسطة رسولهم موسى عليه السلام ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ محكما مؤكدا، ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ على لسان يوشع بن نون عليه السلام بعد مرور زمان التيه ووفاة موسى عليه السلام فيه: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي بابَ بيتِ المقدس سُجَّداً خاضعين مطمئنين ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ على لسان داود عليه السلام: ﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي لا تتعدوا حدود الله باصطياد الحيتان ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً وثيقا مؤكدا بأن يطيعوا الله بامتثال أوامره واجتناب مناهيه؛ فخالفوا أوامره واحتالوا، ونقضوا الميثاق، فجعلنا منهم القردة والخنازير ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي نقض بني إسرائيل ميثاقهم الذي تقرر مع الله تعالى على لسان رسولهم، ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بالحجج الدالة على صدق الرسل ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع غلاف بمعنى الظرف، وأصله غلف بضمتين أي أوعية للعلم، فنحن مستغنون عن تعليماتكم، وهذا على وجه التكبر، أو قلوبنا مغطاة ومستورة بستائر تمنعها عن استماع كلامكم، وهذا على وجه التعنّت، وقولهم هذا كان في مقابلة الرسول صلى الله عليه وسلم عند إرادته تعليمهم القرآن.

وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ إضرابٌ عمّا ادعوه من كون قلوبهم غلفا يعني أنه لا أصل لقولهم ذلك وليس المانع من قبولهم الحق ذلك بل المانع أن الله طبع على قلوبهم، أي جعلها الله كصناديق ختم عليها وذلك بسبب استمرارهم على الفساد والافساد والمعارضة للرسول

واستكبارهم عن قبول الحق، وكفرهم المستمر ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أهل الكتاب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ كعبد الله بن سلام ومن هداهم الله إلى الحق.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (159)﴾

وقوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ... ﴾ الآية يعني وبكفرهم الخاص البالغ إلى المستوى الأفسَدِ وهو المخلوط بالرذائل والافتراء والبهتان ولذلك عَطَفَ عليه قولَه الكريم ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ﴾ بنت عمران التي شهد الله على عفتها وحصانتها ﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ ترتجف منه قلوب المؤمنين حيث نسبوها إلى ما لا يناسب قدرها ولا يوافق عفتها ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ وذكروه في ما ادّعوه بعنوانِ الرسالة تهكما واستهزاء منهم وحكاه الله بعين الوصف تشريفاً وإعلاءً منه تعالى لقدره ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾: أي أوقع شبهه على واحد آخر للالتباس عليهم، وكان ذلك الواحد رجلا من المنافقين يصاحب عيسى عليه السلام.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رهطا من اليهود سَبُّوهُ عليه السلام وأمَّهُ فدعا عليهم فابتلوا بعاهات، فبلغ ذلك (يهوذا)

رأس اليهود فخاف منه فجمع اليهود فاتفقوا على قتله فساروا إليه ليقتلوه فأدخله جبريل عليه السلام بيتا ورفعه منه إلى السماء ولم يشعروا بذلك، فدخل عليه طيطانوس ليقتله فلم يجده وأبطأ عليهم، وألقى الله شبه عيسى عليه السلام عليه، فلما خرج قتلوه وصلبوه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي اختلفوا في شأن عيسى عليه السلام ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي في ترددٍ في قتل عيسى عليه السلام ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ أي ما لهم بحاله قتلا وتركا إدراك إلا اتباع الظن فالاستثناء متصل۔ أو ما لهم به من علم يقيني لكن لهم اتباع الظّن ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي وما قتلوا عيسى قتلا متيقنا بل قتلوه بزعمهم قتلا مظنونا، أو ما قتلوه وتيقنوا أيها السامعون بهذا النفي، فنفي قتله حكم سلبي قطعي ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي بل رفعه الله سبحانه وتعالى بجسده وروحه إلى مقام خَصَّهُ الله به في سمائه.

وفي هذا الكلام رد وإنكار لقتله عليه السلام وإثبات لرفعه بالجسد والروح وذلك لأن الضمائر المتوالية السابقة في قوله تعالى وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم إلى قوله وما قتلوه كلها راجع إلى عيسى عليه السلام باعتبار جسده وروحه، فيكون الضمير في قوله تعالى: بل رفعه الله إليه كذلك. وروي رَفعُه إلى السماء الثانية وهو حيٌ مرزوق هناك، وقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج، وهو هنالك مقيم حتى ينزل إلى الارض يقتل الدجال ويملأها عَدلاً كما مُلئت جورا، ثم يحيا فيها أربعين سنة، أو تمامها من سنّ رفعه وكان إذ ذاك ابن ثلاث وثلاثين سنة، ويموت كما يموت سائر الناس ويدفن في حجرة النبي صلى الله عليه وسلم. أو في بيت المقدس ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ ولم يزل

﴿عَزِيزًا﴾ غالباً على أمره ﴿حَكِيمًا﴾ في كل شؤونه. ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي وليس من أهل الكتاب اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن به. فقوله ليؤمنن به جملة قسمية وقعت صفة لأحد أي لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به بعد نزوله وقبل موته ومعلوم أن السيد المسيح بعد نزوله يتبع دينَ الإسلامِ، فتكون جميعُ الأمم على ملة واحدة هي الإسلام ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ﴾ عيسى عليه السلام ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهل الكتاب ﴿شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود بتكذيبهم إياه وعلى النصارى بقولهم فيه إنه ابن الله وإنه بريء من كل ما افتري عليه واعتقده فيه وفي أمّه مما يخالف حقيقة العبودية والانقياد والإطاعة لله ربّ العالمين.

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (160) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (161) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (162)﴾

قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ معناه وبعدما ذكرنا من سيئات أهل الكتاب المنحرفين الذين تابوا من عبادة العجل اعلموا أنه بظلم أيّ ظلم كان مما حدث منهم ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ ولمن قبلهم ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي وبمنعهم أناساً كثيرين عن اتباع الحق والإيمان به

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ أي بالرشوة والحيلة الدقيقة في الأحوال العارضة على الناس، والمعاملات والمحاكمات وغيرها.

والحاصل أن بني إسرائيل كانوا أمة كسائر الأمم، وكان فيهم الصالح والطالح والمطيع والعاصي، لكنه يوجد فرق كثير بين الأمة التي لم يكن فيها نبوة ورسالة وعلم والأمة التي فيها ذلك، وكان بنو إسرائيل من القسم الثاني وكان فيهم رسل كثيرون ومواعظ وإرشادات قيمة، وأحكام نازلة، ومع ذلك رأوا براهين قاطعة ومعجزات لامعة دالة على صدق موسى ومن قبله من الرسل ومن بعده، وبالرغم من ذلك لم يثبتوا على الأحكام ولم يطمئنوا إلى إرشادات الرسل وكانوا يباشرون السيئات العظيمة التي لا تعبير عنها إلا بالظلم المظلم، وقد تكرر منهم ذلك في كل عصر وزمان واستمر فيهم الى آخر الزمان، ومن أجل ذلك كلما أذنبوا ذنبا حَرَّمنا عَلَيهم نوعا من طيباتٍ أحِلّت لهم ولمن سبق، وذلك بصدهم ومنعهم النّاس عن سلوك سبيل الله وهو دين الإسلام صدّا كثيرا لا مرة ومرتين بل مرّات ومرّات. وكأخذهم الربا وقد نهوا عنه على لسانِ أنبيائهم. وبأكلهم أموال الناس بالوجه الباطل بدون عوض مشروع في مقابلة ولا هبة حسبية.. فبذلك كلِّه حَرَّمْنا عليهم ما حرمناه، واعتبرناهم من الكافرين ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (161) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن الكريم ﴿وَمَا أُنْزِلَ﴾ نا ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ على الرسل من التوراة والإنجيل وسائر الصحف ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ منصوب على المدح أي وأخصّ المقيمين للصلاة ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ للمستحقين ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَ﴾ المؤمنون ب ﴿الْيَوْمِ الْآَخِرِ﴾ أي يوم القيامة ﴿ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

لا يعلم مقداره إلا الله وأما ما اقترحوا من إنزال كتاب من السماء عليهم فأجيب عنه بأنه خارج عن سنة الباري بل سنته ما طبقها للرسل كما قال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165) لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (166)﴾

فهذه الآيات جوابٌ وأيّ جواب عن اقتراح أهل الكتاب، وحاصلها: إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الكتاب وهو القرآن الكريم بتدريج وإمهال حسب الوقائع ومقتضى الحال، وكنا متفضلين بذلك الإيحاء ولم نذكر الناس الذين يبلغهم الرسل، فإن التبليغ شأنهم وهم مخولون به، و﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى﴾ أولئك الرسل كذلك أرسلنا ﴿رُسُلًا﴾ آخرين، منهم من ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا الوقت ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ وخصّ بعضا منهم بمزايا وعطايا ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ يليق بكبرياء ذاته وعلو صفاته، حالكونهم ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ﴾ أهل الطاعة والإحسان ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ أهل العناد والعصيان وإنما أرسلناهم ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

فيقولوا: يا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا، وشرعت لنا شريعة؟ فيبينها الرّسول ويُرشدنا إلى طريق الوصول فنحن إن علمنا شيئا فقد جهلنا أشياء. فعند ذلك يظهر أنهم جهلاء غافلون عن الأحكام والغافلون لا يكلفون ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي ذا عزة وغلبة على أمره، ﴿حَكِيمًا﴾ لا يعمل شيئا إلا بحكمة.

ومن أنصف علم على ضوء هذه الآية الشريفة أن لا حكم قبل ورود الشرع وإرسال الرسل وايضاح السبل، وأن العقل، وإن كان يدرك بعض الأمور والمصالح العامة والخاصة، لكن لا يدرك جهة الحرمة والوجوب والكراهة والندب والإباحة، وإن أدركها فلا يدرك جزاء عالم الآخرة ودرجات العقوبة والمثوبة، هذا إذا كان العقل سليما. أما إذا كان سقيما وغلب عليه الأهواء والشهوات النفسية والمطامع الدنيوية فيكون أبعد عن إدراكها بمراحل. وإذا كان كذلك فمن لم تبلغه الدعوة الإسلامية كأهل الفترة، لاسيما أهل الثلث الأخير من زمانها، فلا مجال للقول إنهم معذبون في الآخرة أو مثابون قطعا.

وقوله تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ الآية استدراك مما استنبط من الآيات السابقة وهو أن أهل الكتاب ما عدا الراسخين في العلم منهم لا ينصفون ولا ينقادون للحق ولا يشهدون بأن الكتاب الذي يبلغه الرسول يبلغه من الله تعالى فتقدير الكلام فتبين لكم أن أهل الكتاب لا يشهدون بما انزل إليك، لكن الله سبحانه وتعالى يشهد ﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن الكريم، أي يشهد بأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أبدا. أنزله بعلمه: أي أنزله الله إليك بسبب علمه الخاص به الذي لا يشاركه فيه غيره، ولذلك ﴿أَنْزَلَهُ﴾ على تأليف خاص وأسلوب عجيب معجز للبلغاء، أو

أنزله إليك ﴿بـ﴾ سبب ﴿عِلْمِهِ﴾ بأنك قابل لذلك الكتاب لقيامك بحق تلاوته وتبليغه والعمل به وتطبيقه، أو أنزله متلبسا بما علمه الباري من مصالح العباد التي اشتمل عليها بحيث استوعب أسباب سعادة الدارين، او أنزله مع علمه المحيط به حرفا وكلمة وكلاما المقتضى لصيانته من مبدأ نزوله إلى وقت وصوله إلى رسوله مع الملك الأمين المأمون محفوظا عن شر الجن والشياطين من الإلقاءات والتبديلات للحروف أو الكلمات كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ بما شهد الله تعالى به ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ وكل ما زاد على شهادته فقد كان تأييدا معززا مجيدا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (167) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (169) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (170)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية أي إن أهل الكتاب الذين كفروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وصدوا ومنعوا الناس عن سلوك سبيل الله والإيمان بما أنزله على رسوله ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن طريق الاهتداء والكمال، لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ أنفسهم وأنفس أهليهم وأتباعهم بأن ظلموا محمداً صلى الله عليه وسلم وأنكروا نبوته ورسالته وجلالة قدره ونعوته المذكورة في الكتب السابقة الدالة على رسالته واستمروا على ذلك

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وجرى حكمه بذلك لعلمه بسوء نياتهم وإصرارهم على المهالك. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الأمر ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ إن الله رءوف رحيم بكم وناصح لكم ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾ بالدين ﴿الْحَقِّ﴾ والمجيء الحق والتلبس بالحق ﴿مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا﴾ بالله ورسوله الذي بعثه رحمة للعالمين وختم به النبين، وإرساله من القوم الأميين إيمانا ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ ولمن تبعكم مما أنتم عليه ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ﴾ الله غني عنكم وعن إيمانكم، حيث إن ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يعلم السر وأخفى وله الحكمة في السموات والارض وله المثل الأعلى.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (171) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (172) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (173)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾: خطاب لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وينهاهم عن الغلو في الدين حيث غلت اليهود في شأن عزير فقالوا: هو ابن الله. وفي شأن عيسى حيث حطّوا من قدره، ونشروا في شخصه الكريم ما لا يناسب مقامه، وغلت النصارى فيه بأن جعلوه إلهاً وسموه ابن الله! ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ ولا تقولوا إن عزيرا وعيسى ابن الله، ولا تنسبوا إلى الله الصاحبة وهو بريء من هذه العلاقة الفاسدة، ولا يناسب البشر مطلقا، ولم يلد ولم يولد، وهذه الأكاذيب من مفتعلات الأوهام الباطلة والعقائد العاطلة ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أرسله إلى بني إسرائيل مبشرا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ أي ونتيجة كلمته وهي كلمة كن، فكل وليد يحصل فله سبب قريب محسوس وهو النطفة، وسبب غريب معقول وهو كلمة كن المنشأ لولادته بعد وجوده وعلوق الرحم به، ولما كان عيسى بعيدا من السبب القريب انحصر أمره في السبب الغريب وهو كلمة كن، والمراد بها الأمر التنفيذي أو سرعة حصول المراد بالقدرة والإرادة ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي ألقى ووجّه تلك الكلمة إليها، أي أراد وجود الولد منها ﴿وَرُوحٌ﴾ أي ذو روح حاصل وناشئ ﴿مِنْهُ﴾ أي من الله سبحانه حصول الأثر من المؤثر. وخص باستعمال الروح له لأنه كان ناتجاً من نفخة نَفَخَها جبريل في درع مريم عليها السلام بأمره سبحانه ﴿فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ من آدم إلى الخاتم، ومن جملتهم: موسى، وعزير، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أي: لا تعتقدوا بالقلب ولا تنطقوا باللسان بأن هناك آلِهَةً ثلثة الله، ومريم، وعيسى! ﴿انْتَهُوا﴾ عن أوهام التثليث واقصدوا عقيدة التّوحيد ﴿خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا مثل له لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال، فلا يساوي الممكنُ واجب الوجود <89>

ولا يماثله شيء ولا يشاركه شيء في صفاتِه الذاتيةِ الأزليةِ الأبدية ولا الفعليةِ، وليس الله تعالى مادة قابلة للتجزي، وليست صفاته قابلة للإنفكاك عنه، وكل ما جرى بخيال النفس فهو بعيد عن حضرة ذي القدس. وحاصل ما هنالك تجليات رحمة وأنوار منه تعالى على عباده المصطفين الأخيار، ولكل نبي ورسول وعبد مطيع حظ منها فأشعة رحمته لا نهاية لها، وتبقى إلى أبد الآبدين ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي نسبحه تسبيحا وننزه ذاته عن أن يكون له تجانس مع الممكنات، واحتياج إلى التناسل للبقاء فيكون له ولد. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقا وملكا، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يتوكل عليه ويراجع اليه. ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾، أي لا يتنحى ولا يترفع ولا يعدّه عارا أن يكون عبدا لله ويعلن عبوديته له؛ فإن عبودية الإنسان للباري شرف جار يتباهى به كل آدمي شريف النفس، وإنما الاستنكاف له من عبودية غيره ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عباد الله تعالى؛ فإن حملة العرش مسخرون لحمله، والباقي كل له مقام وخدمة؛ فجبريل لتنزيل الكتاب، وميكائيل على أرزاق العباد، وعزرائيل لقبض الأرواح، وإسرافيل لنفخه في الصور مرتين، الأولى للتدمير والثانية للبعث والنشور. والمسخر عبد مطيع لمولاه، والعبودية الخضوع والتذلل له في امتثال الأوامر واجتناب المناهي ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ ولا يعبده ويعد العبادة عارا له ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم بما يستحقونه من الجزاء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ على قدر الاستحقاق ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادتنا ولم يعترفوا بعبوديتهم لنا بصدق >

<90

﴿فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ الله ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ولا يجدون لهم من دون الله وليا يتولى أمورهم، ولا نصيرا ينصرهم فتنشرح صدورهم.

روي في مورد نزول آية ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ الآية أن وفد نجران قالوا: يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبدالله ورسوله. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: إنه ليس بعار لعيسى عليه السلام أن يكون عبداً لله تعالى، ولن يأنف عيسى ولن يتعاظم على عبادة ربه. فنزلت الآية ذكره البغوي والواحدي.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (175) ﴾
قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب لكافة المكلفين إثر بيان بطلان ما عليه اليهود والنصارى وسائر الكفار، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي حجة قطعية الدلالة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع المكلفين، يعني المعجزات المتوالية التي ظهرت على أيدي الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ وهو القرآن الكريم الذي هو نور قلوب المؤمنين ووسيلة هداية المهتدين، ووصفه بالمبين أي الواضح لأنه يتبين حقيته بنفسه وأنه من الله تعالى، وليس كلام الإنس والجن فإن إعجازه لهما أن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه، أو سورة.. دليل على أنه نازل من عند الله وكذلك كشفه لأمور وقعت أو ستقع في المستقبل دليل آخر على حقيته. وأخرج ابن عساكر عن سفيان الثوري أن المراد

بالبرهان هو نفس الرسول صلى الله عليه وسلم فهو برهان على وجود ذات الواجب وقدرته الباهرة بأنه خلقه ضعيفا وقد رباه وأدّبه وحفظه وقوّاه واستنبأه وأظهر له دعواه وأيّده على أعدائه مع كثرتهم وشدتهم وعنادهم المتزايد، حتى فتح البلاد وأرشد العباد وأثبت عقيدة المبدأ والمعاد، وذلك دليل على ذات واجب الوجود الموصوف بالكرم والجود الغالب على أمره في كل غائب ومشهود، وبرهانٌ على رسالة نفسه بأخلاق من صدقه وصبره وتوكله واعتماده على الله في أمره وشجاعته وعفوه وسماحته وتقواه وزهده وصلاحه ووفائه بالوعد وثباته على العهود واعتماده على ربه في السراء والضراء واستقامته على حاله في جميع أعماله.. وكل ذلك على أنه رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقد أيده ونشر دينه وأيده، فكل من تبعه فقد أمدّه بإمدادات روحية وأنوار قدسية ظاهرة على المتبصرين ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ﴾ إيمانا صافيا عن التردد والاشتباه ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي بالله تعالى بالثقة والانتباه ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ أي ثواب عظيم ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي إحسان جسيم لا يقدر قدرهُ ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى ذاته ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176)﴾

عن جابر قال: اشتكَيتُ فدخل عَلَيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي سَبْعُ اَخَوات، فقلت: يا رسولَ اللهِ اُوصى لأخواتي بالثلث؟ قال: أحسن. قلت: بالشطر؟ قال: أحسن. ثم خَرَجَ. ثم دخل عليّ قال: أراك لا تموت في وجعك هذا. إن الله أنزل فبينَ ما لأخواتك وهو الثلثان، فكان جابر يقول: نَزَلَتْ هذه الآيةُ فِيَّ رواه النسائي وأبو داود. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم: كيف يورث الكلالة؟ فأنزل الله الآية. أخرجه ابنُ مَردَويه وابنُ راهويه.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يعني يستفتونك في كيفية توريث تركة ال ﴿ميت﴾ الذي مات حالكونه ﴿كَلَالَةِ﴾ أي لم يكن له والد ولا ولد كما سبق تفسيرها سابقا فأفتهم أنه ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي ولا والد، ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ واحدة ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ المتوفي الكلالة، وهذه هي الأخت لأبوين او لأب لأنه تقرر أن الأخت للأم حكمها غير ذلك ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي والأخ للأبوين أو لأب يرثها أي يرث أختها المذكورة إن لم يكن لها ولد حاجب له، وأما إذا كان لها ولد ذكر فلا إرث للأخ حينئذ أو بنت أو بنات، فله ما بقي من فرضها أو فرضهما ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ وكذا إن كانت الأخوات أكثر من ثنتين ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ على قاعدة اجتماع العصبات المتساوية الدرجة من الذكور والإناث ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي يبين الله لكم الأحكام كراهة أن تضلوا عن طريق الحق ومعرفة الأصول الإسلامية ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

ويعلم أحكامه جميع المسلمين، ويستفيد منها من كان له قلب سليم. نسأل الله تعالى سلامة قلوبنا وستر عيوبنا وكشف كروبنا وغفران ذنوبنا بمنه.

فرغت من تفسير سورة النساء ضحوة الخميس الخامس والعشرين من شهر ربيع الاول سنة 1404 ألف وأربعمائة واربع هجرية. على هاجرها الصلاة والسلام.

<94>

سورة المائدة

مدنية وهي مائة وثلاث وعشرون آية. إلا قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فإنها نزلت بمكة. وتعقب هذا بأن العرف جرى على أن كل ما نزل بعد الهجرة يسمى مدنيا، وإن نزل بمكة. فعلى هذا جميع آيات السورة مدنية.

وأخرج أبو عُبيد عن محمد القرظي قال: نزلت سورة المائدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة وهو على ناقته، فانصدعت كتفها، فنزل عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وذلك من ثقل الوحي.

وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المائدة من آخر القرآن تنزيلا فأَحِلّوا حلالها وحَرّموا حرامها. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (1)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ الوفاء حفظ ما يقتضيه العقد والقيام بموجبه. ويقال: وفى من الباب الثاني، ووفّى من باب التفعيل، وأَوْفى من باب الإفعال. والكل بمعنى واحد غير أن في المزيد مبالغة ليست في المجرد. والعقود جمع العقد وأصله الربط محكما، ثم تجوز به عن العهد الموثق. والفرق بين العقد والعهد أن العقد لا يكون إلا بين اثنين، والعهد قد ينفرد به واحد. واختلفوا في المراد بالعقود على أقوال:

أحدها: أن المراد بها العهود التي أخذها الله على عباده بالإيمان به، وطاعته فيما أحلّ لهم أو حرم عليهم.

وثانيها: العقود التي يَتعاقَدُها الناس بينهم كعقد البيع والنكاح ونحوهما.

الثالث: العهود التي كانت تؤخذ في الجاهلية على النصرة والمؤازرة على مَنْ ظُلم.

الرابع: العهود التي أخذها الله تعالى على أهل الكتاب بالعمل بما في التوراة والإنجيل مما يقتضي التصديق بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به.

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ تفصيل للعقود التي أمر بالوفاء بها.

والبهيمة: من ذوات الأرواح ما لا عقل له مطلقا. وقال كثيرون: البهيمة لكل ذي أربع من دواب البر والبحر. وسميت بهيمة لأنه أبهم أمرها على الخلق، وإضافتها إلى الانعام للبيان. وهي الأزواج الثمانية المذكورة في سورة الأنعام. وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ مجمل للجهل بمعناه قبل نزول بيانه. وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ حال من

الضمير في لكم على قول الأكثرين. والمعنى أُحِلَّتْ لكم بَهيمةُ الأنعامِ لا مُحِلّينَ الصّيدَ في الإحرام يعني أحلت لكم بهيمة الأنعام من: المَعْز، والضّأن، والبَقَرة، والثور، والناقة، والجمل، وما الحق بها قياساً مثلها. ولكِنْ لا تُحِلّوا الصيدَ في الإحرام.

فإن كنتم غير مُحْرِمين فكلوا من بهيمة الأنعام وما ألحق بها. وإن كنتم مُحْرمين فكلوا منها ولا تتعرضوا للصيد. والمراد به صيد البر، لأن صيد البحر حلال للمحرم والحلال لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ يعني يفعل ما يريد ويحكم به حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آَمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2)﴾

عن عكرمة قال: قدم الحطم بن هندي البكري المدينة في عير له يحمل طعامه فباعه، ثم دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فبايعه واسْلَمَ، فلما ولّى خارجاً نظر إليه فقال: لمن عنده لقد دخل على وجه فاجر، وولّى بقفا غادر ! فلما قدم اليمامة ارتد عن الإسلام وخرج في عير له يحمل الطعام في ذي القعدة يريد مكة، فلما سمع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه

وسلم تهيأ للخروج إليه نفر من المهاجرين والأنصار ليقتلوه في عيره،. فأنزل الله الآيةَ. فانتهى القوم. رواه ابن جرير. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾: لما بين سبحانه حرمة إحلال الحرم الذي هو من شعائر الحج عقب ذلك ببيان إحلال سائر الشعائر، وهي جمع شعَرْة لِما أشعر أي جعل شعارا وعلامة للنسك من: مواقف الحج.

ومرامي الجمار، والطواف، والسعي، والأفعال التي هي علامات الحاج يعرف بها من: الإحرام، والطواف، والسعي، والحلق، والنحر. وإضافتها إلى الله تعالى لتشريفها وتهويل الخطب في إحلالها ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي ولا تحلوا الشهر الحرام، ولا تقاتلوا أعداءكم فيه، إلا إذا كان القتال لدفع الصائل. والمراد به رجب، وقيل: ذو القعدة، وقيل: الأشهر الأربعة الحرم: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب. وإنما ذكر مفردا لإرادة الجنس ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ أي ولا تتعرضوا للهدي بالغصب او بالمنع من وصوله إلى محله. والمراد به ما يهدى إلى الكعبة من إبل أو بقر أو شاء ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ أي ولا تتعرضوا لذوات القلائد والقلائد: جمع قلادة بمعنى ما يقلد به الهَدْيُ من نعل ونحوه ليعلم أنه هدي فلا يتعرض له ﴿وَلَا آَمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾: أي ولا تحلوا أناسا قاصدين البيت الحرام بإحصارهم ومنعهم عن السير إليه بأي وجه من الوجوه المُحَرَّمَةِ حالكون أولئكَ الناس ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ أي من الإحرام ﴿فَاصْطَادُوا﴾ والأمر للإباحة أي وإذا خلصتم من المناسك فلا جناح عليكم في الاصطياد لزوال الإحرام المانع منه ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي ولا يحملنكم ﴿شَنَآَنُ قَوْمٍ﴾ أي عداوتكم معهم من ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ ومَنَعوكم ﴿عَنِ﴾ زيارة ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وطوافه على أن تعتدوا عليهم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ بالعفو عن الأعداء والإغضاء

وغمض العين وصرف النظر عنهم ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ هذا النهي يعم النهي عن كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي ويندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه تفسير الإثم بترك ما أمرهم الله به وارتكاب ما نهاهم عنه. والعدوان بمجاوزة ما حدّه الله لعباده في دينهم وفرضه عليهم في أنفسهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع الأمور ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾لمن لا يتقيه فيه. ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (3)﴾

قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ الآية شروع في بيان المحرمات التي استثناها قبل بقوله إلا ما يتلى عليكم فقال: حرمت عليكم الميتة وهي ما فارقه الروحُ حَتْفَ أنفِهِ من غير سبب خارج ﴿وَالدَّمُ﴾ والمراد به: الدم المسفوح منه، وكان أهل الجاهلية يجعلونه في المبَاعِرِ وَيَشْرونه، وهذا القيد احتراز عن الدم غير المسفوح كالكبد والطحال فمباح.﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ يعني وحرّم عليكم أكل لحم الخنزير، ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ يعني وحرم عليكم أكل لحم كل حيوان رفع الصوت لغير الله تعالى عند <99>

ذبحه. والمراد بالاهلال هنا: ذكر ما يذبح له كاللّات والعزّى.
﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾: أي ولحم الحيوانات المنخنقة التي ماتت بالخنق بأي وجه كان؛ سواء اختنق بحبل الصياد، أو بوقوع رقبتها بين شعبتين من شجرة، أو نحوها. وكان أهل الجاهلية يخنقون البهيمة ويأكلون لحومها. ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي تضرب على رأسها أو غيره من أعضائها حتى تموت. ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ أي التي تقع من مكان عال أو في حفرة أو بئر حتى تموت. ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ وهي التي ينطحها غيرها فتموت. ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي وحرم لحم حيوان أكل منه السبع حتى مات ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي إلا ما أدركتموه وله حياة مستقرة فذبحتموه ـ وتعرف بانفجار دمه بقوة، أو باضطرابه عند الذبح كذلك. ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ يعني وحرم عليكم أكل لحم حيوان ذبح على النصب أي الحجارة التي كانت حول الكعبة البالغ عددها ثلاثمائة وستين حجرا، وكان المشركون يذبحون عليها تقربا إلى الأصنام.
والنصب على وزن عنق جمع نصاب كحمر وحمار. وقيل إنه مفرد الأنصاب كطنب وأطناب ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أي وحرم عليكم أن تطلبوا علم ما قسم لكم بالأزلام كما تفعل الجاهلية. والأزلام جمع زلم كفرس بمعنى القدح. وكانت للعرب في الجاهلية ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها: أمرني ربّي، وعلى الثاني نهاني ربّي، والثالث باق بلا كتابة. فإن خرج الأمر مضَوْا لحاجتهم، وإن خرج النهي تركوها، وإن خرج الأخير أجالوها ثانيا ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي الاستقسام بالأزلام فسق وذنب عظيم وخروج من طاعة الله تعالى، وذلك لأنهم إذا أرادوا ذلك أتوا بيت أصنامهم، وفعلوا ما فعلوا. وفي ذلك ابتعاد عن الله تعالى والتوكل عليه إلى الاعتماد على الأصنام وقبول ما خرج من الأزلام في بيوتها. وكذلك فيه افتراء على الله تعالى لأنه ينسب ظهور ذلك المكتوب إلى صدور أمر من الله أو نهي منه تعالى. ويجوز

أن يكون ذلكم إشارة إلى جميع المحرمات يعني أن تعاطي هذه الأمور كلها. فسق وخروج عن طاعة الله تعالى.

والمسلم يكتفي بأمر الله تعالى في إقدامه على المأمور به وبنهيه في الامتناع عن المنهي عنه، وقد تتطلب النفس في نحو هذه الأمور سببا معقولا. وقد قال العلماء: إن منشأ تحريم المطعومات المذكورة إما الاستقذار من الطبيعة السليمة أو الابتلاء بأمراض حسية أو نفسية من تناولها. أو ورود خلل على العقيدة الإسلامية منها فإن الإهلال بغير ذكر الله معناه الاعتماد على غير ذات الباري وتركه تعالى. وفي ذلك بلاء وأيّ بلاء فإن الإنسان مائل إلى الأطعمة اللذيذة، ومنها اللحوم فإذا ذكر اسم غير الله تعالى تشرب القلب ذلك الغير فيستدرج القلب إلى إيثار محبته على محبة غيره، وإذا ذكر اسم الله تعالى وحده عليه خرج عن تلك المحنة الاعتقادية سواء كان الذبح للوفاء بمقتضيات الطبيعة الإنسانية كالذبائح اليومية من جهة القصابين، أو تكريما لضيف، أو إحياءً لذكرى الرسول صلى الله عليه وسلم في شهري المولود والمعراج، أو استبشاراً بولادة ولد، أو بإبادة عدوّ لدود للإسلام... أو نحو ذلك فكله عمل مبارك واجب أو مندوب أو مباح. وليس في شيئ منها شيئ من الفساد. ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي هذا الزمان الحاضر العرفي الذي نزلت فيه هذه الآية وهو عصر يوم الجمعة المصادف ليوم عرفة من سنة حجة الوداع العاشرة من الهجرة، أو يوم دخوله صلى الله عليه وسلم مكة لثمانٍ بقين من رمضان سنة ثمان، وقيل تسع يئس الذين كفروا وانقطع رجاؤهم من إبطال دينكم وإجلال دينهم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي فلا تخشوا أيها المسلمون من أولئك الكفار المشركين أن يظهروا عليكم <101>

﴿وَاخْشَوْنِ﴾ أن أنزل عليكم عقابي إن خالفتم أمري وارتكبتم المحرمات. ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ تشريعا بإنزال الآيات التي تكون مبادئ للأحكام الاعتقادية والعملية وغيرها يؤخذ منها نصا أو استنباطا أو قياسا على المعلوم. أو أكملته بفتح أم القرى ودخول الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً. ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بعلمكم بالسيطرة الكاملة على مكة، وهدم منار الجاهلية، والنهي عن حج المشركين، وطواف العريان ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾: أي اخترته من بين الأديان دينا لكم تستمرون عليه عقيدة وعملا قلبا وقالبا، وذلك هو الإسلام بالمعنى الخاص المفسر في قوله صلى الله عليه وسلم: ((الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا)). لا الإسلام بالمعنى العام وهو الانقياد لله الثابت من لدن آدم إلى عهد الخاتم عليهم الصلاة والسلام، فإنه وإن كان قدرا مشتركا بين الأنبياء والرسل كلهم إلا أنه ليس بمراد هنا، لأن الإسلام في دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مقرون بأحكام عملية لم تكن في الأديان السابقة. ثم الجملة معطوفة على جملة اليوم أكملت لكم دينكم لا على جملة أكملت حتى لا تتقيد باليوم؛ لأن دين الإسلام كان مرضيا ومختارا سابقا ولاحقا لا في هذا اليوم فحسب، اللهم إلا أن يراد به مجموع ما شرع من الأحكام إلى يوم نزول الآية فالاختيار الوارد عليه لم يكن قبله لأن اختيار الخمسة غير اختيار الأربعة وهو ظاهر. ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ يعني فمن عرض عليه الاضطرار في مَجاعة حالكونه غير مائل وغير منحرف لإثم بأن لا يأكل فوق ما يحتاج إليه، أو لا يكون متعديا على آخر بأن يغصب منه <102>

ما يتقوت به أو لا يكون في سفر معصية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لا يؤاخذه بما تناوله من تلك المحرمات المذكورة قبلُ.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4)﴾

عن أبي رافع قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستأذن عليه فَأذِن له فَأبطأ فأخذ رداءه فخرج إليه وهو قائم بالباب، فقال: قَد اَذِنّا لك، قال: اَجَل، ولكنا لا ندخل بيتا فيه صورةٌ ولا كلب. فنظروا فإذا في بعض بيوتهم جَرْوٌ. فأمر أبا رافع: لا تَدَعْ كلبا بالمدينة إلا قَتَلْتَه ! فأتاه ناس فقالوا: يا رسول الله ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرتَ بقتلها؟ فنزلت الآية أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي.

وعن سعيد بن جبير أن عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا: يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبُزاةِ وإن كلاب آل ذريح تصيد البقر والحمير والظباء، فمنه ما ندرك ذكاته، ومنه ما يقتل فلا ندرك ذكاته، وقد حرّم اللهُ الميتة فماذا يحلّ لنا منها؟ فنزلت هذه الآية رواه ابن أبي حاتم.

وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم لهم: يحل لكم ما علمتم من الجوارح مُكَلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمْسكنَ عليكم واذكروا اسم الله عليه ثم قال: ما أرسلتَ من كلب وذكرتَ اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك. قلتُ وإن قتل؟ قال: وإن قتل ما لم يأكل.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾: شروع في بيان المحللات التي ذكر بعضها على وجه الإجمال بعد بيان المحرمات ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ يعني أحل لكم أكل لحم كل حيوان استطابته الطبائع السليمة، أي لم يستخبثه بقرينة قوله تعالى في سورة الأعراف يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث. والمراد من الطبائع السليمة طبائع صنف من الإنسان لم يكونوا على البذخ والإسراف من سعة ذات اليد، ولا على تَخَشُّن وتَقَشُّفٍ من الفقر وضيق ذات اليد، حتى أكلوا كل ما دبّ وهب. أو المراد طبائع صنف من الإنسان معتدلين في ملاحظة المأكولات والمشروبات أو المراد من الطيبات مالم يدل نص من الكتاب والسنة ولا إجماع ولا قياس جلي على حرمته.

والإنسان المسلم العاقل العالم إذا أدرك الطبائع السليمة فالحكم سهل عليه، وإلا فلينظر إلى أصناف المحرمات المذكورة في أول السورة، فيعلم أنه يحرم أكل كل حيوان ميتة وما شابهها، وكل حيوان سبع ضار، وطير عاد، وكل ذبيحة ذبحت للتقرب والتعبد إلى الأصنام فالعلة الجامعة ما أخل بالدين أو البدن من جهة من الجهات المذكورة، فيحرم أكل لحم كل حشرة، ودابة سامة، وكل حيوان يعيش على أكل القاذورات، وكل ذي ناب أو مخلب يصيد بهما، وما اشتبه فيه فالأصل الحل، والورع تركه. وتفصيل البحث في الفروع الفقهية المدونة.

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي وأحل لكم لحم صيد ما علمتموه على الإصطياد ﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ ومعنى مكلبين: معلمين إياه الاصطياد. فإن المكلب اسم فاعل من باب التفعيل بمعنى مؤدب الجوارح ومغريها بالصيد وتعلمونهن مما علمكم الله أي تدربونهن بطرق التأديب والتعليم الذي حصلتم عليها بإلهام من الله أو باكتساب عقلي حسب

المعتاد بين الناس ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فكلوا من لحوم الصيد الذي اصطادته إذا أمسكتها على صاحبها ولم تأكل منها. هذا ما عليه جمهور الفقهاء. وقال بعضهم: لا يشترط ذلك في سباع الطير لأن تأديبهن إلى هذه الدرجة متعسر أو متعذر. وقال بعض: لا يشترط ذلك مطلقا لأن مخالفة الجوارح لطبعها إلى هذه الدرجة نادرة ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي على إرسال ما علمتموه من الجوارح أو على إمساكها للصيد أي أذكروا اسم الله عند إمساكها. فكأنها سكينة وإمساكها له ذبح منكم للصيد ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في رعاية الآداب المذكورة امتثالا واجتنابا. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي إنه تعالى يؤاخذكم على جميع الأفعال.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (5)﴾

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾إعادة هذه الجملة للتأكيد والتوطئة لما بعده. وهذا الخطاب للمؤمنين لأن غيرهم غير مكلفين بفروع الشريعة ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، والمراد بالذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى. لكن في تحقيق كون الشخص من أهل الكتاب اختلاف وجهة النظر بين الأئمة المجتهدين. واستثنى الإمام علي رضي الله عنه نصارى بني تغلب، وقال: ليسوا على النصرانية، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر. ولا يلحق بهم المجوس في

ذلك وإن ألحقوا بهم في التقرير على الجزية، لقوله صلى الله عليه وسلم: ((سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم)).

﴿وَطَعَامُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿حِلٌّ لَهُمْ﴾ فلا بأس عليكم أنْ تُطعِموهم وتبيعوه منهم، ولو حرم عليهم لم يجز ذلك ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي وأحلت لكم الحرائر العفائف من المؤمنات ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي وأحلت لكم الحرائر العفائف من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم من اليهود والنصارى، لا ممن لهم شبهة الكتاب كالمجوس ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهنّ والتقييد بذلك لتأكيد وجوبها والترغيب في تسليمها، وإلا فليس تسليمها شرطا لصحة نكاحهن، كما أن ذكر المحصنات في الصورتين للترغيب في نكاحهن، وإلا فنكاح الفاسقات جائز. ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾: أي حالكونكم اَعِفّاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنا ولا مُسرّين به. والخدن: الصديق يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أي ومن يكفر بما يتعلق به الإيمان وهو شرائع الإسلام وأحكامه الاعتقادية والعملية فَقَد حَبِطَ عَملُه أي فقد ضاع عمله الذي عمله واعتقد أنه قربة إلى الله تعالى ﴿وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني من الهالكين. واعلم أنه لا فرق بين المناكحة والذبيحة حلا وحرمة، فحيث حلت إحداهما حلت الأخرى، وحيث لا فلا. وإذا علمت ذلك فاعلم أن الامام الشافعي رضي الله عنه اشترط في حل ذبيحة الكتابي أن يكون خالصا من علاقة غيره من المجوس ونحوه من المشركين. وأنه إذا كان من نسل إسرائيل أي يعقوب عليه السلام أن لا يعلم دخول أول آبائه في ذلك الدين بعد بعثة ناسخة كأن يدخل في دين اليهود أو النصارى بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، بأن يعلم دخوله فيه قبلها او كان الدخول

وعدمه مشكوكا فيه، وان علم دخوله فيه بعد تحريفه أو بعد بعثة لا تنسخه، كبعثة بعض الرسل بين موسى وعيسى عليهما السلام وذلك لشرف نسبها إذ ذاك. وإذا كان من نسل غير إسرائيل فشرط حل ذبيحته أن يعلم دخول أول آبائه في ذلك الدين قبل بعثة تنسخه، ولو بعد تحريفه إن تجنبوا المحرف، بخلاف ما إذا علم دخوله فيه بعدها وبعد تحريفه، أو بعدها وقبل تحريفه أو بعدها ولم يتجنبوا المحرف أو شك في ذلك لسقوط فضيلته حينئذ. وهذه الشروط المذكورة في حل ذبائح أهل الكتاب معتبرة في حل نكاح الكتابية. فلا يحل أكل ذبائح أهل الكتاب عند الشافعي كما لا يجوز نكاحه لأن تحقق الشروط المذكورة منتف فيه.

ونقل عن تاج الدين السبكي القول بحل ذبيحة الكتابي الذي علم دخول أول أصولهم وشك: هل هو قبل نسخ او تحريف أو بعدهما؟ ولكن الرملي ضعف قوله وردّه. وفي حاشية الجمل على شرح المنهج ما نصه: وهو وإن كان ضعيفا عند الرملي فليس ضعيفا بالكلية، بل يجوز الإفتاء به، لأن السبكي لم ينفرد به، فقد أفتى به غيره من أئمة المذهب كالحافظ العسقلاني. وعبارته في شرحه على البخاري نصها: وقد استنبط شيخنا شيخ الإسلام البلقيني منه، أي من حديث هرقل أن كل من دان بدين أهل الكتاب كان في حكمهم في المناكحة والذبائح لأن هرقل هو وقومه ليسوا من بني إسرائيل بل ممن دخل في النصرانية بعد التبديل، وقد قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: يا أهل الكتاب، فدل على أن لهم حكمهم خلافا لمن خص ذلك بالإسرائيليين أو بمن علم أن سلفه دخل اليهودية أو النصرانية قبل التبديل. إنتهى.

وأما عند الإمام الأعظم فتحل ذبيحة الكتابي يهوديا أو نصرانيا عربيا أو تغلبيا، لأن الشرط عنده قيام الملة، وكذا الصابئة لأنهم يقرون بعيسى

عليه السلام ويدخل في النصارى الأفرنج والأرمن. وكل ذلك مشروط بالتسمية عند الذبح، ولو تركها عمدا حرمت ذبيحته بخلاف ما إذا تركها ناسيا فتؤكل الذبيحة عند نسيانه لها، وكذا تحل ذبيحة من ترك التسمية جاهلا بأنّ التسمية شرط.

بقي الكلام في ذبيحة جاءت من بلد فيه الكتابي كثير والمسلم قليل وغيرهما من سائر الكفار أكثر أكثرية ساحقة. فمقتضى ما في رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار حل أكلها، ففيه على قول المصنف لا تحل ذبيحة غير كتابي ما نصه: وكذا الدروز كما صرح الحصني من الشافعية حتى قال: لا تحل القريشة المعمولة من ذبائحهم، وقواعدنا توافقه إذ ليس لهم كتاب منزل ولا يؤمنون بنبي مرسل، والكتابي من يؤمن بنبي ويقر بكتاب (رملي).

أقول وفي بلاد الدروز كثير من النصارى فإذا جيئ بالقريشة أو الجبن من بلادهم لا يحكم بعدم الحل ما لم يعلم أنها معمولة بأنفحة ذبيحة دُرْزيّ، وإلا فقد تعمل بغير أنفحة، وقد يذبح الذبيحة نصراني. وسيأتي عن المصنف آخر كتاب الصيد أن العلم بكون الذابح أهلا للزكاة ليس بشرط. وخلاصته: أنه يحرم أكل ذبيحة كل كافر لا يقر بكتاب منزل أو نبي مرسل، وأما الكتابي فيحرم عند الشافعي أكل ذبيحته الا بالشروط المذكورة ولا تكاد تتحقق. نعم قال بحل اكل ذبيحته بعض الأئمة الشافعية كالسبكي والبلقيني وغيرهما، فمن أكلها فليقلد قول الأئمة القائلين بحل ذبائح الكتابيين. وأما الحنفية فيحل عندهم أكل ذبائح الكتابي بشرط التسمية. وإذا جهلنا أنهم سموا أولا فالظاهر عندهم حل الأكل لان العلم بكون الذابح اهلا للزكاة عند الذبح ليس بشرط. وأما الذبح فهو إما

اضطراري أو اختياري. أما الأول: فهو جَرْحٌ وطَعْنٌ وإِنهارُ دَمٍ في أيّ موضع وقع من البدن.

وأما الثاني فهو ذبح بين الحلق واللّبّة أي من العقدة إلى مبدا الصّدر وعروقه: الحُلقوم، والمريء، والوَدجان؛ فالحلقوم مجرى النفس، والمريء مجرى الطعام والشراب، والودجان عرقان عظيمان في جانبي قدام العنق بينهما الحلقوم والمريء. وعند الإمام الشافعي يجب قطع الحلقوم والمريء كليهما. وعند الإمام أبي حنيفة يجب قطع ثلاث منها أي الودجان والحلقوم أو المريء أو أحد الودجين وجميع الحلقوم والمريء. وعند أبي يوسف يشترط قطع الأولين وأحد الودجين. وعند محمد يكفي قطع أكثر كل منها. ويكره الذبح من القفا والنخع أي إيصال الذبح إلى النخاع وهو عرق أبيض في جوف عظم الرقبة. وهذا القطع جائز بأي قاطع يجري الدم ما عدا السن والظفر. ويجب مقارنة القطع لوجود الحياة المستقرة في الحيوان وعلامتها انفجار الدم أو الحركة الشديدة بعد نهاية القطع. ويحرم إتعاب الحيوان وإيلامه قبل الذبح الشرعي بضرب رأسه أو قطع قوائمه أو إحداها فإن ذلك تعذيب ليس له عذر مشروع، بخلاف شد القوائم بحيث لا يمكن معه قيامها ونفورها حتى يذبح ذبحا مشروعا.

وأما ذبح الحيوانات المتسلسلة المصفوفة بجهاز كهربائي بحيث تقطع الأوداج بحركة واحدة وسرعة خاطفة فهو جائز بشرط التسمية عند استعمال الجهاز وإسالة دمائها عنده.

ويجوز الاصطياد بالكلاب والطيور المعلّمة تعليما كاملا بحيث تصطاد بأمر أصحابها ولا تأكل من لحومها. وتجب التسمية عند إرسالها عند الإمام أبي حنيفة. وتسن عند الإمام الشافعي وتعتبر تلك الحيوانات كآلات الذبح.

وأما الاصطياد بالبندقية؛ فالعمل نفسه حرام لأن فيه تعذيبا للحيوان بالنار. وأما أكل لحم الحيوان فإن أدركه المصطاد بعد الرمي بلا فتور وقصور وذبحه في حال الحياة المستقرة بأن ينفجر دم الصيد أو به قوة حركة للأعضاء بعد الذبح وعنده فهو حلال، وإلا فحرام. وهذا هو التحقيق سلفا وخلفا. وما عدا هذا القول يعتبر باطلا وعلى المسلم رعاية الأحكام الشرعية حتى الامكان والله المعين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (6) وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7)﴾

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سقطت قلادة لي بالبَيداء ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزل فثنى رأسَه في حجري راقدا، فأقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة، وقال: حَبَسْتِ الناس في قلادة؟ ! فَتَمنَّيتُ الموتَ لمكان

رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مني، وقد اَوجَعَني. ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ وقد حضرت الصبح فالتمسَ الماءَ فلم يوجد. فنزلت هذه الآية من أولها إلى آخرها. فقال اُسَيّدُ بن حُضَيّر: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم. اخرجه البخاريّ.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ شروع في بيان بعض أحكام الدين بعد بيان بعض من أحكام الدنيا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام لأداء الصلاة والاستعداد لها وكنتم محدثين ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي أسيلوا عليها الماء بحيث يعم كلها من منابت شعر الرأس إلى منتهى اللّحيين. ومن وتد الأذن إلى وتدها الآخر بما فيها من الشعر والبشرة مع مراعاة المعاطف وأطراف العيون وما أقبل على الشوارب من الأنف. وإذا علمتم أن الماء لم يصل إليها لدرن أو دسم أو نحوهما فادلكوها ليتحقق الغسل ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾: أي واغسلوا أيديكم من رءوس الأصابع وما بينها والكف والساعد الى المنتهى مع المرافق لتناول اليد لهما ولاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في غسلها، ومن اليدين ما تحت الأظفار فيجب إخراج الأوساخ عنه حتى يصل الماء إليه ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ قالوا: الباء مزيدة لأن المسح متعد بنفسه، أو أدخلت على المفعول بتضمين معنى الإلصاق، وإلصاق المسح بالرأس يحتمل مسح البعض والكل ولا دلالة على أحدهما فحملت الباء على معنى التبعيض لتيقنه. وقيل: إن الباء تفيد التبعيض كما نقله ابن مالك سواء دخلت على آلة المسح نحو مَسَحْت وجهي بالمنديل، أو على المحل نحو مسحت برأس اليتيم، وعليه الإمام الشافعي رضي الله عنه حيث قال في الأم: إذا مسح الرّجل بأيّ رأسه شاء إن كان لا شعر عليه وبأي شعر رأسه شاء

بأصبع واحدة أو بعض أصبع أو بطن كفه، أو أمر من يمسح له أجزأه ذلك. إنتهى. وبين فيه أن أظهر معنى الآية أن من مسح من رأسه شيئا فقد مَسَح برأسه وأن مقابل الاظهر مسح الرأس كله. ولكن دلت السنة على أنه غير مراد فتعين الأول وذكر من السنة حديث المغيرة في المسح على الناصية والعمامة. ومذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه على إرادة البعض لكنه أوجب أن يكون البعض ربع الرأس لأن المسح إنما يكون باليد وهي تستوعب مقدار ربع الرأس في الغالب فوجب تعينه. وذهب مالك إلى وجوب مسح كله وهو إحدى الروايتين عن أحمد رضي الله عنه. وقيل: إن منشأ ما قالههو قوله بزيادة الباء في قوله تعالى برءوسكم، وقوله تعالى وامسحوا رءوسكم ظاهره استيعاب جميع الرأس بالمسح، والأذنان من الرأس عند مالك وأحمد، فيجب مسحهما أيضا.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب وأرجلكم بالنصب أي اغسلوا أرجلكم إلى الكعبين وهما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين. وقرأها ابن كثير وحمزة وأبو عمرو وعاصم بالجر. والظاهر أنه عطف على الرأس، أي وامسحوا بأرجلكم إلى الكعبين. ومن هنا اختلف المسلمون في غسل الرجلين ومسحهما، فالجمهور على أن الواجب هو الغسل وحده، والإمامية أنه المسح. وقال داود بن علي والناصر للحق الزيدية يجب الجمع بينهما. أما القائلون بالجمع فأرادوا العمل بالقراءتين معا للاحتياط ولأنه المقدم في التعارض إذا أمكن، وأما القائلون بالمسح فقد أخذوا بقراءة الجر وأرجعوا قراءة النصب إليها. وذكر الرازي عن القفال أن هذا قول ابن عباس وأنس بن مالك وعكرمة والشعبي وأبي جعفر محمد بن علي الباقر.

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري عند ذكر مذهب الجمهور: ولم يثبت عن أحد من الصحابة خلاف هذا، إلا عن علي وابن عباس وأنس، وقد ثبت عنهم الرجوع عن ذلك. وأما الجمهور فأخذوا بقراءة النصب وأرجعوا قراءة الجر إليها وأيدوا ذلك بالسنة الصحيحة وإجماع الصحابة. ويزاد على ذلك أنه هو المنطبق على حكمة الطهارة. وادعى الطحاوي وابن حزم أن المسح منسوخ.

وعمدة الجمهور في هذا الباب عمل الصدر الأول وما يؤيده من الاحاديث القولية، وأصحها حديث ابن عمر في الصحيحين قال: تخلف عنا رسول الله في سفرة فأدركنا وقد أرهقنا العصر فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا. قال: فنادى بأعلى صوته: ((ويل للأعقاب من النار)) مرتين أو ثلاثا.

وقال بعض العلماء: المراد بقراءة الجر المسح. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم بين أن ذلك المسح لا يكون الا على الخف، وعليه فالآية تشير إلى المسح على الخف في قراءة الخفض والمسح على الخفين إذا لبسهما طاهرا متواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخالف فيه إلا من لا عبرة به. والقول بنسخه بآية المائدة يبطل بحديث جرير أنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل له: تفعل هكذا؟ قال: نعم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بال ثم توضأ ومسح على خفيه. قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة. متفق عليه. ويوضح عدم النسخ أن آية المائدة نزلت في غزوة المريسيع، ولاشك أن إسلام جرير بعد ذلك مع أن المغيرة بن شعبة روى المسح على الخفين عن رسول الله في غزوة تبوك وهي آخر مغازيه صلى الله عليه وسلم.

وأجمع العلماء على جواز المسح على الخف الذي هو من الجلود واختلفوا في ما كان من غير الجلد إذا كان صفيقا ساترا لمَحَلِّ الفرض، فقال مالك وأصحابهُ: لا يمسح على شيئ غير الجلد، فاشترطوا في المسح أن يكون الممسوح خفا من جلود أو جوربا مجلدا ظاهره وباطنه، يعنون ما فوق القدم وما تحتها لا باطنه الذي يلي القدم. واحتجوا بأن المسح على الخف رخصة، وأن الرخص لا تتعدى محلها، وقالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمسح على غير الجلد، فلا يجوز تعديه إلى غيره وهذا مبني على شطر قاعدة أصولية مختلف فيها وهي: هل يلحق بالرخص ما في معناها أو يقصر عليها ولا تتعدى محلها؟ وجمهور العلماء، منهم الشافعي وأبو حنيفة وأحمد واصحابهم، على عدم اشتراط الجلد لأن سبب الترخيص الحاجة إلى ذلك، وهي موجودة في المسح على غير الجلد، ولما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه مسح على الجوربين والموقين. وقال في المهذب: وإن لبس جوربا جاز المسح عليه بشرطين: أحدهما أن يكون صفيقا لا يشف. والثاني أن يكون مُنعّلا فإن اختل أحد الشرطين لم يجز المسح عليه إنتهى. يعني أن الثابت عن الإمام الشافعي رضي الله عنه اعتبار الشرطين في الجورب، وما ورد من الآثار في المسح المطلق فمحمول على المسح على الخف من الجلود أو اللبود أو الجورب المنعل القابل لمتابعة المشي عليه.

وخلاصة الخلاصة: إن غسل الرجلين المكشوفتين، ومسح المستورتين، هو الثابت بالسنة المتواترة المبينة للقرآن والموافق لحكمة هذه الطهارة، ولا تعارض بين القراءتين، ومن سرى إليه شيئ من قراءة الجر في الصدر الأول رجع عنه لبيان النبي صلى الله عليه وسلم وهذا هو الطريق الأسلم.

وأما وجوب النية في الوضوء فاختلف فيه الفقهاء فقال الحنفية: ليس بواجب لأن ظاهر الآية لا يقتضيه. والشافعي ذهب إلى وجوبه فقال بعض الشافعية مستدلا على وجوبه: إن معنى الآية: إذا أردتم القيام للصلاة وأنتم محدثون والغسل وقع جزاء لذلك والجزاء مسبب عن الشرط فيفيد وجوب قصد الغسل لإرادة الصلاة، ويكون الجزاء وفق الشرط في القصد. وقال آخرون: وجه الاقتضاء أن الوضوء مأمور به فيها وهو ظاهر، وكل مأمور به يجب أن يكون عبادة وإلا لما أمر به، وكل عبادة لا تصلح بدون النية لآية: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ والإخلاص لا يحصل إلا بالنية الصافية. ولقوله صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنيات)). الحديث. وأما وجوب الترتيب فيه فلأن الفاء في قوله تعالى فاغسلوا وجوهكم للتعقيب، فيفيد وجوب تعقيب إرادة القيام إلى الصلاة بغسل الوجه، فيلزم من هذا وجوب الترتيب بين الوجه وغيره، فيلزم في الكل لعدم القائل بالفرق. وقالت الحنفية: لا يجب الترتيب لأن المأمور به بعد إرادة القيام للصلاة عدة أمور عطف بعضها على بعض بالواو وهي لمطلق الجمع. ويعارض بأنه إذا كان غسل الوجه واجبا عقب إرادة القيام للصلاة كان المعطوف على غسل الوجه وهو غسل الأيدي واجبا حسب توالي الفقرات فيكون المسح بعد غسل الأيدي وغسل الرجلين بعد مسح الرأس واجبا. وقد يقال: ان الدليل على الوجوب عمل الرسول بالآية، وإذا كان عمله على ذلك الترتيب بيانا لأداء الواجب كان الترتيب واجبا والله أعلم. وليس المدار على وجود الواو واقتضائه الجمع المطلق أو المرتب. على أنه لو لم يكن ذلك الترتيب كان يعمل صلى الله عليه وسلم بخلافه ولو مرة واحدة بيانا للجواز، ولم يقع ذلك.

هذا ما ترتب على إرادة القيام للصلاة مع وجود الحدث الأصغر وأما ما يترتب على إرادة القيام لها مع الحدث الأكبر فهو ما أداه بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ أي وإن كنتم عند إرادة القيام لها مجنبين فاطهروا أي بالغسل كما بينه الشارع. ثم شرع في بيان حكم من عرض عليه الحدث الأصغر أو الأكبر وكان مريضا لا يقدر على استعمال الماء، أو مسافرا لا يجده، أو جاءه أحد أسباب الحدث ولا ماء عنده، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ أي مرضا تخافون به الأذى الشديد من استعمال الماء ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ ولم تجدوا الماء، أو لم تقدروا على استعماله لما مر ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أي من المحل الذي تقضي فيه الحاجة، أو كناية عن قضائها ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي لمستموها أو جامعتموها ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ لرفع الحدث الأصغر أو الأكبر ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي فاقصدوا نقل تراب طيب أي طاهر غير مخلوط بالنجس وطهورا بأن لم يستعمل قبل ذلك في إباحة ما يحتاج إليه ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ كلها ﴿وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ أي من هذا الصعيد الطيب، وانووا به إباحة الصلاة أو غيرها، واكتفوا بذلك عن رفع الحدث الأصغر أو الأكبر بالماء ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾، يعني ما يريد الله تعالى بتشريع الوضوء لرفع الحدث الأصغر، والاغتسال لرفع الحدث الأكبر وبالتيمم عند وجود الموجب ليجعل عليكم من ضيق في الامتثال وتعب في الأفعال ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ﴾ بذلك ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ وينظفكم بالوضوء والغسل من درن الأوساخ ودنس الذنوب، ولاسيما إذا كان هناك موجب للتيمم فإن في استعمال التراب في الوجه واليدين لمرضاة الله تعالى درجات وبركات. فقد أخرج مالك ومسلم وابن جرير عن ابي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رِجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب))

فإذا كان هذا جزاء للوضوء فكيف يكون جزاء الاغتسال والتعب في غسل جميع البدن؟ أو كيف يكون الجزاء عند تمريغ الوجه واليدين بالتراب لامتثال أمر ذي الجلال؟ ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني وليتم بتشريع ما هو مطهر لأبدانكم من الأوساخ ولقلوبكم من سواد المعاصي نعمته عليكم بإلحاق رخصة التيمم بعزيمة الوضوء والغسل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم الجسام ليزيدكم الكرم والرحمة والإنعام. ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بإخراجكم من ظلمات الكفر إلى أنوار الإسلام ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ أي عهده الذي أخذه عليكم وربطكم به في ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ حين بايعكم رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في إهمال العهد ونسيان النعم التي لا تحصى، وترك الشكر عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بالخفيات الموجودة فيها فضلا عن الجليات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (8) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (9) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (10)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ مفاده يا أيها الذين آمنوا حق الإيمان بالله ورسوله ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ كونوا قائمين

بالعدل ورعايته في أقصى ما يمكن لكم لأجل مرضاة الله تعالى الأمر برعايته. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ يعني ولا يحملنكم شدة بغضكم وكراهيتكم لقوم من المشركين على أن لا تراعُوا العدلَ معهم حتى لا تشهدوا في حقوقهم بالعدل أو ترتكبوا ما لا يحل من الأعمال كالمثلة وقتل الشيوخ والنساء والصبيان ونقض العهد ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي اعدلوا لأصدقائكم وأعدائكم فإن العدل أقرب وأكثر مناسبة للتقوى. وإيضاح الجملة أن التقوى عبارة عن اتقاء الشرك ليكون صاحبها مؤمنا، واتقاء الكبائر ليكون صاحبها عادلا، واتقاء الدنيا وملابساتها ليكون صاحبها من الواصلين إلى المستوى الرفيع بين المؤمنين، ولكل طاعة مناسبة وقرب من حقيقة التقوى، ولكن أقربها إليها وأنسبها بها هو العدل في الأمور والاتصاف به، فهو أقرب الطاعات إليها، وكأنه من الجزء الأخير من علل التقوى. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتقوا مخالفة أمره ونهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ولا تفوتونه فيجازيكم بما تستحقونه. وفي هذا وعد ووعيد للمطيعين والعاصين.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾يعني وعد الله الذين آمنوا حق الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وأظهروا إيمانهم بالأعمال الصالحات من الواجبات والمندوبات، ومارس فيها حتى حصلت له ملكة التقوى ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي بأن لهم مغفرة من الله عما صدر منهم مما يعد ذنبا بالنسبة إليهم وأجر عظيم، في الآخرة من الجنان والرضوان والنظر إلى وجه الكريم المنان ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا﴾ القرآنية ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وملابسو النار الشديدة الالتهاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11)﴾

عن عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف حتى دخلوا على كعب بن الأشرف ويهود من بني النضير يستعينهم في عقل أصابه. فقالوا: نعم اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا. فجلس فخلا بعضهم ببعض فقال حُيَى ابن أخطب لأصحابه: لا ترونه أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه فنستريح منه ! ولا ترون شرا أبدا. فجاءوا إلى رحى عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل فأقامه من ثمة فأنزل الله الآية. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وعن جابر بن عبدالله: أن رجلا من محارب يقال له: غورث بن الحارث قال لقومه: أقتل لكم محمدا، فأقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ﷺ وهو جالس وسيفه في حجره فقال: يا محمد أنظر إلى سيفك هذا؟ قال: نعم. فأخذه فاستلّه وجعل يهزّه ويهمّ به فيكبته الله تعالى. فقال: يا محمد أما تخافني؟ قال: لا. قال: أما تخافني والسيف في يدي؟ قال: لا ويمنعني الله منك. ثم أغمد السيف ورده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله الآية. رواه أبو نعيم في دلائل النبوة.

وأخرج مسلم وغيره من حديث جابر أن المشركين رأوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم بعُسْفان قاموا إلى الظهر معا، فلما صلوا ندموا الاّ كانوا أكبّوا عليهم وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا الى صلاة العصر، فرد الله تعالى كيدهم بأن أنزل الله صلاة الخوف.

وقيل: إشارة إلى ما أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن عمرو بن أمية الضمري حيث انصرف من بئر معونة لقي رجلين كلابيين معهما أمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلهما ولم يعلم أن معهما أمانا فودّاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى إلى بني النضير ومعه أبو بكر رضي الله تعالى عنه وعمر وعلي فتلقوه فقالوا: مرحبا يا أبا القاسم لماذا جئت؟ قال: رجل من أصحابي قتل رجلين من كلاب معهما أمان مني طلب مني ديتهما، فأريد أن تعينوني. قالوا: نعم: أقعد حتى نجمع لك، فقعد تحت الحصن وأبو بكر وعمر وعلي. وقد تآمر بنو النضير أن يطرحوا عليه عليه الصلاة والسلام حجرا؛ فجاء جبريل عليه السلام فأخبره فقام وقام من معه. وقيل: إشارة إلى ما أخرجه غير واحد من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل منزلا فتفرق الناس في العضاة يستظلون تحتها فعلق النبي صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة فجاء أعرابي إلى سيفه فأخذه فسلّه، ثم أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله تعالى. قاله الأعرابي مرتين أو ثلاثا، والنبي صلى الله عليه وسلم في كل ذلك يقول: الله تعالى: فشام الأعرابي السيف (أي غَمدهُ واستلّه، من الأضداد) فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فَاَخبرَهم بصنيع الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه لم يعاقبه. ولا يخفى أن سبب النزول يجوز تعدده. وأن القوم قد يطلق على الواحد كالناس في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾

ومعنى الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ يعني قوم من اليهود أو بعض الناس ﴿أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالإهلاك والقتل، ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (12) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (13)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: كلام مستأنف لبيان بعض ما صدر عن بني إسرائيل المفيدة للانتباه والحذر منهم، لأنهم كانوا ولم يزالوا على نقض العهود وتعدي الحدود. فيقول تعالى بالتأكيد: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ على لسان رسلهم ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ للإرسال إلى حدود أرض العدو، والتفتيش عن قوتهم وشوكتهم، وكان كل نقيب من سبطٍ، ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ تعالى لبني إسرائيل ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعلم بالنيات والأعمال في الأحوال ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة عليكم ﴿وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ لفقرائكم ﴿وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم في تبليغ ما أمروا بتبليغه، وجهاد أعدائكم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالاتفاق في سبيل الخير من الجهاد وغيره ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾

أي بعد ذلك الشرط المعلق به الوعد بإدخال الجنات

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فقد تاه وترك وسط الطريق.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق المذكور لا لسبب شيئ آخر ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ أي طردناهم عن رحمتنا عقوبة لهم ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي يابسة غليظة تبعد عن قبول الحق بحيث ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يبعدون الألفاظ عن معانيها المناسبة إلى غيرها مما لا يناسب الحق بتأويلات زائفة فاسدة، أو ينقلون بعض الحروف من الكلمات إلى غير محلها الأصلي بالتقديم والتأخير لتدل على معنى غير المعنى المقصود ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي وأهملوا رِعايةَ قسمٍ مما أُمِروا برعايته من التوراة حتى نسوه، أو حتى صاروا كأنهم نسوه ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي لا تزال مطلعا ومدركا لبعض الخيانات بالنسبة إلى حفظ أمانة الكتاب السماوي والأحكام الإلهية ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ بَقَوا عَلَى الأمانة بلا خيانة ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ عن أعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المتجاوزين عن السيئات.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (14)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ شروع في بيان بعض قبائح النصارى بعد بيان قبائح اليهود، فقال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ﴾ الآية يعني وأخذنا الميثاق من الذين قالوا إنا نصارى على يد رسولهم عيسى المسيح عليه السلام ﴿فَنَسُوا﴾ على أثر الميثاق ﴿حَظًّا﴾ أي نصيبا وافرا

﴿مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ في تضاعيف الميثاق، فأخذنا منهم الميثاق على توحيد الباري فجعلوه ثالث ثلاثة، وعلى نشر نعوت محمد المبشر به من جانب المسيح عليهما السلام فكتموها وخالفوا أمره بالبيان وأمرناهم بتوحيد الصف وإطاعة الله تعالى فتفرقوا إلى اثنتين وسبعين فرقة، ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ لبعضهم مع بعض ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي فسوف ينبئهم في الآخرة بما كانوا يصنعونه في الدنيا بتبعية أهوائهم ويجازون عليه، وتلك الفرق كالنسطورية والملكانية واليعقوبية وغيرهم كما في كتب الملل والنحل.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ خطاب مع الفريقين من اليهود والنصارى، ويقول ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد صلى الله عليه وسلم المنعوت في كتبكم بالنعوت الخاصة الممتازة المميزة، حالكونه ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي يشرح ويظهر عليكم كثيرا من الأحكام التي كنتم تخفونها عنه وعن سائر الناس كنعت النبي، وآية الرجم، وبشارة عيسى بأحمد عليهما السلام ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي ويسامح ولا يظهر كثيراً مما كنتم تخفونه لعدم وجود داع إلى بيانه، فاستفيدوا منه. فإنه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ عظيم وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وهو السراج الذي أضاء به العالم علوه وسفله ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ وهو القرآن

الواضح الجلي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ أي يهدي الله بهذا الكتاب المبين ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ أي من صرف إرادته في اكتساب مرضاته تعالى يهديه ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي إلى طرق توجب سلوكها لسالكها السلامة من كل مخافة يوم القيام، ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الجهالة والضلالة وأهواء النفس ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أي نور العلم والرشاد وزكاء النفس الموجب للتحرك نحو القدس ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي وتلك الهداية والعناية تحصلان له بإرادته وتوفيقه. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام وأحكامه لكافة الأنام.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18)﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾: شروع في رد مزاعم النصارى واليهود والاستدلال عليه، بحيث إذا نظر المنصف في الموضوع لم يبق له شبهة في أن ما هم عليه باطل فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لا غيره- القائلون بذلك هم اليعقوبية الذين يدعون أن الله سبحانه وتعالى قد يحل في جسد إنسان معين أو في روحه ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي في

إبطال قولهم: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي من الذي يمنع قدرة الباري تعالى من شيئ إن أراد ذلك؟ وبواقع الحال يظهر أن الجواب سلبي، أي لا أحد قادر على ذلك المنع. واحتج بذلك على فساد قولهم.

وتقرير الدليل: إن المسيح ضعيف أمام قدرة الباري وإرادته إهلاكه، وكل من هو ضعيف تحت القدرة والإرادة ليس بإله وبعيدٌ كل البعد عن الاتصاف بالألوهية؛ لأن الإله يجب أن يكون قادرا غير مقدور، وقاهرا غير مقهور، وواجب الوجود لا يتأثر بأي تأثير مهما كان منشأه.

ثم أشار إلى دليل ثان وهو أن عيسى المسيح ولد من أم وحدث من العدم ونشأ من ضعف، وغير موصوف بالقدم، وكل من هو كذلك ليس بإله.

وإلى دليل ثالث هو أن أم عيسى التي هي أصله وأساس وجوده قابل للهلاك بإرادة الباري وكل قابل للهلاك لا يمكن أن يبعث منه إله. فمريم لا يمكن أن يحدث منها إله.

وإلى دليل رابع وهو أن عيسى مماثل لبعض أفراد نوع الإنسان وكذلك مماثل بالإمكان والحدوث لمن في الأرض من الممكنات الخاصة. وكل من هذا شأنه لا يمكن أن يكون إلها فعيسى لا يمكن أن يكون إلهاً.

وغاية شبهة الناس الفاسدين المفسدين لأولئك النصارى أن عيسى فيه لاهوتية، أي قوة معنوية قدسية. وفيه ناسوتية، أي قوة إنسانية. ولما كانت اللاهوتية موجودة فيه جاز التصادق بين عيسى واللاهوتية بأن يقال: عيسى لاهوت كما يقال الإنسان ناطق، ولم يعقلوا أن اللاهوتية الموجودة في عيسى عبارة عن تعلق أشعة أنوار محبة الباري تعالى بقلب عيسى أو بدنه وظهور آثار الشرف فيه وهي صفة وعرض، ولا تصادق بين

الذات والصفة، وبين الذات والعرض أبدا. وأقصى ما يقال إنه تجلى الباري تعالى عليه بأنوار الرحمة كما تجلى على سائر الأنبياء والمرسلين. بل وعلى سائر عباده الصالحين ولاسيما الاولياء الاصفياء الذين قال الله تعالى في مدحهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. كما أشار بقوله الكريم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إلى دليل خامس وهو أن عيسى المسيح عليه السلام شخص موجود من الموجودات التي هي بين السماء والأرض. وكل شخص كذلك مملوك للباري تعالى. وكل ممكن لا يمكن أن يكون إلهاً فعيسى المسيح لا يمكن أن يكون إلهاً.

وقوله تعالى ﴿يخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إشارة إلى دليل سادس وهو أن عيسى من جملة المخلوقات التي خلقها الباري، فإنه يخلق ما يشاء وكل مخلوق يمتنع أن يكون إلها لوجوب أن يكون الإله قديما فعيسى يمتنع أن يكون إلها ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ الآية حكاية لما صدر عن اليهود والنصارى من الدعوى الباطلة لأنفسهم ورد الله سبحانه وتعالى تلك الدعوى بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ على صورة المعارضة حاصلها أنتم وإن كنتم تدعون تلك الدعوى لكن عندنا ما يعارضها وهو أنه لو كنتم أبناء الله وأحباءه ما أذنبتم ذنوبا تعذبون عليها، ولكنه عذبكم عليها في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وفي الآخرة أيضا على اعترافكم بأنكم تعذبون أياما معدودة.

ويمكن تقريره بوجه آخر وهو أنه لو كنتم أبناء الله وأحباءه ما كان يعذبكم بالذنوب لكنه يعذبكم على اعترافكم.

وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي ليس الأمر كما تزعمون ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ أي خلقه الله ولا مزية

لكم على أي فرد أو صنف أو نوع مما خلق، أي مما خلقه الله، ولستم بشيئ إلا مثل سائر الناس، ومن الناس من يؤمن بالله ورسله ويطيعه، ومنهم من لا يطيعه ويكتسب المعاصي والذنوب. والله ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من أولئك المخلوقين. ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعذيبه منهم. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

ومما ينبغي التنبيه عليه إن قولهم ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ إما يراد به المقربون عند الله، أي نحن المقربون عند الله قرب الاولاد من الآباء. أو المراد بالأبناء الخاصة وأهل العلاقة الكاملة كما يقال أولئك أبناء الدنيا. أو المراد نحن أشياع من وصف بالنبوة من الأنبياء. أي قالت اليهود: نحن أشياع ابنه عزيرـ وقالت النصارى: نحن أشياع ابنه المسيح عليه السلام. وإطلاق الأبناء على الأشياع والأتباع مجاز إما تغليبا أو تشبيها لهم بالأبناء في قرب المنزلة. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (19)﴾

عن ابن عباس قال: دعا رسول الله اليهود إلى الإسلام ورغَبهُم فيه فَأبَوا عَليه. فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة: يا معشر اليهود اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتَصِفونه لنا بصفته. فقال رافع بن حرملة ووهب بن يهوذا: ما قلنا لكم وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعدهـ فأنزل الله هذه الآية رواه ابن إسحاق.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: الخطاب لليهود ويقول الباري سبحانه وتعالى لهم يا أهل الكتاب الذي أنزل على موسى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد العربي القرشي الهاشمي ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ حسب ما يوحي إليه ربه سبحانه وتعالى الآيات أحكام الدين من الاعتقاديات والعمليات المفيدة لسعادة الدارين ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ في زمان انقطاع الوحي وعدم مجيء الرسول إلى الأمم. وكان ذلك بين سيدنا عيسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام مدة خمسمائة وستين سنة لم يكن في تلك المدة رسول. وما قيل: إنه كان بعد سيدنا عيسى الرسل الذين أرسلهم عيسى إلى بعض بلاد الروم كما أشار إلى ذلك قوله تعالى ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ وواحد من العرب وهو خالد بن سنان من بني العبس عليهم السلام يجاب عنه: بأن الثلاثة كانوا مرسلين من جانب سيدنا عيسى ونسبة إرسالهم إليه تعالى كانت بناء على أنه تعالى أمره أن يرسلهم إلى تلك البلاد. وخالد بن سنان لم يكن رسولا وإنما كان نبيا بلا شريعة وكتاب. على أن بعضهم قال: إن خالد بن سنان عليه السلام كان قبل عيسى عليه السلام.

﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ تعليل لمجيئ الرسول صلى الله عليه وسلم بالبيان يعني إنما جاءكم رسولنا بالبيان كراهة أن تقولوا معتذرين من تفريطكم في أحكام الدين يوم القيامة ما جاءنا من بشير ولا نذير حتى نفهم أحكام دين الله ونعمل بها. ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ أي لا تعتذروا هناك فقد جاءكم رسول بشير للمطيعين ونذير للعاصين وانقطع عذركم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (20) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (23) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (25) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (26)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾: جملة مستأنفة لبيان أعمال بني إسرائيل بعد أخذ الميثاق عليهم، وبيان لكيفية نقضهم الميثاق، وانتفاء فترة الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما

بينهم.

يعني واذكر ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ في مقام النصح والإرشاد إلى واجباتهم: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بعدِّ النِّعَمِ الواردة عليكم وعلى آبائكم ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾، وهم يوسف، وموسى، وهرون ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أي حرركم ونجاكم من ظلم فرعون وبغيه وعدوانه وسلب الحرية عنكم وإخافتكم في بيوتكم وتسخيركم للأعمال الشاقة فجعلكم احراراً

آمنين مطمئنين لكم اكتفاؤكم الذاتي إدارة واقتصاداً. وبذلك كنتم كالملوك أو ملوكا على الحقيقة، إذ الملك من كان له بيت ومعيشة وخادم وأمان.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب مَلِكا.

﴿وَآَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ مِنْ انتصار رسولكم الذي أرسل إليكم بإخزاء فرعون عند جمعه السحرة، وإغراقه في البحر، وإنجائكم منه بغرقه، وإرسال الكتاب المقدس جملة واحدة، وعفوه عن سفهائكم. الذين قابلوا تلك النعم باتخاذ العجل إلهاً لهم ومعاصي أخرى.

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ المباركة باتخاذ الأنبياء والرسل إياها مسكنا لهم. أو المقدسة عن الفساد الناشئ من القحط والجوع لأهلها التي كتب الله لكم أنها تكون مسكنا لكم بعد خلاصكم من فساد فرعون ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾: يعني ولا ترجعوا عن مقصدكم خوفا من الجبابرة فتنقلبوا خاسرين الظفر بذلك المقام المحترم.
والأرض المقدسة بالذات هي جامع بيت المقدس وما وراءه صار مقدسا بتبعية العبادة فيه. فقيل إنها فلسطين والأردن ودمشق. ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ أشداء أقوياءَ بالعَدَد والعُدَدِ متغلبين لا تتأتى مقاومتهم. وكان ذلك القوم من العمالقة بقايا قوم عاد، وكانت لهم أجسام ضخمةٌ. ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بسبب من الأسباب سواء كان قتال غيرنا لهم أو سببا آخر ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بسبب آخَرَ أيّاً كان ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ يعني قال رجلان من الذين يخافون الله تعالى

وأنعم عليهما بالإيمان والتثبيت: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي باب سور مدينتهم ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ من غير حرب وضرب واستعمال سِلاحٍ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالله تعالى حق الايمان. واستفاد الشرطية من كلام سيدنا موسى ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أو من علمهم بضعف معنويات أعدائهم في ذلك الزمان. أو من استمرار موجة تأييد موسى عليه السلام بالمعجزات القاهرة وبقائه فيهم. أو من جريان سنة الله في الكون من قهر الظالمين إذا تمادوا في الظلم والطغيان. أو من فراسة المؤمن الخائف من الله تعالى، فإنه نعتهما بقوله: من الذين يخافون؛ فإن الخائف منه عارف ببعض ما عنده۔ وعلى الله تعالى لا على غيره فتوكلوا بعدما امتثلتم أمره بإعداد العدة وقولهما: إن كنتم مؤمنين لم يكن من شكهما في إيمانهم بل من شكهما في قوة إيمانهم بحيث توجب الخوضَ في غمارِ المُسايَفَة ﴿قَالُوا﴾ أي بنو إسرائيل المخاطبون للرجلين متوجهين إلى موسى وغير مبالين بكلامهما: ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ يعني لا شبهة في أنا لن ندخل أرض الجبابرة فضلا عن أن ندخل باب سور مدينتهم أبدا مدة حياتنا ما داموا فيها مع القوة والمنعة الحاضرة. ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ ما دام الفتح امرا معنويا قدسيا ﴿فَقَاتِلَا﴾ الجبابرة ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ نَنتظر مآلَ الحالِ. فاستخف أولئك الجاهلون أمر موسى ومعجزةَ العصا ونَسُوا قوةَ المعجزة مِن ذلك النبيل وفَلَق النيل وأساءوا الأدبَ في ذكر الربّ وطلب القتال منه مع موسى كما كفروا به بإضافته إلى ضمير الخطاب الظاهر في الاختصاص الغير الصّواب.

ولما قابلوه بما قالوه ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ اَملِكُ نفسي بسيطرة روحي عليها وتسخيرها لما أمر به ربنا تعالى. واَمْلِك أخي على أصول التربية الزكية في العائلة

المُحَلاّة بالفضائل والمخلاة عن الغائلة ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ المتمردين فلا تهلكنا بالغضب الوارد عليهم فإنا عَبيدُك المطيعون. ﴿قَالَ﴾ تعالى جوابا لموسى في ندائه ودعائه وجزاء للقوم المتمردين في عناده: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي فإن دخول الأرض المقدسة حرام وممنوع عليهم مدة أربعين سنة. فهي زمان يصير فيه الطفل كهلا، والجاهل عاقلا. والغافل منتبها متيقظا.

وفي مسافة الأرض أقوال: منها: إنها كانت ما بين حدود مصر والشام وكان عدد بني إسرائيل ستمائة الف مقاتل والله أعلم. وفي معنى التيه أقوال: منها أنهم كانوا حائرين فيها جاهلين بطريق الخلاص، وكانوا يسيرون في الأرض فيمسون حيث يصبحون، ويصبحون حيث يمسون. وذلك ابتلاء من الله لهم بما يناسب تمردهم على الرسول الجليل موسى بن عمران عليه السلام بعد كل ما رأوا منه من الإعجاز المعجز للبيان فالجزاء إذا لم يكافئ العصيان لم يرتدع العصاة من بني الإنسان. وقال بعض: ليس معنى التيه إلا أنهم بقوا محصورين في تلك الديار بين العمالقة الجبارين، وهم لهم بالمرصاد وبين الأقباط الباقين في مصر الذين هم كانوا أعدى الأعادي لهم وجناحهم الشمالي البحر الابيض والجنوبي البحر الأحمر، فماذا كانوا يفعلون إلا بان يوفقهم لاستعادة النشاط الروحي والقوة النفسية كما أعاده لهم ففتحوا الديار وخرجوا أحرارا؟

وفي مدة التيه توفي سيدنا هرون عليه السلام وتوفي سيدنا موسى بعده بسنة أو بستة أشهر. ووصى ليوشع ابن نون عليه السلام بالجهاد وبعد ثلاثة أشهر من وفاة موسى دخل يوشع بلدة (أريحاء) وكان قد نُبئ قبل ذلك وظهرت بوادر السعادة لبني إسرائيل، ثم استمرت الفتوحات ووصلوا إلى ما وصلوا إليه. وهذه سنة الله في عباده ينصر العباد

الصادقين ويدمر المتمردين الفاسقين ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ من هلاكهم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32)﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية عطف على مقدر مرتبط بقوله الكريم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ من حيث إنه تمهيد لما سيذكره من جنايات بني إسرائيل بعدما جاءتهم الرسل.

والمراد بـ ﴿ابْنَيْ آدَمَ﴾ إبنان له عليه السلام <133>

اسمهما قابيل وهابيل. روي أنه بعدما هبط آدم وحواء إلى الأرض وانتشر منهما الأولاد والبنات أوحى الله سبحانه إلى آدم. وكانت تلد حواء في كل بطن ولدا ذكرا وبنتاً توأمين. ولما جاء وقت زواجهم أوحى الله إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأم الآخر، وكان له ولدان هابيل وقابيل. وكان هابيل صاحب ضرع أي صاحب المواشي، وقابيل صاحب الزرع. وكانت أخت قابيل احسن من أخت هابيل. ولما طلب هابيل أن ينكح أخت قابيل حتى ينكح قابيل أخت هابيل لم يرض بذلك لأن أخته كانت أحسن من أخت هابيل. وقال: أنا أحق منك أن أتزوج بها فَاَمَره اَبوه أن يزوجها هابيل فَاَبى. فقال لهما: قَرِّبا قرباناً فمِن أيكّما قُبل تزوجها. وإنما أمره بذلك لعلمه أنه لا يقبل من قابيل لا أنه لو قُبِلَ جاز. ثم غاب عليه السلام عنهما إلى مكة وعند ذلك قربا قربانا فَقَرب هابيلُ جذعةً وقيل كبشاً، وقرّب قابيلُ حزمةَ سنبلٍ، فوجد فيها سنبلة عظيمة فَفَركها وأكلَها. فنزلت النار فأكلَتْ قربانَ هابيل وكان ذلك علامة القبول. وكان أكلُ القربان غير جائز في الشرع القديم وتركت قربان قابيل، فغضب وقال لهابيل: لأقتلنك فأجابه هابيل بما قصه الله تعالى بقوله الكريم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالْحَقِّ﴾ أي تلاوة متلبسة بالصحة والمطابقة للواقع ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ ظرف متعلق بنبأ أي اتل عليهم نبأهما نبأ ذلك الوقت الذي قربا فيه قربانا. والقربان ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها من الحلويات وسائر المطعومات. ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وهو هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ﴾ لأنه لم يرض بحكم الله تعالى وهو عدم جواز نكاح تَوْأَمَتِه ﴿قَالَ﴾ قابيل: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ أي والله لأقتلنك. قال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الذين يتقون مخافة الله. ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾<134>

قيل: كان هابيل أقوى من قابيل، ولكنه تحرج عن قتله واستسلم له خوفا من الله؛ لأن المدافعة لم تكن جائزة في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة.

قال بعض المحققين: واختلف في هذا الأمر الآنَ على ما بسطه الإمام الجصاص. فالصحيح من المذهب أنه يلزم الرجل دفع الفساد عن نفسه وغيره وإن أدى إلى القتل. وقيل إنه لا يلزم ذلك بل يجوز واستدل بما أخرجه ابن سعد في الطبقات عن خباب بن الأرَتّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه ذكر فتنةً القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فإن أدركت ذلك فكن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتِلَ. ثم جاء هابيل بتعليل آخر وقال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يعني إني أريد باستسلامي وامتناعي عن التعرض لك أن ترجع بإثمي أي بتحمله لو بسطتُ يدي إليك حيث كنت السبب له وأنت الذي علمتني الضرب والقتل وإثمك حيث بسطتَ إليّ يَدَكَ. وهذا نظير ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: « المُسْتَبّانِ ما قالا فعلى البادئ ما لم يَعْتدِ المظلومُ» ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا من كلام هابيل على ما هو الظاهر، أو إخبار منه تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ أي فسهلت له نفسه قتل أخيه وَوَسَّعَته، مِن طاعَ له المَرْتعُ إذا اتّسَعَ ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دنيا وآخرة. أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سَنَّ القتلَ)) !

قيل: قتل هابيل وهو ابن عشرين سنة عند عقبة حراء، وقيل بالبصرة. ولما قتل قابيل أخاه هرب إلى عدن من أرض اليمن فأتاه إبليس فقال: إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يخدمها ويعبدها. فإن عبدتها أيضا حصل مقصودك فبنى بيت نار فعبدها فهو أول من عبد النار.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾ أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطية قال: لما قتله ندم فضمه إليه حتى أرْوَحَ، وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يُرْمى بِهِ فتأكله، وكره أن يَأتي به آدمَ عليه السلام فيحزنه. وتحير في أمره إذ كان أول ميت من بني آدم عليه السلام. فبعث الله غرابين قتل أحدهما الآخر، وهو ينظر إليه ثم حفر له بمنقاره وبرجله حتى مكن له، ثم دفعه برأسه حتى ألقاه في الحفرة ثم بحث عليه برجله حتى واراه. ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾أي أعجزت أن أهتدي إلى مثل ما اهتدى إليه ﴿فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾ وقوله تعالى فأواري معطوف على أكون والناصب أن، وليس جوابا للاستفهام، لأن شرط هذا النصب أن ينعقد من الجملة الاستفهامية والجوابِ جملةٌ شرطية نحو أتزورُني فأُكرمَك؟ فإن تقديره اِنْ تَزُرْني أُكْرِمْكَ. ولا يصح ذلك السبك هنا لفساد قولك اِن اَعْجَز أن أكُونَ مثلَ هذا الغراب أواري سوأةَ أخي. لأن المواراة مرتب على الاستطاعة لا على العجز وهو ظاهرٌ. ﴿فَأَصْبَحَ﴾ قابيل ﴿مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتل هابيل لأمور:

الأول: أنه فكر في أن قتل أخيه كان على أخذ أخته، وكان يمكنه أن يمتنع عن تسليمها له بدون القتل ويفرّ إلى محل لا يستولي عليه أبوه.

الثاني: الاستحياء والانفعال إذا بقي عند أبيه وأمه، وألم الغربة والكربة وفراقهما وفراق العائلة اذا ذهب إلى محل بعيد.

الثالث: هياج الغريزة والمحبة الأخوية على نفسه وتأثره بالحادثة الرهيبة.

الرابع: حدوث الحيرة له وظهور نقصان عقله من أخس الطيور وهو الغراب. وكفى بذلك موجبا للندم.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الأجل بفتح الهمزة في الأصل الجناية يقال اَجَلَ عليهم شراً إذا جَنى عليهم جنايةً. وفي معناه جَرَّ عليهم جَريرةً، ثم استعمل في تعليل الجنايات، ثم اتسع فيه فاستعمل لكل سبب. وكذلك من جراء ذلك ممدودا

ومقصورا. تقول من جرائك فعلتُ أي بسبب ما ذكرناه وما حكيناه من مأساة الواقعة ورهبة القتل ووخامة عاقبته في الدنيا والآخرة والمفاسد التي تترتب عليه من تمزق العوائل وتحقق الغوائل، وتركيز الأحقاد في القلوب، وندامة مباشره مما يتورط فيه من الكروب، كتبنا وحكمنا وقضينا على بني إسرائيل في الكتاب المختص لهم بالتنزيل ﴿أَنَّهُ﴾ أي الشأن ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا﴾ واحدة من النفوس الإنسانية ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل نفس منها يوجب الاقتصاص ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ موجب لهدر الدم كالارتداد عن الدين، أو الزنا بمرأة وهو من المحصنين ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ لأن المانع من قتل الإنسان للإنسان هو مخافة الله سبحانه ورعاية حدوده، فمن هتك هذه الشريعة لا تبقى عنده قدسية الشريعة، ولا يهمه أن يقتل سائر الناس. فمن هذه الجهة قاتل نفس واحدة وقاتل سائر النفوس على حد سواء. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي ومن تسبب لبقاء نفسٍ واحدة رعاية

لهيبة الشريعة ومخافة من صاحبها فكأنما راعى هيبتها في إحياء جميع النفوس البريئة.

ومما يحسن التنبيه عليه أن هنا أسئلة: الاول إن قتل أحد ابني آدمَ عليه السلام جنايةٌ وقعت في الزمان الماضي فما مناسبته بالسببية لأن يَكتُبَ الله على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا إلى آخر الآية؟ الثاني: أنّ القتل من الكبائر المحرمة في سائر الأديان السابقة واللاحقة فما وجه تخصيص هذا الحكم ببني إسرائيل؟ الثالث: أنه من البديهيات وجود الفرق بين قتل نفس واحدة وقتل نفسين فصاعدا وكلما زاد القتل زاد الإثم وكذلك الفرق بين التسبب لإحياء نفس أي لبقائها، والتسبب لبقاء أكثر من واحدة فكلما زاد التسبب في الخير زاد الأجر المرتب عليه، فما معنى التشبيه في الفقرتين؟

وإذا علمت ذلك فاعلم أن الجواب عن السؤال الاول جوابان: أحدهما: أن اسم الإشارة ليس إشارة إلى قتل قابيل لهابيل فقط بل هو إشارة الى ذلك وما ترتب عليه من المفاسد والخسارات الدنيوية والأخروية، وتفريق أولي الأرحام بعضهم عن بعض وإثارة الناس في الاقتصاص وتعدي الحدود. وهذه كلها موجودة في كل زمان ومكان. وأراد أن يُذكِّرَ الإسرائيليين بها فكتب على بني إسرائيل ما كتب. والجواب الثاني: أنه لما كانت الحادثة الواقعة بين ابني آدم عليه السلام ناشئة من الحسد وهو أكثر رذيلة حاصلة في بني إسرائيل ومن حسدهم على الناس شاع بينهم القتل والهتك بالأرواح.. رَبَطَ تلك الحادثة بهم، وأفاد أنه لما كانت تلك الحوادث من الحسد القوي وذلك الحسد أقوى في بني إسرائيل ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ﴾ الآية حتى يحصل إنزجارُهم عمّا هُمْ عليه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني: فهو أنه وإن كان القتل محرما في كل الأديان لكن كلما تطورت الأمم وتلاحقت وتجددت فيهم الذنوب فمن اللائق بأسرار الشريعة تجديد تشريع الاحكام المترتبة على تلك الذنوب لاسيما إذا كانت في أمة مغرورة جسورة لا تهتم بالحدود الإلهية فقوله كتبنا على بني إسرائيل معناه: جددنا ذلك التشريع على بني إسرائيل واعتنينا به أكثر مما كان لكثرة جسارتهم على الحدود وزيادة تمردهم على الدين.

وأما الجواب عن السؤال الثالث فهو: أمور: الاول ما ذكرناه سابقا في تفسير الآية. والثاني: أن المراد من الناس جميعا الذين يقتلون بعد ذلك القتل الاول من طرف الناس الآخرين العاملين بتلك الخصلة السيئة لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن أحياها فقد سن سنة حسنة، ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

الثالث: أن المراد خلاصة الأجر وخلاصة الوزر لان جزاء قتل النفس البريئة استحقاق

دخول، ويحصل هذا لمن قتل واحدا أو آلافا، وإن كانت درجات العذاب مختلفة.

الرابع: أن المراد بالنفس نفس محمد صلى الله عليه وسلم لأن بني إسرائيل كانوا متعودين على قتل الأنبياء كما نطق به القرآن الكريم.

ومعنى الآية حينئذ أن من قتل نفس محمد عليه السلام فكأنما قتل الناس لأن قتل النبي كقتل الأمة. ومن تسبب في بقائها فكأنه تسبب في حياة الأمة كلها.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾: يعني والله لقد جاءتهم رسلنا بالآيات الواضحة الموضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم تأكيداً لمراعاته والتزامه. ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا من الكتب والتأكيد على وجوبه ﴿فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أي لمسرفون ومجاوزون الحدود في الأرض بالقتل والجنايات على الأطراف والمعاني والسرقات والغش والخيانات وسائر وجوه الإفساد في الارض مما لا تعد جزئياته ولا تحصى.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34)﴾

عن زيد ابن أبي حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب لأَنَسٍ يسأله عن هذه الآية فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في العرنيين ارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل رواه إبن جرير. وعن أنس بن مالك أن نفراً من عُكَل قبيلة مشهورة، وقيل من عرينة، وقيل: منهما، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا واجتووا المدينة فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتوا إبل الصدقة ويشربوا من ألبانها. فقتلوا راعيها واستاقوها ! فبعث النبي في طلبهم جمعا فأتي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، ولم يحسمهم أي لم يقتلهم، وتركهم حتى ماتوا. فأنزل الله فيهم هذه الآية. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

إجتووا المدينة أي لم يوافقهم هواؤها واستوخموها. قال أنس: وإنما سمل النبي صلى الله عليه وسلم أعين أولئك لأنهم سَمَلوا أعْيُنَ الرعاة اَخرجه مسلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني إن الذين يحاربون أولياءَهما وهم المسلمون فالمحاربة مع المسلمين مباشرة، لا مع الله ورسوله لأن محاربتهما تكون بمعارضة التشريع والتبليغ، وذلك كفر وحكمه القتل لا ما ذكر في الآية. وإنما جعل محاربةُ المسلمين محاربتهما تعظيما للمسلمين. وقيل المراد يحاربون رسول الله. وإنما ذكر الله للتمهيد والتنبيه على أن محاربة الرسول محاربة الله تنبيها على رفعة شأنه فيعم الحكم من يحارب الرسول ومن يحارب أمته بعد الرسول ولو بأعصار كثيرة بطريق[2] العبارة لا بطريق الدلالة أو القياس، كما يتوهم لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص بالمكلفين حين النزول، ويحتاج في تعميمه إلى دليل آخر على ما تحقق في الأصول وذكره صاحب روح المعاني.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي مفسدين ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ قصاصا من غير صلب إن أفردوا القتل ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ مع القتل إن قتلوا وأخذوا المال ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ فتقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن اخذوا المال ولم يقتلوا ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي ينفوا من بلد إلى بلد بحيث لا يتمكنون من القرار في موضع، وهذا اِن اقتصروا على الإخافة وفسر أبو حنيفة النفي بالحبس.

﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(2) هو العمل بظاهر ما سيق الكلام له.

أما القتل قصاصا في جزاء من قتل مؤمنا متعمدا فعائد إلى أولياء القتلى اقتصوا أو عفوا، مجانا أو على الدية. ولا دخل لتوبة القاتل هناك. ولما كان الكلام في قطاع الطريق من المسلمين فتقييد التوبة بما قبل القدرة معناه أن توبتهم بعد التوبة لا تنفع في إسقاط الحد وإن أفاد عند الله. وأما إذا كان القطاع للطريق كافرين فإذا أسلموا، ولو بعد القدرة عليهم، سقط عنهم كل حد وشدّ، وهو ظاهر من النصوص.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (35)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ آية جامعة لجهات الخير للمسلم الكاسب لرضاء الله سبحانه، فإن حقه أوّلا أن يتقي ربه بالإيمان به والابتعاد عن الكفر وترك سائر المحرمات، ثم أداء الواجبات والمندوبات بقدر الاستطاعة. وثانيا: أن يبتغي الوسائل إلى الله سبحانه وتعالى فيتوسل بالعلماء لتعلم أحكام الدين من شتى الجهات اعتقاداً وعملا فعلا وتركا. ثم يتوسل بصحبة الصالحين المنورين لتنوير قلبه وسائر لطائفه وتخلية نفسه الأمارة عن الرذائل كالرياء والنفاق والحسد والكبر والعتو والعناد وحب السيطرة على العباد وغير ذلك من المهالك... فإذا لمس من مسلم خيرا واكتسب من صحبته نورا واستفاد ثباتا واطمئنانا لقلبه وانشراحا لصدره فليلازمه بقدر الإمكان، فإنه خير وبركة ورزق روحي ساقه الله تعالى إليه، وينبغي له حينئذ أن يحترم ذلك الصاحب المبارك ويستدرّ من حُسنِ الأدب معه محاسنَ الأخلاق وفضائل الاداب، وإذا تُوفي ذلك الرجل ولحق مقامه الموعود أن يزوره ويدعو له ويطلبَ من الله سبحانه وتعالى لنفسه هناك الخير والبركة والتوفيق لأن ذلك المقام مقام ومدفن لشخص مات في السعي لترويج دين الله ومقام شخص تنور قلبه بنور

الله، فذلك المحل كعين ماء زلال لا تحتاج إلى أن تتكلم معه وتستفيد من معينه زلالَ الصفاء للقلب العاطش إلى فيض الكرم، أو كمحل قوة كهرباء مدفئة أو مبردة لا تحتاج أنت في الاستفادة منه إلى طلب منه فإنّ نور الشمس يُضيء أهلَ العالَمِ طالبا أو هاربا. وإذا توسل به إلى الله سبحانه وتعالى وقال: يا رب ببركات صاحب هذا الضريح الباذل حياته في رضاك ارحمني وسامحني فقد ابتغى إليه الوسيلة، ولم يعمل عملا خارجا

عن إطلاق النصوص، ولم يأت بشيء منهي عنه أبدا. بل طبق الامر بابتغاء الوسيلة في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي، فمن فعل الطاعات: أداء الفرائض والنوافل، ومنه احترام الأنبياء والمرسلين والاولياء والصالحين، واعتبار المنزلة لهم عند رب العالمين. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وإذا علمت ذلك فاعلم أن الوسيلة كل ما يتوسل به إلى الثواب من الله تعالى من الطاعات وقد اتفق عليه المفسرون؛ فلنذكر الطاعات التي يتوسل بها إليه ولا شك أن منها الامتثال للأوامر مطلقا، والاجتناب عن كل ما نهى عنه مطلقا. ومن الطاعات محبة الله ورسوله وخيار أمته من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين في أحكام الدين وسائر العلماء العاملين والصالحين. ومن الطاعة ملازمة الصادقين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وهم الذين إذا رُؤا ذكر الله. ولا شك أن الكينونة معهم كينونة بالمحبة والألفة الروحية سواء عند حضورهم أو غيابهم فإن الصحبة مع المحبة هي التي تنفع المسلم وتقويه على ما يبتغيه من الجهد في الدين لأن تلك الصحبة هي التي تورث الإنسان التخلق بالأخلاق

الحسان. ومن الطاعة توسلك إليه بطلب العلم والتعلم من العلماء العاملين؛ لأن طلب العلم فريضة إن كان واجبا، ومستحب إن كان مندوبا، وكلاهما طاعة. ومن الطاعة التوسل بالصالحين الأصفياء لتزكية النفس عن الرذائل وتحليتها بالفضائل. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ومن المعلوم أن ما توقف عليه الواجب واجب. فإذا لم تتيسر هذه التزكية إلا بصحبة الأصفياء الصادقين وجب على المسلم الصحبة والمجاورة، فإن كان التداوي عن المرض الحسي مستحبا فالتداوي عن المرض النفسي واجب؛ لأن الكبر والعجب والرياء والنفاق وسائر الأمراض لا تدع الإنسان يتوجه إلى ربه توجها مناسبا لرب العالمين.

ومن الطاعة دعاؤك بنفسك لنفسك وللمسلمين وطلب دعائك من غيرك لخيرك وخير المسلمين سواء كان المطلوب منه مساويا أو أدنى أو أعلى من الطالب فكل ذلك قد ثبت في الدين. ومن الطاعة التوسل بجاه الأنبياء والمرسلين. وإذا نظرنا إلى ذلك بعين الإنصاف وجدناه بلا أي مانع ولا أي نهيٍ وارِدٍ. وقد وجدنا الوسيلة في الآية الكريمة مطلقة مجردة عن القيود، وكل مطلق مسكوت عن تقييده الأصل فيه الإباحة.

وإذا نظرنا إلى الحديث الوارد في التوسل بحق نفسه وحق النبيين قبله كما جاء عندما نزل عليه السلام في قبر فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب ثم خرج وقال: ((الله الذي يحي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين)) وإلى ما ورد من توسل الضرير بالرسول صلى الله عليه وسلم والاستشفاع به لرد نور بصره وإجابة طلبه. وغير ذلك مما يطول ذكره هنا.. لم يبق أدنى شبهة في جواز ذلك التوسل بل في استحبابه إقتداء به صلى الله عليه وسلم فيه.

والذي يفرق في جواز ذلك بين التوسل بالنبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وغيره فأجاز التوسل به لا بغيره فمع أنه يرده ما قاله صلى الله عليه وسلم في طلب عفو أم سيدنا علي كرم الله وجهه يجاب عنه بأن التوسل بغير الله تعالى حقيقة واحدة فإذا كان ممكنا في بعض العباد الصالحين أمكن في سائر الصالحين، وإن كانت درجات صلاحهم متفاوتة. ومن فرق بين الحي والميت فقد انحرف عن الصراط المستقيم لأن المتوسل به في الحياة هو الروح الإنساني المدبر لأمر الجسد وتلك الروح باقية في عالم البرزخ وقوتها قوة الشفاعة لا غير، فلا فرق بين حالي الحياة والممات، وإذا لم يرد نهي عن ذلك التوسل فهو باق على إباحته، والأمر موكول إلى النصوص لا إلى المجد والماجد والجمع والواحد؛ فإن الأمر بابتغاء الوسيلة مطلق والعامل بإطلاقه موفق.

فعلى تلك الأسس السليمة وعلى إطلاق الوسيلة في الآية الكريمة نتوسل إلى الله تعالى بأسماء الله الحسنى، وبصفاته العظمى، وبذوات الأنبياء والمرسلين، وبجاههم عند رب العالمين. كما نتوسل يوم القيامة بصاحب المقام المحمود للشفاعة الكبرى في اليوم الموعود. ونتوسل بطلب الدعاء من الصالحين أحياء وأمواتا، أما الأحياء فهم من الأولياء المرغوبين. وأما الأموات فهم من ركب الصديقين، والشهداء المحبوبين، والصالحين المحسوبين. وأقول عند التوسل: السلام عليك أيها العبد الصالح الصادق في عبوديته لربه ادع الله تعالى أن يدفع عني شر الأشرار، ويحفظني من فتنة المحيا والممات، ومن عذاب النار.

فإن قلت: لم لا تدعو أنت بنفسك لنفسك وتطلب الدعاءَ منه؟ قلت: أمرنا بابتغاء الوسيلة وأتوسل بدعاء نفسي وبدعاء أهل الفضيلة. فإن قلت: هو معدود من الأموات ! قلت: روحه الطاهرة باقية تنزل عليه البركات.

فإن قلت: هو ميت والميت غافل ! قلت الغافل هو الذي غفل قلبه في حياته عن ذكر الله لا الذي مات على الطاعة والذكر بأمر الله. فإن قلت: ما ورد التوسل بذلك ! قلنا: لا نرى مانعا منه هنالك. هذا ما أعتقده على ضوء نصوص الكتاب والسنة السنية، وعمل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في مدة أربعة عشر قرنا من الهجرة النبوية صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو، أي جدّوا وابذلوا وسعكم في شأننا وحقنا ولوجهنا خالصا لعلكم تفلحون، لعلكم تفوزون بالفلاح والنجاة عن العذاب في الآخرة.

ومما يحسن علمه أن الله سبحانه كما أطلق الوسيلة ليحتمل طرق الوصول إلى ثوابه تعالى أطلق المجاهدة هنا ليحتمل طرق المجاهدة، ويعم جهاد الأعداء الظاهرة من الكفار المحاربين، والبغاة المعاقبين، والفساق المارقين، والمبتدعة المخربين، والأعداء الباطنة كجهاد الشيطان وأعوانه الشياطين، وجهاد النفس الأمارة بالسوء ومراكب بغيها وعنادها من الرذائل التي تمنع الاتصاف بالفضائل من الأنانية والعجب والكبر والحسد والبغي والأحقاد. وفي الحديث الشريف ((جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم)) ومعلوم أنه كما جهاد الإنسان في حرب الكفار لا يتحقق بدون الأسلحة السليمة، كذلك لا يتحقق جهاد النفس والشيطان بدون الأخلاق القويمة، وتلك الأخلاق منها ما هو وهبي كما أشير إليه في الأثر المشهور: (نعم العبد صهيب لولم يخف الله لم يعصه) أي لسلامة فطرته وزكاء طبعه بالموهبة الربانية. ومنها ما هو كسبي ولا يتحقق ذلك بالتجارب المكررة إلا بصحبة أهل الأنوار كصحبة الأصحاب للرسول صلى الله عليه وسلم وصحبة التابعين للأصحاب، وصحبة تابعي التابعين للتابعين، وهلم... فلا يمكن

كسب القوة للمجاهدة إلا بصحبة الصادقين. ولذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ﴾ وأهل الصدق أهل اطمئنان القلب ولا يحصل اطمئنان القلب إلا بذكر الله. قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (36) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (37)﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾... الآية كلام مستأنف سيق لتأكيد وجوب التقوى وابتغاء الوسيلة إلى الله كي لا يدخل الإنسان في مهالك الكفر والشقاء الأبدي بدون خلاص منه كما أفاده تعالى بقوله الكريم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من أصناف النقود والأموال وذخائرها وكنوزها، ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي ليجعلوه فدية لأنفسهم لاستخلاصها من عذاب يوم القيامة ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (36) يُرِيدُونَ﴾ أي أولئك الكافرون ﴿أَنْ يَخْرُجُوا﴾ بما يفتدون به ﴿مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ لكفرهم السابق منهم في الدنيا. وقد قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي عذاب دائم، لأن الكفر بالله خالق الكائنات جريمة من أقبح الجرائم فيكون جزاؤه جزاء من أشد

الجزاءات، ولأن الكفر عقيدة مستمرة مر الدهور فعذاب صاحبه عذاب مستمر وويل وثبور. فنسأل الله تعالى أن يحفظنا منه برحمته إنه أرحم الراحمين.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (39) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (40)﴾

عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرقت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد قومها أن يفدوها بخمسمائة دينار، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءها، فقطع يدها اليمنى. فقالت: هل لي من توبة يا رسول الله؟ فأنزل الله الآية أخرجه الإمام أحمد. وفي رواية: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها بعد قطع يدها: ((أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتكِ أمك)).

والكلام في الآية الكريمة من وجوه:

الأول: الإعراب وهو أنه يرفع الاسم الواقع هنا في صدر الكلام على أنه مبتدأ وخبره محذوف، أي فيما يتلى عليكم ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ أي حكمهما. ثم يقول: إذا سمعت ذلك فاعلم أن الحكم قطع يده ويدها إذا سرقا. أو على أنه مبتدأ وخبره ما بعد الفاء ودخولها عليه لأن اللام الداخلة على الوصفين موصول بمعنى الذي والتي، ولإفادتهما العموم يشبهان اسم الشرط فصح دخول الفاء في الخبر. ويجوز أن ينصب الاسم على ما ذكره الفراء. وفي اختيار النصب على الرفع في أمثال هذه الآية الشريفة تفصيل ذكره النحاة.

الثاني: إن السرقة أخذ مال الغير خفية من حرز المثل والمأخوذ ربع دينار أو ما يساويه لقوله صلى الله عليه وسلم: ((القطع في ربع دينار)) وفي قطع اليد بها شروط مفصلة في كتب الفقه.

الثالث: إن المراد بالأيدي الأيمان ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه (فاقطعوا أيمانهما) ومن المقرر أن كل جزأين أضيفا إلى الكل لفظا أو تقديرا۔ وكانا مفردين من صاحبهما كالرأس واليمين والظهر جاز فيهما ثلاثة أوجه: الجمع وهو الأفصح، ثم الإفراد، ثم التثنية. ولما كان المراد باليد هنا اليمين جمعت وأضيفت إليهما.

الرابع: إن اليد: وإن كانت اسما لتمام العضو من رءوس الأصابع إلى المنكب، لكن الجمهور على أن المقطع هو الرسغ لأنه صلى الله عليه وسلم أمر بقطع يد السارق من الرسغ.
﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ منصوب على أنه مفعول له وكذا ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي عقوبة منه تعالى ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ آت به على وجه الحكمة: ﴿فَمَنْ تَابَ﴾ أي عن السرقة ﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ أي سرقته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي وأصلح حاله بأن عزم على أن لا يعود إليها، وعَمَلَه بأن رد المسروق أو بدله على تقدير ضياعه إلى صاحبه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما سبق عنه ﴿رَحِيمٌ﴾: لا يعذبه في الآخرة ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كل ذنب إلا الشرك وما ساواه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفاعل مختار لا يخرج من قدرته ممكن من الممكنات. <
<149

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ
قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا
سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ
الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ
تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (41) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ
لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ
عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (42) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ
فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (
43) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَالَّذِينَ
أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ
كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا
تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ (44) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ
بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ
قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45)

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ (47) <150>

عن ابن عباس قال عن البراء بن عازب قال مُرَّ على النبي صلى الله عليه وسلم بيهودي مُحَمَّمٍ مَجلودٍ فدعاهم فقال لهم: ((هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟)) فقالوا: نعم. فدعا رجلا من علمائهم فقال: ((أنشدك باللهِ الذي أنزل التوراة على موسى اهكذا تجدون حد الزاني المحصن في كتابكم؟)) فقال: لا. ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك. نجدُ حدّ الزاني فِي كتابنا الرّجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا زنى الشريف تركناه وإذا زنى الضعيف اقمنا عليه الحد. فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيئ نقيمه على الشريف والوضيع. فاجتمعنا على التحميم والجلد وجعلناهما مكان الرجم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه)) فأمر به فرجم. فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ ويقولون: ائتوا محمدا فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا إلى قوله ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

وعن ابن عباس قال: أنزل الله هذه الآيات في طائفتين من اليهود قهرت إحداهما الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا فَاصْطلحوا على أن كل قتيل تقتله العزيزة من الذليلة فَديته خمسون وسقا، وكل قتيل تقتله الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق ! فكانوا على ذلك حتى قدم رسول الله صلى الله

عليه وسلم فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا فأرسلت العزيزة إلى الذليلة: أن ابعثوا إلينا بمائة وسق فقالت الذليلة: وهل كان ذلك في حيين قط دينهما واحدٌ وبلدهما واحد ونسبتهما واحدة دية بعضهم نصف دية بعضٍ !؟ إنا اعطيناكم هذا ضيما منكم لنا وخوفا وفرقا منكم، فأما إذًا قدم محمد فلا نعطيكم. فكادت الحرب تهيج بينهما ثم ارتضوا على أن جعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما. فأرسلوا إليه ناسا من المنافقين ليختبروا رأيه فأنزل الله هذه الآيات. أخرجه أحمد وغيره. وعن ابن عباس قال: كانت بنو النضير أشرف من بني قريظة. فكان إذا قتل رجل من بني النضير دفعت بنو قريظة لبني النضير دية كاملة، وإذا قتل رجل من بني قريظة دفعت بنو النضير لبني قريظة نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآيات في الفريقين فحملهم رسول الله على الحق فجعل الدية في ذلك سواء رواه ابن جرير. وقال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾.. يقوى أن سبب النزول قضية القصاص والله سبحانه وتعالى أعلم.

المحمّم: هو الذي طُلِّيَ وجهه بالفحم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ الآية خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بصفته الواسطة المعتادة بين الله وبين المكلفين لدعوتهم إلى وجود الباري وتوحيده والتزام الأحكام العلمية والعملية. يعني: يا من شأنه هذا الشأن العظيم ﴿لَا يَحْزُنْكَ﴾ صنع ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي يسرعون في الحركة النفسية برغبة وميل إلى الوقوع في الكفر ﴿مِنَ﴾ الكافرين المنافقين ﴿الَّذِينَ قَالُوا آَمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي حاصل كلامهم وخلاصة مرامهم قولهم بأفواههم آمنا يا محمد ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي ولم توافق قلوبهم ألسنتهم في الإيمان.

وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ معطوف على قوله من الذين آمنوا. فيكون المسارعون إلى الكفر قسمين: الأول المنافقون، والثاني اليهود وبينهما عموم وخصوص من وجه. والحاصل لا تهتم بأعمالهم وبأحوالهم فإنهم قوم خفاف لا وزنَ لهم والرسول في تبليغ رسالته يصادف كثيرا من الأصناف من المؤمنين الصادقين والكافرين المعاندين والكافرين المنافقين وهذه سنّة الله في العالمين.

وقوله ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هم سماعون للكذب يعني قابلون وآخذون له لاسيما إذا تلقوه من جانب الأحبار المفترين. وكذلك ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي وهم سماعون لقوم آخرين غير الأحبار الذين حضروا مجلسك. وقوله ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ صفة أولى للقوم. أي لم يأتوا إليك لحد الآن ولم يحضروا مجلسك تكبرا وعنادا. وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ صفة ثانية للقوم. أي يميلون الكَلِمَ عن المعاني التي وضعت هي لها بالتأويلات الفاسدة. أو يحرِّفون بعضَ حروف الكلمة إلى غير محلها بقلب المكان لأجل التشويه والتشويش أو يبعدونها عن مواضع التلفظ وهي الألسنة. أي لا ينطقون بها بل يهملونها. وقوله ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ صفة ثالثة للقوم، أي يقولون لأتباعهم السماعين لهم: إن أوتيتم من جانب محمد مثل ﴿هَذَا﴾ الكلام الذي نحن نقوله لكم ﴿فَخُذُوهُ﴾ واقبلوه، ﴿وَإِنْ﴾ أوتيتم شيئا يخالف ما نَقُولُه لكم فلا تقبلوه، واحذروا منه وإياكم وإياه. ومعلوم أن ما يُؤْتَوْنَ من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم نقيض أو ضد لما يؤتون من جانب أولئك الفاسدين، فإنهم يدّعون تأبيدَ دين موسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يقول: أنا رسولُ الله وخاتمُ النبيين وكتابي آخر الكتب، وشريعتي آخر الشرائع، أصدق برسالتي ورسالة جميع الرسل، وبرهاني

قرآن أنزله الله عليّ فرقانا بين الحق والباطل، والعامل والعاطل. فكيف هذان يلتقيان؟ ثم أخذ الباري يُسَلّي قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم على معارضة أولئك الفاسدين المعاندين ويقول له ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ ابتلاءه وعذابه وهلاكه في الدنيا أو في الآخرة ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ﴾ فلن تستطيع له ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ قليلا أو كثيرا في دفع فتنته ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من رجس الكفر والضلالة لأنهم اختاروا أن يبقوا على العناد مع صاحب الرسالة ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ من فضيحتهم وهتك سترهم بإظهار نفاقهم بين الناس، وازدياد محنتهم بازدياد منحته للمسلمين ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعلم مداه إلا الله العليم. وسرُّ استحقاقهم لذلك أنهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ ومحبون له وراغبون في قبوله و﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي للحرام الذي يوجب استئصال أهله من ساحة رحمة الله وفضله ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾ متخاصمين ومتحاكمين إليك فيما وقع بينهم من المخاصمات ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾ بما أراك الله تعالى ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ غير مبالٍ بهم غير ناظر إلى مضرتهم ومنفعتهم ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وقصدوا إضرارك ﴿فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ من الضرر ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ يعني بشريعتك التي كلها عدل وقسط ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين في الأحكام المهتمين بانتشار العدالة والراحة بين طبقات الأنام.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ أي يجعلونك حكما مرضيا مع أنهم لا يؤمنون بك وبشريعتك ﴿و﴾ الحال أن ﴿عِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ﴾ المنزلة من الله و﴿فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ تعالى وهم يدعون الإيمان بها مع أنه لا ينقادون لحكمها ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؟ يعني ثم يُعرضون عن حكمك الموافق للحق المنصوص عليه في كتابهم ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بكتابهم فضلا عن أن يؤمنوا بك وبحكمك. والحاصل أنهم كافرون حتى بكتابهم ولا يصدقون في تحكيمك وحكمك بالعدل بينهم. فقد خسروا الأول والآخر ذلك الخسران المبين.

ثم أتى مستأنفا بكلام سيق لتقرير فظاعة أحوالهم وأنهم براء من الحق وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى﴾ أي فيها آيات وإصحاح تسبب في هداية المهتدين، ونور وإيضاح للأحكام المغلقة الموجودة فيها. أو أنها نور كاشف للظلمات وليس فيها ظلمة تحتاج إلى الكشف ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ أي كانت يحكم بها النبيون الذين أسلموا دينهم لله ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي لبيان الحقائق وفصل الخصومات لإفادة الذين انتسبوا إلى دين اليهود ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي وكان يحكم بها عبادهم الزاهدون السالكون مسالك الحق، والأحبار من علمائهم الأمناء المتبعين طريقة أنبيائهم، وذلك ﴿بِـ﴾ سبب ﴿مَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ وأمانتهم في العمل مما جعلوا أمناء حافظين له ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ﴾ أي على ذلك الكتاب وهو التوراة ﴿شُهَدَاءَ﴾ رقباء حاضرين عليه حامين له من تعرض المحرفين، وقلنا لهم على ألسنة رسلهم ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ ولا تغيروا حكم الكتاب خوفا منهم ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ في التمرد عن أمري ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ أي ولا تبدلوا آياتي أي العمل بها وتطبيقها في الحكم بين الناس ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الهدايا والرشايا ومتاع الدنيا الدنية ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ ولم يصدق به وأهمل حكمه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) وَكَتَبْنَا﴾ عطف على أنزلنا أي إنا كتبنا في التوراة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على الذين هادوا ﴿فِيهَا﴾ أي في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ يعني أن نفس القاتل مقتصة بالنفس ومقتولة بها ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ أي أن العين مأخوذة بالعين، والأنف مأخوذة بالأنف وهكذا. ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي والجروح ذات قصاص. وهذا الحكم فيما إذا كانت بحيث تعرف المساواة، وإلا فالحكومة حتى لا يقع غدر في الجزاء ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي بالقصاص أي فمن عفا عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ أي فالتصدق به كفارة لخطيئاته. عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم: ((من تصدق بدم فما دونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت.)) ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي الكافرون اذا كان عدم حكمه ناشئا عن عدم الايمان به، او المتعدون على حقوق الغير إذا كان عدم الحكم من البغي فقط لا من عدم الإيمان. ولما بين بعض أحكام التوراة شرع في بيان بعض أحكام الإنجيل فقال ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ يعني جئنا بعيسى ابن مريم على آثارهم قافياً لهم حالكونه ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ وهو حال مؤكدة لأن التصديق بالحقائق من لازم الرسول عليه السلام. ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ الكتاب المسمى ب ﴿الْإِنْجِيلَ﴾ بكسر الهمزة، ﴿فِيهِ هُدًى﴾ للمهتدين ﴿وَنُورٌ﴾ للعابدين. ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ هذا الإنجيل ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي للساعين للاتصاف بالتقوى ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ من الأمور التي تشهد برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبما تتفق مع شريعته، فإن الرسل متفقون في الاعتقاديات وفي بعض العمليات فقط. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. الخارجون عن الإيمان على تقدير، وعن حكمه على تقدير آخر.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48)﴾

قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني كما أنزلنا الكتب على الرسل السابقين وأنزلنا التوراة على موسى والإنجيل على عيسى كذلك أنزلنا إليك وأنت خاتم الرسل والنبيين الكتاب الكامل الحقيق بأن يسمى كتابا، المعجز لفظا ومعنى، الرصين حرفا ومبنىً، إنزالا متلبسا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق ﴿مُصَدِّقًا﴾ ذلك الكتاب ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا﴾ ورقيبا ومحافظا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على الكتاب السماوي يشهد على ما سلم بالصحة وعلى ما حرف بالتحريف ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إليك ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغة عن ﴿الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي جعلنا لكل رسول منكم شريعة ومنهاجا، فما دام الدين والشريعة باقية لأي واحد منكم وجب العمل بها، وما دام نسخ وجب العمل بالناسخ ولا يجوز لك أيها الحبيب الميل إلى ما هم عليه ويجب عليك الحكم بما نزل عليك ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ من آدم إلى الخاتم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على شريعة واحدة ﴿وَلَكِنْ﴾ ه لم يشأ ذلك رعاية لحكمته في تطور الأمم وتجدد الشرائع ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ﴾ ليعاملكم معاملة المختبر فيما آتاكم من الشرائع هل تستقيمون على الحق بحسب تجدد الشرائع أو تبقون على ما اردتم حسب اقتضاء الطبائع؟ ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فسارعوا إلى ما هو خير لكم من الشريعة الجديدة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50) ﴾

عن ابن عباس قال: اجتمع قوم من أحبار اليهود منهم كعب بن أسد، وعبدالله بن صوريا، وشاس، وقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد صلى الله عليه وسلم لعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر. فجاؤه، فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وسادتهم وأنا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قوم خصومة فنحاكم إليك فاقض لنا عليهم حتى نؤمن بك ونصدقك ! فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وأنزل الله فيهم الآيتين. رواه ابن إسحاق والبيهقي وابن أبي حاتم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾ عطف على الكتاب، يعني وأنزلنا إليك والأمر بالحكم بينهم ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ لا بما تهواه أنفسهم الفتانة ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ في أي حكم من الأحكام ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ مما يخالف أهواءهم فإن الحق أحق أن يتبع ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن حكمك بما أنزل اليك وأرادوا غيره ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعني فاعلم أنهم كافرون ولهم ذنوب كثيرة عدا كفرهم وإن الإعراض عن حكمك ذنب آخر أضافوه إليها. ولا شك أن الله تعالى يعذبهم عليه كما يعذبهم على سائر الذنوب وإن ذنب التولى بعض منها.

ويظهر من هذه الآية أن الكفار كما يعذبون على نفس الكفر عذاب الخلود كذلك يشتد عذابهم على ذنوبهم الاخرى ودرجات شدة عذابهم الإضافية بقدر درجات ذنوبهم فيعلم أن الكافر المفسد بين الناس عذابه أشد من الكافر السالم ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أي كثير من الناس الكافرين متجاوزون عن حدود الكفر المجرد ويضيفون إلى اعتقادهم الفاسد

أعمالا قبيحة يعذبون عليها علاوة على عذاب أصل الكفر أعاذنا الله منها. ثم أنزل الله تعالى استنكارا لما أرادوه من حكم الرسول صلى الله عليه وسلم بما يريدونه وقال:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي أيعرضون عن قبول حكمك بما أنزل الله ويطلبون حكم الجاهلية اللادينية، وهو الحكم بالهوى إن هذا لشيئ عجيب! ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟ أي ليس أحد أحسن وأعدل من الله حكما. وهذا الامر ثابت عند قوم يوقنون ويعلمون الحق بيقين. فمن أراد حكم الجاهلية الجهلاء لا شك أنه جاهل بل من أجهل الجاهلين لأن الباطل زاهق عند مجيئ الحق.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (52) وَيَقُولُ الَّذِينَ آَمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (53)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾: خطاب يعم حكمه جميع المؤمنين من المخلصين وغيرهم فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى﴾ أي لا يتخذ أحد منكم أحدا منهم وليا، فلا تصافوهم مصافاة الأحباب ولا تعتمدوا عليهم، فإن اليهود والنصارى ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني إن اليهود متحابون فيما بينهم، والنصارى متحابون كذلك، وكل من

الفريقين يعادونكم روحا ولا فائدة في موالاتهم إلا الخسران.
﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ إذا كان تولّيهِ لهم من حيث أنهم يهود أو نصارى فيكون كافرا واقعيا، ولا يبقى له علاقة بالإسلام، وإذا كان توليه له لاشتراكه معه في تجارة أو صناعة فلا يحكم بكفره، ولكنه يخاف من اختلاطه بهم أن يسري إليه فساد الاعتقاد ويقال في حقه: إنه منهم. وقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ تعليل آخر للنهي عن اتخاذهم أولياء يعني إن الله تعالى لا يهدي أولئك القوم الظالمين أنفسهم بالاستمرار على اليهودية والنصرانية إلى خير وفائدة حتى يستفيد الموالي لهم شيئا من المنافع. وإنما هم واغلون في الضلال والموالي لهم يخاف عليه من ذلك.

ثم يستعرض الباري تعالى أحوال المنافقين الذين يوالون الكفار وأقوالهم في تبرير موقفهم من موالاتهم بقوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من النفاق كعبد الله بن أبيّ وأشباهه

﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ﴾ في الاعتذار عن موالاتهم لهم: ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي بلاء ومصيبة واردة علينا كالجدب والقحط أو نخشى أن تدور علينا دائرة من دوائر الدهر فينقلب الأمر للكفار وتكون الدولة لهم على المسلمين فنحتاج إليهم إذ ذاك ونحن بموالاتنا اليوم لهم نستعد للاستفادة منهم في ذلك الوقت. وبعد ذلك رد الله على المعتذرين وقطع خيالاتهم الباطلة وبشر المؤمنين بقوله الكريم ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ أي بفتح مكة، أو فتح سائر بلاد الكفار فتكون الغلبة للمسلمين، ولا تبقى لهم حاجة إلى أولئك الكفار، وقد حقق الله تعالى ما بشر المسلمين به ﴿أَوْ﴾ أن يأتي ب ﴿أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ من قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير عن الجزيرة ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ أي أولئك المنافقون المعتذرون ﴿عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الكفر أو التردد في نصر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿نَادِمِينَ﴾ وقد جاء الباري بالأمر من عنده والنصر

لجنده فاندحر المنافقون وأجلي اليهود. وقوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ إما كلام مستأنف مسوق لبيان مقالة المؤمنين عند مجيء النصر والأمر من عند الله تعالى أو منصوب بالعطف على قوله ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ أي أن يقول المؤمنون بعضهم لبعض: ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ المنافقون ﴿الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وأقوى وأغلظ أحلافهم ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أيها المؤمنون. وظهر سوء حالهم وفساد نيتهم مع الرسول وأصحابه حتى دحرهم الله تعالى. أو يقول المؤمنون لليهود: أهؤلاء المنافقون الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم أيها اليهود فما بالهم ما أفادوكم شيئا عند إجلائكم من الديار؟ وقولهم هذا بعضهم لبعض منهم أو لليهود الذين أخرجوا من الديار إما قد وقع إن كان بيان الباري سبحانه وإظهاره ذلك على حسب علمه بالوقوع، أو مفروض ومقدر على معنى أنه مما يتصور ويفرض أن يقول المؤمنون ذلك الكلام بعضهم لبعض، أو بعضهم لليهود كما ذكرنا آنفا. وقوله ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ إما من مقالة المؤمنين، أو مسوقة من جهته تعالى لبيان مآل ما صنعه المنافقون وهذا أظهر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56)﴾

عن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تشبث بأمرهم عبدُ الله بن أبي بن سَلُول وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم. وكان أحد بني عوف بن الخزرج وله من حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أبيّ، فخالفهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ من حلف الكفار وولايتهم، وقال: يا رسول الله أبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين. قال عبادة فَفِيَّ وفي عبداللهِ بن أبيّ نزلت الآيات من ﴿يَا أَيُّهَا﴾ إلى ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ رواه ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي.

قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ شروع في بيان حال المرتدين على الإطلاق بَعْدَ نهيه تعالى عن موالاة اليهود والنصارى، وبين أنّ موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين.

وفي روح المعاني: وهذا من الكائنات التي أخبر عنها القرآن قبل وقوعها. فقد روي أنه ارتد عن الإسلام إحدى عشرة فرقة: ثلاث في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

الاولى: بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار، وهو الاسود العنسي، كان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده فأخرج منها عُمّالَ النبي صلى الله عليه وسلم. فكتب صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن. فأهلكه الله تعالى على يدي فيروز الديلمي، بيّته فقَتَلَهُ وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ليلةَ قُتِلَ، فسُرَّ به المسلمون وقُبض عليه الصلاة والسلام من الغد وأتى خبره في شهر ربيع الاول.

الثانية: بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب بن حبيب تنبأ وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلام عليك. أما بعد: فإني قد اُشْرِكْتُ في الأمر معك، وإن لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض. ولكن قريشا قوم يعتدون. فقَدِمَ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم رَسولان بذلك. فحين قرأ صلى الله عليه وسلم كتابه قال لهما: ((فما تقولان أنتُما؟)) قالا: نقول كما قال. فقال صلى الله عليه وسلم: ((أما والله لولا اَنَّ الرُّسلَ لا تُقْتَل لضربت أعناقكما)) ثم كتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم

((من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)).

وكان ذلك في سنة عشر من الهجرة، فحاربه أبو بكر رضي الله عنه بجنود المسلمين وقُتِلَ على يَدَي وحشي قاتِل حمزة رضي الله تعالى عنهما وكان يقول: قتلت في جاهليتي خير الناس وفي إسلامي شر الناس. وقيل: اشترك في قتله هو وعبد الله بن زيد الانصاري طعنه وحشي وضربه بسيفه عبدالله. وهو القائل: في أبيات.

يسائلني الناسُ عن قتله فقلت ضربتُ وهذا طَعَنْ

الثالثة: بنو أسد قوم طليحة بن خويلد، تنبأ فبعث إليه أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد فانهزم بعد القتال إلى الشام، فَاَسْلَمَ وحَسُن إسلامه.

وارتدت سبع في عهد أبي بكر رضي الله عنه (فزارة) قوم عيينة بن حصن، و(غطفان) قوم قرة بن سلمة القشيري، و(بنو سليم) قوم الفجاءة ابن عبد ياليل، و(بنو يربوع) قوم مالك بن نُويرة، و(بعض بني تميم) قوم سجاح بنت المنذر الكاهنة تنبأت وزوجت نفسَها من مُسَيْلَمة في قصة شهيرة. وصح أنها أسلمت بعدُ وحَسُنَ اِسلامُها. و(كنده) قوم الأشعث بن قيس. وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد. وكفى الله تعالى أمرَهم على يدي أبي بكر رضي الله عنه. وفرقة واحدة في عهد عمر رضي الله عنه وهم غسان قوم جبلة بن الأَيْهم؛ تنصر ولحق بالشام ومات على رِدّته. وقيل انه اَسلَم.

ويروى أن عمر رضي الله تعالى عنه كتب إلى أحبار الشام لما لحق بهم كتابا فيه: إن جبلة وَرَدَ إليّ في سراة قومه فأسلم فأكرمته، ثم سار إلى مكة فطاف فوطأ إزاره رجل من بني فزارة، فَلَطَمهُ جبلةُ فهَشَمَ اَنْفَه وكَسَرَ ثناياه. وفي رواية: قلع عينه فاستعدى الفزاري على جبلة إلي، فحكمت إما بالعفو وإما بالقصاص. فقال: اتقتص مني وأنا ملِك وهو سَوَقَة؟ فقلتُ شملك وإياه الإسلام فما تفضله إلا بالعافية. فسأل جبلة التأخير إلى الغد. فلما كان من الليل ركب مع بني عمه ولحق بالشام مرتدا. وروي أنه ندم على ما فعله وأنشد:

تنصرت بعد الحق عاراً للطمة	ولم يك فيها، لو صبرت لها
فأدركني منها لجاج حمية	فَبعت لها العين الصحيحة
فياليت أمي لم تلدني، وليتني	صبرت على القول الذي

واعترض القول بأنها من الكائنات التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها بأن مَنْ شرطية والشرط لا يقتضي الوقوع إذ أصله أن يستعمل في الأمور

المفروضة ! وأجيب: بأن الشرط قد يستعمل في الأمور المحققة تنبيها على أنها لا يليق وقوعها بل كان ينبغي أن يدرج في الفرضيات وهو كثير. وقد علم من وقوع ذلك بعد هذه الآية أن المراد هذا إنتهى. ومعنى الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ فإنما يعود الوبال عليه بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولا ضرر فيه على الإسلام والمسلمين، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ﴾ تعالى مكانهم بعد إهلاكهم ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ الله تعالى محبة لائقة بذاته تعالى ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ بميلهم إلى إطاعته في الأوامر والنواهي بإخلاص ونشاط وذوق واشتياق تام وعلامة تحقق تلك المحبة أمور ظاهرة للعيان، وأمور خفية إلا على الأعيان، أما الأمور الظاهرة فهي موافقة أعمالهم وآدابهم وأخلاقهم لكتاب الله وسنة رسوله بلا إفراط ولا تفريط وإذا نظر الإنسان المنصف إلى من يتصف بتلك الأعمال والآداب علم أنهم الخاشعون في الأعمال المتواضعون المنكسرون إزاء المسلمين ضعافهم وأقويائهم الهادؤن في الكلام والإرشاد الباذلون أموالهم في سبيل منفعة الإسلام والمسلمين، التاركون لسفاسف المطامع الدنية، المكتفون بما قسم الله تعالى. وأما الأمور الخفية التي تظهر للأعيان فهي أن مجالسهم مجالس الدعوة إلى الله، وكلامهم فيه جذب، وسيماهم فيها نور ورحمة، ومن رافقهم مدة من الزمان نال بغيته من التمكن في الإيمان وسكينة القلب والاطمئنان. فهم بالحقيقة يشبهون المرايا في صدورهم سطور من الأدب والوقار. حشرنا الله معهم يوم القرار آمين.

ومن علاماتهم الظاهرة والباطنة ما أفاده الباري جل شأنه بقوله ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فإن من مظاهر الفقرة الاولى لطفهم ورحمتهم بالمسلمين لاسيما الضعفاء والمساكين، ومن خفاياه خدماتهم بمحبة كاملة، وإسعافهم للمحتاجين إلى المال أو إلى الإرشاد أو إلى الإسعاف،

ورغبتهم في استخلاصهم عن المضايق مطلقا. ومن مظاهر الفقرة الثانية قوة بأسهم وجهادهم وتغلبهم على الكافرين. ومن خفاياه التي تجلو على أهل المعرفة معنوياتهم وقوتهم الروحية ووقارهم ومهابتهم المعنوية على أهل البغي والعناد، فهم لا يهتمون بهم ولا يميلون إليهم، ويبعدون الناس عن موالاتهم، ويحبونهم في الله ورسوله وشريعته ودينه ﴿وَ﴾ إنهم ﴿لَا يَخَافُونَ﴾ في تطبيق ما هم عليه ﴿لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ في ما يأتون من الجهاد والإرشاد والتصلب في بيان الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقدر المستطاع ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور والصفات المفهومة منه ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ أي لطفه وإحسانه ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، والله ذو الفضل العظيم يختص برحمته من يشاء، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الرحمة ﴿عَلِيمٌ﴾ بمواقع الكرم والنعمة من هذه الأمة.

وإنما قلت وعلامة محبتهم وتحقق تلك المحبة؛ لأن المحبة أمر نفسي معنوي لا يعلم مداها ودرجاتها إلا الله، وليست هذه الاعمال الظاهرة أو الاحوال الباطنة فإنها تحصل وتنشأ منها، وذلك ظاهر لأهل البصيرة، ويدل قوله صلى الله عليه وسلم في جواب الاعرابي: ((المرء مع من أحب)) مع أنه أفاد بصراحة أن ليست عنده الاعمال والمجاهدات والطاعات إلا أنه يحب الله ورسوله.

والمراد بهؤلاء القوم في المشهور أهل اليمن، فقد أخرج ابن أبي شيبة في مسنده والطبراني والحاكم وصححه من حديث عياض بن عمر الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية أشار إلى أبي موسى الأشعري وهو من صميم اليمن وقال: ((هم قوم هذا)). وعن الحسن وقتادة والضحاك انهم ابو بكر واصحابه رضي الله عنهم الذين قاتلوا أهل الردة. وعن السدي انهم الأنصار. وقيل هم الذين جاهدوا يوم القادسية: الفان من النخع، وخمسة آلاف من كندة

وبجيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس أي اخلاطهم، وهذا القول أشبه بالقبول لأن تصدير الفعل المضارع بسوف يدل على أن القوم لم يكونوا حاضرين في ذلك الوقت.

ومما يقرب من اعتقادي أن ذلك القوم ليسوا إلا القوم القائمين بأمر الدين ونصرته عند تعارض الأقوام وتبلبل الأفكار واضطراب المسلمين وحاجتهم إلى التعاون فيشمل ذلك جيش ابي بكر رضي الله عنه في حروب الردة، وجيش عمر في فتح البلاد الشرقية والغربية والشمالية، والأئمة الاعتقادية المدافعين عن العقائد والدافعين لأهل الاعتقادات الزائفة، والمحدثين المحقين المحققين لأسانيد الأحاديث الشريفة، والأئمة المجتهدين المدونين لأحكام الإسلام، والمجاهدين في إعلاء كلمة الحق والدين كصلاح الدين الأيوبي الذي رد جيوش الصليبيين إلى ديارهم، والماحي لآثارهم، وكل من سعى في تثبيت العقيدة الإسلامية في قلوب المسلمين عند ظهور البدع والأهواء. وهذا الأمر وهذا الإتيان يستمر إلى يوم القيامة.
ومعنى الآية حينئذ: يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فإن الله غني عنه، وإنه يأتي بقوم في كل زمان بحسب الحكمة والمصلحة في ترويج الإسلام يحبهم الله ويحبونه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا﴾ مربوط بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ ومعناه حينئذ لا تتخذوا أولئك الكافرين أولياء فليسوا أولياء لكم بل هم بعضهم أولياء بعض، وإنما وليكم الله الذي يتولى أموركم والرسول الذي بعثه الله تعالى رحمة لكم ويعز عليه هلاككم، والذين آمنوا من المتحدين معكم في مبدإ الإيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والمتعاونين معكم في الجهاد والمتوافقين لكم في العبادة لله الواحد
﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾

بنشاط وخشوع ويؤتون الزكاة للمعتر والقَنوع. وقوله ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ حال من فاعل الفعلين أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون متواضعون لله في صلاتهم وزكاتهم ولا يريدون إلا وجهه تعالى ورضاه ولا ينظرون إلى أحد سواه. وقيل: هو حال مخصوصة بقوله تعالى ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة حرصا على الإحسان ومسارعة اليه، وأنها نزلت في علي رضي الله عنه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطرح له خاتمه. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾: أي ومن يتول من ذكر فهو من الغالبين على نفسه والشيطان وأعوانه، لأنه بتوليته لله ولرسوله وللمؤمنين يدخل في حزب الله المستعد للجهاد والكفاح في سبيله، وحزب الله هم الغالبون. ينتج من الشكل الأول البديهي الإنتاج أن من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون.

واستدل الإمامية بهذه الآية على إمامة علي كرم الله وجهه ووجه الاستدلال: أنهم يدعون الإجماع على أنها نزلت فيه، وكلمة إنما تفيد الحصر، ولفظ الولي بمعنى المتولي للأمور والمستحق للتصرف فيها، وظاهر أن المراد التصرف العام المساوي للإمامة بقرينة ضم ولايته بولاية الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فثبتت إمامته وانتفت إمامة غيره، وإلا لبطل الحصر، ولا إشكال في التعبير عن الواحد بالجمع فقد جاء في غير ما موضع من الكلام البليغ.

وقد أجيب عنه بوجوه:

الاول: منع الإجماع على نزولها فيه كرم الله وجهه، وكيف وقد اختلف علماء التفسير في ذلك؟ فروى أبو بكر النقاش صاحب التفسير المشهور عن محمد الباقر رضي الله عنه أنها نزلت في المهاجرين

والأنصار. وقال قائل: نحن سمعنا أنها نزلت في علي كرم الله وجهه. فقال: هو منهم يعني أنه كرم الله تعالى وجهه داخل في المهاجرين والأنصار وواحد منهم. وهذه الرواية أوفق بصيغ الجمع في الآية. فإن قالوا الضرورة تدعو إلى القول بنزولها فيه كرم الله وجهه إذ التصدق على السائل في حال الركوع لم يقع من أحد غير الأمير كرم الله وجهه. قلنا: ليست الآية نصا في كون التصدق واقعا في حال ركوع الصلاة لجواز أن يكون الركوع بمعنى التخشع والتذلل لا بالمعنى المعروف في الصلاة. وقد استعمل في معنى الخشوع في القرآن الكريم كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ إذ ليس في صلاة من قبلنا من أهل الشرائع ركوع واحد هو أحد الأركان بالاجماع. وكذا في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ وليس حمل الركوع في الآية على غير معناه الشرعي بأبعد من حمل الزكاة المقرونة بالصلاة على مثل ذلك التصدق وهو لازم على مدعى الإمامية قطعا.

الثاني: أنا لا نسلم أن المراد بالولي المتولي للأمور المتصرف فيها تصرفا عاما بل المراد بها الناصر لأن الكلام في تقوية قلوب المؤمنين وإزالة الخوف عنها من المرتدين.

الثالث: أنه لو كان المراد بالولي المتصرف للامور والمالك لها لم ينطبق إلا على الله سبحانه وتعالى، ولو كان المراد به المبلغ للاحكام لم يجر إلا على الرسول بالذات.

الرابع: أنه لو كان المراد بالولي ما ذكروه لكانت الآية نصا في نفي الإمامة عن السبطين ومن بعدهما من الأئمة الذين اعتبروهم أئمة للمسلمين.

الخامس: أنه وإن كان استعمال صيغة الجمع جائزا للواحد مجازا لكن في استعمال الصيغ الجمعية المتتالية في شخص واحد بُعدٌ غير مناسب لبلاغة القرآن الكريم.

السادس: أن الولاية بمعنى الإمامة إنما تكون بعد عهد النبوة والرسالة والولاية المتأخرة عن عهد الرسالة غير مشروطة بالاتصال بعهد الرسول، وإذا لم تتصل بعهده فلا يوجد مسلم يمنع أن تكون الولاية بهذا النمط ثابتة للإمام كرم الله وجهه.

السابع: أنه لو سلم جميع ما ادعوه لكن لا نسلم أن مورد النزول يخصص العام بنفسه، فلتكن الولاية ثابتة للإمام كرم الله وجهه ولغيره من سائر الخلفاء، والتقدم والتأخر لا يمنعان تحققها.

الثامن: أنه لو سلم ذلك كان الواجب على الإمام أن يجهر بدعوى الولاية بذلك المعنى حتى يبرأ من واجب أمانة الله ورسوله، واستمرار الحذر نحو قريب من ست وعشرين سنة لا يناسب شهامة ذلك الاسد الغيور، ولا غيره من المسلمين الكرام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (58)﴾

عن ابن عباس قال كان رفاعة بن زيد ابن التابوت، وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافَقا، وكان رجال مِن المسلمين يُوادّونهما

فأنزل الله الآيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ إلى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾. رواه ابن حبان وابن إسحاق. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ إذى نادى مُنادِي الرسول وصلى المسلمون فركعوا وسجدوا ضحك اليهود منهم واستهزأوا بهم فنزلت الآية رواه البيهقي في الدلائل.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ خطاب للمؤمنين وتحذير آخر لهم عن الاعتماد على الكفار وموالاتهم في قالب التعليل على النهي بصفات فاسدة فيهم توجب الاحتراز عنهم يعني ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بالله حق الإيمان ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ أي اتخذوه موضع سُخرية ولعب، أي مما يستخف به ولا يهتم به ولا يقدر شأنه. ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ من غيرهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أصدقاء واحبابا. فإن كل مؤمن يجب عليه رعاية دينه ومقدساته، وإذا صادف أناساً ناسين لحقوق دين الله ويسخرون ويلعبون به وبأهله يجب الابتعاد عنهم والنظر اليهم كأعداء مناوئين له فكيف يتخذونهم أولياء يوثق بهم ويعتمد عليهم في الأمور؟ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في رعاية ذلك النهي، أو اتقوا الله في مباشرة المنهي عنه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حقا، فإن الإيمان داع إلى محبة الدين وأهله ومتاركة الكفر وأهله. ثم بين الله سبحانه وتعالى بعضا من سفاهة أولئك الناس الكافرين المستهزئين وقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي أذن المؤذن منكم ودعا المسلمين إلى الصلاة ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ أي الصلاة أو المنادة ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ و﴿ذَلِكَ﴾ الإتخاذ بسبب ﴿أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الحقائق؛ إذ لو كانوا يعقلونها لعلموا أن الدين حق، وأن أداء أحكامه واجب، وأن النداء لحضور الشعارات الإسلامية

كالجماعة والجمعة وغيرهما من المهمات فما كانوا يسخرون منها. روي عن السدي قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي أشهد أن محمدا رسول الله قال: حرق الكاذب ! فدخل خادمه بيته ذات ليلةٍ بنار وهو نائم وأهله نيام فسقطت شرارة فأحرقت البيت وأحرق هو وأهله. والكلام سوق لبيان استهزائهم بحكم خاص من أحكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على الإطلاق إظهاراً لكمال شقاوتهم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (59) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (60) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آَمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (61)﴾

عن ابن عباس قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل. فقال: أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمَنَ به. فأنزل الله الآية رواه ابن إسحاق وابن حبان

قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ توجيه الأمر إلى حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم يعني يا حبيبي قل لأولئك الناس الفاسدين المعاندين للحق يا أهل الكتاب النازل من الله الذي وجب على من يؤمن به رعاية الأدب مع الدين وشعائره ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ﴾ اي تنكرون وتعيبون ﴿مِنَّا﴾ شيئا ﴿إِلَّا أَنْ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن المجيد ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل إنزال القرآن كالتوراة والإنجيل. وقوله ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوف على قوله ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ يعني هل تعيبون وتنكرون منا إلا هذه الحقيقة الواضحة وهي إيماننا بالله وبما أنزل إلينا من القرآن وبما أنزل من قبل على موسى وعيسى وإيماننا بأن أكثركم فاسقون خارجون عن آداب المؤمنين.

قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ الخطابُ لأهل الكتاب لأن المقصود بيان وجبة أخرى من ذواتهم المتصفين بأفسد الأحوال والصفات. والمعنى قل: يا حبيبي لهؤلاء المارقين من أهل الكتاب: هل أنبئكم ﴿بِــ﴾ جمع ﴿شَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ الجمع المذكورين سابقا من حيث المثوبة والجزاء ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعالى وهم ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ وطرده من ساحة رحمته ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قردة وهم شباب أصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم شيوخهم. وقوله ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عطف على صلة مَن، وتقديره: ومَن عَبد الطاغوت، والمراد به الشيطان لأن المغضوبين منهم الممسوخ ومنهم الباقي لكن على الكفر والطغيان وعبادة الشيطان. ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الذميمة ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ من القوم المتأخر منهم ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي أكثر ضلالاً عن طريق الحق المستوي وهو دين الإسلام ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آَمَنَّا﴾ نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم ويظهرون الإيمان به

نفاقا ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي بالكفر يعني كان الكفر ملازمهم وقرينهم عند الدخول والخروج ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ في صدورهم من الشرور وفيه وعيد شديد.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (62) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (63)﴾

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ في موضع الحال من كثيراً، أو مفعول ثان لترى أي وتعلم أن كثيرا من أهل الكتاب يبادرون إلى التقوّل والافتراء والعدوان مع الرسول وأصحابه ﴿وَ﴾ يبادرون في ﴿أَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي الحرام. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾ من علماء اليهود الذين يدعون الاختصاص بالله والاجتهاد في الطاعات ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ أي علماؤهم الممتازون بكثرة العلم والفضل ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ في شأن الرسول ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ مع إطلاعهم على أحوالهم ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي اليهود الآثمون الكاذبون والآكلون للسحت، أو علماؤهم الربانيون وأحبارهم الأفاضل في تحسينهم سيئات أعمال أولئك الفاسدين.

وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن أولئك الربانيين شيطانيون وأولئك الأحبار من حملة الآسفار. ولو كان عندهم حقيقة الإيمان ورعاية العهود والأيمان لآمنوا قبل الناس ثم أمروا سائر الأفراد بالتوجه إلى الله والإيمان به وبرسول الله، وما كانت تمنعهم الهدايا والرشايا وسائر الوجوه الفاسدة عن إرشاد الناس إلى الإيمان بسيد المرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (64)﴾

عن ابن عباس قال: قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس: إن ربك بخيل لا ينفق ويده مقبوضة عنا في العطاء ! فأنزل الله الآية. وقيل: نزلت في فنحاص رئيس يهود بني قينقاع رواه إبن إسحاق، والطبراني.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ القول فيها قول شخص معين، ولكنه لما رضي الباقون به فكأنه قول الجميع. وقال: قالت اليهود يعني أن اليهود الخاسرين المتجاسرين تجاوزوا على منع الباري تعالى لبعض الأرزاق عن بعض منهم بكلام لا يناسب صدوره إلا من اللئام، وقالوا يد الله مغلولة ممنوعة عن الجود والسماح. فدعا الله عليهم بقوله ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي خلق الله في قلوبهم الفقر والشح حتى لا يخرج من أيديهم عطاء ولو للأقارب، أو غُلَّت أيديهم في جهنم وقيدت وألقيت في جهنم للتعذيب، ﴿وَلُعِنُوا﴾ وطردوا من رحمته ﴿بِمَا قَالُوا﴾ بشؤم تلك الجملة القبيحة ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي كلا ليس الشأن كما زعموا بل يداه مبسوطتان. أي يدا إنعاماته المتتالية في الدنيا والآخرة، أو في السماوات والأرض، أو لإفاضة النعم المادية والمعنوية ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، ولكن ماذا نقول لقوم لا قائمة لهم في سجل السعداء، وكلما أنزلنا آية لإرشادهم إلى الخير جعلوها

وسيلة لابتعادهم عنه واقترابهم من الشر ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ وهم علماؤهم ورؤساؤهم ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الموصول فاعل يزيد، وكثيرا مفعوله الأول، وقوله ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ مفعوله الثاني برعاية العطف، ولاستمرارهم على فساد الافكار والاقوال والاعمال فيما بينهم جازيناهم بسلب السلامة عن قلوبهم ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ﴾ بعضهم مع بعض ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا تكاد تتسالم قلوب بعضهم مع بعض، ولا تخلو قلوبهم عن البغض والحقد للآخرين وعليهم، هذا فيما بينهم، وأما مع الرسول وأتباعه فـ ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ بالإفساد وإلقاء الفتن بين المسلمين سواء بين المهاجرين والانصار أو بين غيرهم ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ ولم تبلغ النار إلى حيث يشاءون من إحراق كيان المؤمنين ﴿وَ﴾ لا يزالون ﴿يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى يوم القيامة بإثارة الكفار على المسلمين أو باثارة بعض المسلمين على بعض ﴿فَسَادًا﴾ مصدر أي يسعون سعي فسادٍ، أو مفعول له، أي للفساد، أو حال عن فاعل يسعون أي يسعون مفسدين.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ومنهم اليهود أو المفسدين المعهودين لشدة إفسادهم.

تنبيه: أرجعنا ضمير بينهم إلى اليهود لأن المرجع القريب عبارة عنهم، ووجه ذلك مع أن الناس المجتمعين في العالم لا يزالون يضمرون بعضهم لبعض العداوة والبغضاء حسب تدافع المصالح أنهم أشد الناس من هذه الناحية، فليس قوم في العالم أحمل للعداوة وأدعى لها مع أمته من اليهود، وذلك معلوم من التاريخ فمن أراد العلم بذلك فليراجع وليطالع. وأما اتفاقهم الصوري في هذا الزمان فليس عبارة عن اتفاق من جذر القلوب، ولكنه اتفاق اجباري فرضه عليهم المستعمرون المسيطرون على البلاد بدعوى أن الارض هي الارض المقدسة الموعودة لهم، ويجب أن يأتوا إليها من كل

صوب وحدب ويسكنوا فيها ويستوطنوها، وذلك لا لمنفعتهم وتربيتهم وتقويتهم، بل ليجعلوها مقرا هادئا آمناً لهم على البحر الأبيض ليسيطروا بها على شئونهم وإلقاء الفرقة والفتن بين دول آسيا وأفريقيا وسائر نقاط العالم الشمالي الذي يخافونه، وتلك البلاد أقرب نقطة إليها، أو كمركز دائرة بالنسبة لها. وإلا فلو تَرَكَهُم المستعمرون وامتنعوا عن إدارتهم ورعاية شئونهم لعادُوا إلى ما كانوا عليه بل أشدّ وأفسد من حيث إظهارُ أحوالهم السيئة وعداوة بعضهم مع بعض، والمستقبل كشاف.

ومن ناحية أخرى: فاليهود مضطرون بطبيعة الحال في هذا الزمان وفي ذلك المكان، وإلا اكَلَهُمُ السّباع من كل جانب. وأما المسلمون فهم، وإن وقع بينهم عداء وبغضاء، ولاسيما في هذا اليوم لكن لم يصلوا إلى ما وصلت اليهود إليه، ولا تنس أن المستعمرين الذين اَجبروا اليهود على الوفاق هم الذين اَجبرُوا المسلمين على الخلاف بشتى الوسائل القوية التي يدركها العقلاء.

وأما قوله تعالى ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ فالمراد بها تارة إثارة الاضطرابات والمخالفات بين القبائل العربية المشركة في مقابلة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعارضته بشتى الاسباب من شتى الجهات، ثم إثارة المهاجرين والانصار، ثم إلقاء جذوات الفتن بينهم بعد الرسول، ولو لم تكن لهم اليد المباشرة في ذلك وانما كانت لهم أضلاع ووسائط لمقاصدهم، ولا سيما في القرون الاخيرة، لما زادت ثرواتهم وترقت ماليتهم بحيث أثرت في اقتصاديات الدول حتى الدول الكبيرة. ولكن الله سبحانه وتعالى أطفأ نار الفتن المشتعلة منهم في عصر الرسول حتى عاد الامر إلى إجلائهم من جزيرة العرب. نعم قد عادت لهم الكرة في هذا الدور الأخير بسبب تطور وتغير خريطة الكرة سياسة، واستولوا على بعض المقاصد

وأظهروا ما في جعبتهم من المفاسد لكن ربك لهم بالمرصاد، وقد هددهم في سورة الإسراء بقوله الكريم جل شأنه: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ فقد ظهر الشرط (ومن شرط كل شرط جزاء).

ثم المسلمون اليوم وإن كانوا في تفرق صوري وخلافات، لكن قادتهم وسادتهم علما وسياسة وكفاية منتبهون لما جاء منهم على المسلمين، وفي باكورة الاستعداد والحركة لتغيير ما جرى عليهم وسينتصرون بحول الله وقوته بشرط المزيد من الجهد حتى يسجلوا انفسهم في قائمة جنود الله. وبشرنا الله تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173) ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (65) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (66) ﴾.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي اليهود والنصارى، فإن المراد بالكتاب الجنس الشامل للتوراة والإنجيل ﴿آَمَنُوا﴾ بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ما حرم الله تعالى على لسان رسوله محمد، وتركوا تلك المعاصي التي باشروها ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ولو كانت كبائر ترتجف منها القلوب والأبدان ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ثم أنزل تعالى آية تشبه التفسير للآية الانفة الذكر فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي راعوها حق رعاية بأن تؤمن اليهود بنصوص التوراة

وتصدق بها حق التصديق ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ككتب أنبياء بني إسرائيل كشعيا، وحزقيل، وحبقوق، ودانيال، وآمنوا بما فيها من البشائر بتطور الأيام والأزمنة ومجيئ عيسى بن مريم وبعث محمد صلى الله عليه وسلم وتأييده بالأصحاب الغُزاة الرّماة الولاة الأصفياء الاوفياء بعهد الله وتؤمن النصارى بنصوص الإنجيل ومنها بشارة عيسى بن مريم عليه السلام ببعث محمد خاتم الأنبياء والمرسلين الملقب بأحمد لكثرة حمده لربه ونشر ثنائه في العالم، ولكثرة حمد الناس العارفين له بأنه المبعوث رحمة للعالمين ﴿لَأَكَلُوا﴾ الأرزاق النازلة عليهم ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ من السماء بإنزال مباديها منها ﴿وَ﴾ الأرزاق النابتة ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي مما تحتها من الأراضي الخصبة المنبتة المثمرة. وقيل: المراد المبالغة في بيان السعة والخصب لا تعيين الجهتين، أي أنهم أينما كانوا وكيفما أرادوا الثمار والخيرات أخذوها.

وهذا جار على سنة الله تعالى في الكون في أن كل أمة صالحة صادقة مخلصة في الاعتقاد والقول والفعل والعهود يوفقهم الله سبحانه لنيل المراد ودفع المعاندين الطالبين للإفساد، ويرزقهم رزقا واسعا يعم البلاد والعباد. ولما كان في أهل الكتاب من آمَنَ بالله ورسوله وعمل صالحا، ميزهم الله سبحانه بقوله الكريم ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ أي منهم جماعة عادلة حسنت أعمالهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67) ﴾

عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحْرَسُ حتى نزل والله يعصِمك من الناس. فأخرج رأسه من القبة فقال: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله. رواه الترمذي والحاكم.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال أهل الكتاب ونوَّه بطرف من عدائهم للدين الإسلامي أمر حبيبه محمدا صلى الله عليه وسلم بالثبات على ما أمر به وناداه نداء تشريف بلقب الشرف، أعني الرسالة من الله تعالى وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ إلى الجن والإنس ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أوصل ما أنزل الله عليك من الكتاب الهادي إلى طريق الصواب إلى من يمكنك الإيصال إليه وَأَوْصِ الشاهدين بإيصاله إلى الغائبين وهكذا حتى يتم التبليغ ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ ما أُمِرْتَ به ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي وإن لم تبلغ شيئا من الأحكام فما بلغت رسالته وما أديت شيئا منها لما أن تبليغ كل جزء من أجزاء ما أنزل إليه ركن من أركان الرسالة كما أن كُلَّ جزءٍ من أجزاء الشهادتين ركن من أركانهما، فَمَن تركَ ركنا من أركان ما أمر بالوفاء به فقد ترك تلك الحقيقة التي أمر برعايتها والقيام بها، ولا تخف في تبليغ الرسالة أيّ واحِدٍ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الذي يُخاف منهم لأنهم كافرون ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إلى الإضرار بالمرسلين في التبليغ.

ويتبين من هذه الآية الكريمة ومِنْ عصمة الرسل الكرام عليهم السلام من الخيانة لا سيما في تبليغ الأحكام إلى الأنام أنّ سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بلغ رسالته وأدّى حق الأداء أمانته، ولم يترك من الواجبات الاعتقادية والعملية شيئا إلا بلغها. فمن ادعى ذلك فقد كذب على الله ورسوله، ومن دعاه على جمهرة الصحابة فهو أكذبُ لأن الله سماهم خير أمة، وخيرُ الأمة لا تجتمع على خصلة الكذب الذي لا يليق إلا

بِدَني الهمة، والرسول بَيَّنَ عَدَمَ إجماعِهم عَلَى الضّلال بأحاديث لا تخفى على أهْلِ العلو بالدين.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (68)﴾

عن ابن عباس قال: جاء رافع بن حارثة، وسلام بن حريملة، ومالك ابن الضيف فقالوا: يا محمد ألستَ تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عنده من التوراة وتشهد أنها حق من عند الله تعالى؟ قال: بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم بما فيها وكتمتم ما أمرتم أن تبينوه للناس. قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا فإنا على الهدى والحق ! فأنزل الله الآية. أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير.

قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يراد بأهل الكتاب فيه اليهود والنصارى. وقال آخرون: المراد بهم اليهود على ما نقلناه من بيان مورد النزول. وحاصله أن الله سبحانه وتعالى يقول لأهل الكتاب: يا أهل الكتاب أنتم، وإن ادعيتم الثبات على الحق والصواب، لكنه ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الدين السالم المعتبر عند الله ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وتعترفوا وتصدقوا بما فيهما من الأحكام وسائر الأمور التي من جملتها دلائل رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَ﴾ تؤمنوا ﴿بـ﴾ مَا ﴿أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ من كتب أنبياء بني إسرائيل كالسادة شعيا وغيره المحتوي على نعوت نبي آخر الزمان محمد صلى الله عليه وسلم وشمائل أصحابه فإن تلك الكتب هي التي أنزلت إليهم، وقيل: المراد بما أنزل إليهم هو القرآن المجيد

لأنه أنزل لأجل أن يؤمن به أهل الكتب السابقة كسائر أمة الثقلين. فإذا أقمتم هذا الكتاب الجامع وهو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وآمنتم به حق الإيمان وعملتم بما يحتوي عليه من العقائد والأحكام فأنتم عند ذلك تعتبرون مسلمين على دين محمد صلى الله عليه وسلم. ولكن أولئك الناس الفاسدين من أهل الكتاب لشدة عنادهم وعدم استماعهم للحق لا ينتفعون بقولك ولا بأحكام كتابك ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ فاعل الفعل ﴿مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ولا شك أنهم يستمرون على فسادهم لفساد أفكارهم، وأفكارُهم الزائفة وإن كانت مما توجب الأسى والأسف ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى﴾ هم لأنهم من ﴿الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (69)﴾

قد يتوهم الجاهل بالقرآن وآياته التي تنادي الجن والإنس للإيمان بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأن من يبتغي ويطلب غير دين الإسلام لن يقبل منه ذلك وهو من الخاسرين الكافرين.. ان هذه الآية جمعت المؤمنين بدين الإسلام مع اليهود والنصارى والصابئين، وجَعَلَتْ أهْلَ ملّةِ اليهود والصابئين والنصارى مساوين للمسلمين في النجاة بشرط الإيمان بالله واليوم الآخر والإيمان برسلهم، وإن لم يؤمنوا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله تعالى وهذا التوهم باطل وكفر وضلال. بل المقصود من الآية الكريمة استواء الناس عموما إذا آمنوا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فمعناها كما أن الذين يؤمنون إيمانا صادقا بسيدنا محمد وما جاء به من عند الله أهل النجاة كذلك سائر الناس إذا آمنوا به وبما جاء به من عند الله تعالى. وقد جمعت الآية الكريمة

المنافقين المؤمنين بألسنتهم فقط مع الطوائف الثلاث۔
وتفسير الآية حينئذ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بألسنتهم فقط وهم المنافقون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾: أي آمنوا بموسى عليه السلام ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾: المؤمنون بالكواكب أو بنوح أو إبراهيم أو بغيرهما من الرسل ﴿وَالنَّصَارَى﴾ المؤمنون بعيسى عليهم السلام ﴿مَنْ آَمَنَ﴾ منهم إيمانا صافيا عن الخلل والنفاق ﴿بِ﴾ ذات ﴿اللَّهِ﴾ عز وجل ﴿وَ﴾ ب ﴿الْيَوْمِ الْآَخِرِ﴾ على ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ومن حيث الأخذ منه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ من الأثر المشروع سواء كان فعل الواجب أو المندوب أو ترك المحرم أو المكروه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين يخاف الكافر من العقاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب.

ويجوز أن يكون المراد من قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ من آمن إيمانا معتبرا في الشرع، خاليا عن كل خلل، وحينئذ تحتمل الآية إعرابين راجحين: الأول: أن يكون جملة من آمن بالله واليوم الآخر الآية خبرا عن اِنّ[1]. ويكون خبر قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ إلى آخر المعطوفات محذوفا بقرينة الخبر المذكور، فتكون الآية من قبيل الاستغناء بالسابق عن اللاحق. الثاني: أن تكون تلك الجملة خبرا عن قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ الى آخر المعطوفات، ويكون خبر إن محذوفا بقرينة ذلك فيكون الجملة من قبيل الاستغناء باللاحق عن السابق.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (70) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (71)﴾

(1) والمراد بقوله ﴿من آمن﴾ من استقام وثبت على إيمانه بالله وبرسوله وبما جاء به من عنده۔

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان بعض آخر من جناياتهم المشعرة باستبعاد الإيمان منهم. فيقول تعالى: ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل على لسان أنبيائهم في التوحيد والإيمان بالشرائع والأحكام، وفي الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم المنعوت عندهم بنعوته الواضحة. ﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ أولي شأن ومناقب تناسبهم. ومع ذلك فـ ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ أي أتوا بأحكام لا توافق أغراضهم وتصعب عليهم ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي خالفوهم وعصوهم وحصل بينهم المنافرة والعداء، فكذبوا فريقا منهم واكتفوا بتكذيبه، وقتلوا فريقا منهم، ولم يكتفوا بتكذيبه ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي وظن أولئك المكذبون والقاتلون أن لا يرد عليهم من الله عذاب وعقاب ﴿فَعَمُوا﴾ عن إبصار الأدلة العينية ﴿وَصَمُّوا﴾ عن استماع المواعظ السنية ﴿ثُمَّ﴾ انتبهوا وتابوا ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا﴾ بعد ذلك وانحرفوا عن مقتضى توبتهم فلم يبصروا ما يعتبرون به من العبر ﴿وَصَمُّوا﴾ ولم يستمعوا ما ورد عليهم من المواعظ والنصائح.

وقوله ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بدل من الضمير في الفعلين ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ وسيحاسبهم على ما صدر منهم يوم الدين.

والحاصل: إن الإسرائيلين مضت عليهم أزمان وأدوار من الضعف والقوة وراعاهم الله سبحانه فنجاهم عن دور الضعف وأعانهم حتى رجعت لهم الكرة، ومع ذلك لم يتذكروا نعمة الله عليهم ولم يشكروا نعمته وقابلوا

رسله بما لا يناسب مقامهم؛ فكذبوهم كما كذبوك، وكذبوا عيسى، وقتلوا من الرسل من تمكنوا من قتله كزكريا ويحيى، والبشر، وإن كان ثلثاه شرا، وطبيعتهم طبيعة نوعية يجوز أن يرد على كل فرد ما يرد على الآخر لكنه ظهر من ادوار الأيام أن بني إسرائيل لهم دور مهم في الأنانية والاستكبار وتكذيب الأنبياء والمرسلين ولذلك عاملهم الله بما عاملهم به.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (72) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74)﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ﴾ الآية شروع في بيان قبائح النصارى بعد بيان قبائح اليهود فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي تجسم وتحقق بشخصية عيسى. وهذا الرأي رأيُ بعض من الغالين منهم، وغلوا إلى درجة زال عنهم الشعور بالبديهيات ولم يتفكروا كيف يتحد الاثنان، وامتناع اتحاد الاثنين بديهي لا يحتاج إلى دليل، ثم كيف يتحد الذات الموجود الأزلي الأبدي بمادة منوية حادثة خارجة من امرأة، واين الواجب من الممكن والقديم من الحادث والقادر من العاجز والغني عن الاحتياج من المحتاج إلى التنفس؟ والأكل والشرب والمكان والإعانة في العوارض والمحتاج إلى إخراج الفضلات منه. وعلاوة على

ذلك قد عارضهم الشخص الذي قالوا فيه ما قالوا وغلوا فيه ما غلوا، وهو المسيح عليه السلام كما ذكر الله بقوله: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾ عيسى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ولا تشركوني به ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ في ذاته أو في صفاته الذاتية أو الفعلية، أو في استحقاق العبادة أو إسناد الخلق إليه شيئا ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ لأنها دار الموحدين ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ لأنها مأوى المشركين ﴿وَ﴾ ليس له أحد ينصره أو يشفع له؛ لأنّه ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وبعد تكفير القائلين بالاتحاد وهم الطائفة اليعقوبية أعلن تكفير الفرق القائلة بالتعدد والإشراك، وهم النسطورية والملكانية. وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي أحد ثلاثة آلهة: الله، ومريم، وعيسى ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ واجب الوجود انحصر فيه الخالقية والمعبودية، وله مميزات وإنه هو الذي خلق الكائنات وأخرجها من العدم. وأخرج أبا البشر آدم، وأخرج من نسله عيسى ومريم: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الاعتراف بالآلهة ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وكذلك من وجد من نسلهم الثابت على عقيدة الأصل ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ بالانتهاء عن تلك العقائد الزائفة الفاسدة ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾؟ عما صدر منهم من الذنوب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالعباد.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (76)﴾

قوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ شروع في تحقيق الحق ورد الباطل، فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي إذا كان العقل موجوداً عند الانسان أيا كان عَلِم أن عيسى ابن مريم لم يكن اِلهاً لأنه كان رسولا من الرسل أرسله الله إلى بعض عباده لارشادهم إلى القول بوجود الباري ووحدته واتصافه بالكمال ونزاهته عن النقص، فكانت الصفة المشتركة بينهم المميزة لهم عن سائر البشر الرسالة من الله سبحانه، فلو كان عيسى إلها كان سائر الرسل مثله في الألوهية؛ لأن المميز لهم عن غيرهم عبارة عن الرسالة وهي موجودة فيه وفي غيره، ولكن ليس شيء من الرسل غيره إلها، فليس هو اِلهاً. ومن جهة أخرى إنّه تقدم عليه الرسل في البعث فكان هو ورسالته حادثين، والحادث ذاتا وصفة لا يكون إلها لأن من خواصه القدم؛ فلم يكن عيسى إلهاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾: إذا نظرنا إليه على سيرة ما قبله فالتقدير: وما أمه إلا صدّيقة، وصديقة صيغة مبالغة كشريب، ومعناها: إنها كثيرة الصدق. والمراد بالصدق صدق حالها مع الله تعالى وصدقها في براءة نفسها من الرذائل والأقذار. وإذا نظرنا إليه في ذاته فمعناه ما مر بلا ملاحظة الحصر. وعلى كل حال فهو إشارة إلى دليل آخر على أن عيسى لم يكن إلها لأنه ولد من امرأة صادقة والولادة معناها ومغزاها الحدوث بإرادة الخالق المحدث. وإلى دليل على أن أمه لم تكن إلها لأنها ابتليت بأوجاع الحمل والولادة وأقذارها، وكل ما كان كذلك فهو غير لائق بالألوهية.

وقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ إشارة إلى دليل آخر على عدم استحقاقهما للألوهية، تقريره: هما كانا شخصين محتاجين في البقاء إلى أكل الطعام، وكل محتاج كذلك لا يكون إلها وهذا ظاهر. ويستفاد منها

استدلال آخر من حيث أن أكل الطعام يوجب الحاجة إلى خروج الخارج والابتلاء بالأقذار وذلك لا يناسب الإله. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآَيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾؟ معناها انظر يا حبيبي، أو انظر يا من يمكنه النظر كيف نبين لهم الدلائل القطعية الدلالة على بطلان ما كانوا يدعون من ألوهية عيسى وأمه ثم انظر أنى يؤفكون أي كيف يصرفون عن الإصاخة إليها والتأمل فيها ثم صرف الأمر الى أعم مما ذكر وقال لحبيبه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ﴾ للناس المشركين كيفما كانوا سواء عبدوا الأصنام أو ألهوا البشر: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؟ أتفيدكم هذه العبادة شيئا؟ وهل ما يعبدونه من دونه لهم قدرة على إبداع شيئ وإيجاده. فهذه الآية فيها ترق من توبيخ النصارى على تأليه عيسى وعبادته إلى توبيخ كل من يعبد الأصنام ومن ينحو نحوهم، وكل ذلك ضلال وإضلال ﴿وَ﴾ الله خالق السماوات والأرض ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل ما يتكلم به ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل المعلومات وهو الذي يَحِقّ اَن يُعبد لأنه المسيطر على العالم وما فيه من الأعيان والأعراض وما سواه عينا وعرضا جامدا وحيّاً من مصنوعاته وذلك معلوم علم اليقين.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (77) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (81)﴾

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أمر الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم أن يوجه الخطاب لجنس أهل الكتاب من اليهود والنصارى ويقول لهم: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي لا تجاوزوا الحد المقرر في شأن دينكم ومبلغه من الرسل، ولا ترفعوا مقامهم إلى مقام استحقاق العباد فإنهم قد أرسلوا لبيان الحق وإن الله هو رب العالمين وإن الرسل عباده المكرمون بالرسالة وتبليغ الكتاب وإرشادهم إلى الصواب، فان الغلو باطل والغالي مبطل عاطل، وراعوا العدالة في حق الله وفي عباده من الرسل وغيرهم فإن الله هو القاهر فوق عباده والعباد مطلقا عبيد خلقهم الله لعبادته والخضوع أمام هيبته. وقوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة مصدر محذوف أي غلو غير الحق، وهذا المصدر تأكيدي وليس الغلو إلا باطلا. وليس له قسمان باطل وغير باطل، كما قيل، فإنه عبارة عن التجاوز عن الحد المشروع فما عدّ غلوا فهو باطل.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ من اليهود الذين قالت عزير بن الله، والنصارى الذين قالوا المسيح عيسى بن الله، فإن ذلك أمر باطل، فإن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد، إنما للعباد كرامة بالتقوى وأكرمهم اتقاهم. وأولئك المغالون السابقون ضلوا عن طريق العدل ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من الناس الذين اتبعوهم بالجهل أو بالعلم والعناد ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ لأن المُضِلَّ لا يضِل اَحَداً إلا وهو ضال <189>

عن طريق الحق أو ضل أهل الكتاب الموجودون بعد بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عن سواء السبيل الذي هو الإسلام والإيمان بمحمد عليه السلام لأنهم علموا نعوته وتيقنوا نبوته، ومع ذلك عاندوا وانحرفوا وكتموا ما عندهم من الدليل وضلوا عن سواء السبيل. ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فإن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت لعنهم الله على لسان داود عليه السلام وأصحاب المائدة لما كفروا دعا عليهم عيسى ولعنهم فأصبحوا خنازير ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ويتجاوزون حكم الله تعالى وحدوده. وقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾: الظاهر أنه جاء لبيان اعتدائهم. ومعناه أنهم إذا أرادوا فعل منكرٍ لم يكن فيهم من ينكر عليهم فعله، وذلك من غاية الاعتداء لأنه إذا أراد بعض القوم فعل منكرٍ ولم يكن هناك رادع يردعه فإما لرضاء غير الفاعلين بفعل ذلك، وذلك أسوأ أحوال القوم حيث لم يبق فيهم من ينكر المنكرات، وإما لخوفه من فاعل المنكر وذلك أيضا من الأحوال السيئة لهم، لأنه إما من شدة بطش ذلك الفاعل للمنكرات بحيث لا يقدر أحدٌ على إنكاره أبدا، أو ليس الفاعل كذلك لكن الناس ضعاف الإيمان يتركون رفع المنكراتـ والنهي عن فعلها لأدنى مخافة، وذلك أيضا اعتداء وتجاوز منهم على الحدود، وإما بيان لقسم مُهمٌّ من اعتدائهم هذا الذي ذكره بقوله ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ الآية... يعني أنهم كانوا يعتدون يفعلون المحرمات ويتركون الواجبات، وفوق ذلك كله كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه، ولا ينهى بعضهم بعضا قبل فعله عنه أو لا ينهى بعضهم بعضا عن معاودة مثله بعد فعله، أو لا ينتهون عن فعل <190>

المنكرات ويستمرون عليها، وكل هذه الوجوه تُعَدُّ من مَساوئ أعمالهم. ثم أعلن الباري التأكيد على سوء أعمالهم وقال:
﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وفي هذه الآية زجرٌ شديد لمن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أخرج أحمد والترمذي وحسنه عن حذيفة ابن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((والذي نفسي بيده لتَأمُرُنّ بالمعروف وَلتَنْهُون عن المنكر أو ليُوشِكَنَّ الله تعالى أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم)). وأخرج أحمد عن عدي بن عُميرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله تعالى لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يَرَوا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه، فاذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة)).

﴿وَ﴾ من جملة مَساوئهم وأحوالهم البائسة أنه ﴿تَرَى﴾ يا حبيبي ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يوادون الجبارين والمفسدين والظالمين من الملوك أو الأمراء أو شيوخ القبائل لاستحصال مآربهم الفاسدة، ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وهو ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا هو المخصوص بالذم ﴿وَ﴾ نتيجة ذلك أنهم ﴿فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا﴾ أي أهل الكتاب المتولون للكافرين ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الذي أنعم عليهم ﴿وَالنَّبِيِّ﴾ الذي أرسل إليهم كسيدنا موسى وسيدنا عيسى وغيرهما عليهم السلام ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ أي إلى النبي المذكور كتوراة موسى وإنجيل عيسى، أو المراد بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزل إليه هو القرآن ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي الذين كفروا ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أي أحباء يعتمدون عليهم، فإن الإيمان على تقدير تحققه في قلوبهم لا يخليهم ينقلبون إلى أهل الكفر والبغي والعدوان ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

مارقون عن الإيمان بالله وبما جاء من عند الله، فهم خارجون عن الدين ومستمرون على البغي وسوء الأخلاق أو على التردد والنفاق.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) ﴾

<192>

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (85) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (86)﴾

عن عروة بن الزبير قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن أُمَيَّةَ الضَمريَّ وكتب معه كتابا إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا جعفر ابن أبي طالب والمهاجرين معه وأرسَلَ إلى الرّهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر بن أبي طالب فقرأ عليهم سورة مريم فآمنوا بالقرآن، وفاضت أعينهم من الدمع، فهم الذين نزلت فيهم الآية أخرجه النسائي وأبو داود.

وعن سعيد بن جبير قال: بعث النجاشي ثلاثين رجلا من خيار أصحابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم سورة (يس) فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق فأنزل الله فيهم الآية. رواه ابن ابي حاتم.

قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها من قبائح اليهود، وأكدت بالقسم للاعتناء بها. والمعنى والله لتجدنّ يا حبيبي أو يا من يتمكن من الرؤية تجدن أشد الناس ﴿عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ والمراد منهما عموم اليهود وعموم المشركين. وقيل: يهود المدينة والمشركون المجاورون للحرمين. وتوصيفهم بذلك لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم، وإنهماكهم في التقليد، وفي تقديم اليهود على المشركين إشعار بأن عداوتهم أشد من عداوة المشركين. فقد قيل: إن من مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من يخالفهم في الدين بأي طريق كان.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ﴾: أي ذلك المذكور من كونهم اقرب مودة للذين آمنوا ﴿بِ﴾ سبب ﴿أَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: القسّيسون علماء النصارى وعبّادهم ورؤساؤهم. والقسيس: صيغة مبالغة مأخوذة من تقسس الشيئ إذا تتبعه بالليل. سموا به لتتبعهم ومبالغتهم في طلب العلم بزعمهم. وقال قطرب: القس والقسيس العالم بلغة الروم. وقد تكلمت به العرب وأجروه مجرى كلماتهم. ورهبان: جمع راهب من الرهبة بمعنى المخافة، وكانوا يترهبون بالتخلي عن أشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن أهلها وتعمد تحمل مشاقها، حتى أن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه، ويبالغون في هذا النوع من المشاق ! ولرفض هذا الأمر وعدم مناسبته للتقريب السليم إلى الله وعدم صلاحية أهله لمنفعة المجتمع حتى كأنه ميت في صورة الأحياء.. وقال صلى الله عليه وسلم ((لا رهبانية في الإسلام)) بمعنى أنه ليس هذا النوع من الترهب في دين

الإسلام، وإلا فقلة أكل الطعام، وقلة المنام، وتقليل الكلام إلا فيما هو خير للأنام من سنن دين الإسلام.

والحاصل: إن الرهبان غلوا في أمرهم والغلو مذموم في كل أمر كما هو المقرر. ويدل على ذلك بوضوح قوله تعالى ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ فإنه ينادي ويعلن أنهم لو كانوا يرعونها ويأتون بها على الاعتدال كان مقبولا عند الله وإن لم يكن واجبا.

ومما يجب أن يتنبه له أن البشر مخلوق ومجبول على حب ذاته ومن يتفرع منه أو يقرب نسبه إليه أو من يراعي ما يحبه وعلى كراهية من لا مناسبة له به لاسيما إذا كان ينازعه في رغباته ومطامعه وأهوائه، وعلى ذلك عداء الإنسان لبعض الحيوانات والإنسان بعضهم لبعض والقتال والمدافعات الدائرة في العالم.

وهذا الذي ذكرناه كأنه من لوازم ماهية البشر، أو من لوازم وجوده الخارجي غير أنه ليس كزوجية الأربعة وفردية الثلاثة، بل يختلف ميزانه في الأفراد قوة وضعفا، ومما يؤثر في تخفيفها بعد المسافة بين فرد وفرد أو صنف وصنف، كما أنه يؤثر فيه التربية الأساسية. ويظهر من ذلك أن أقربية النصارى إلى المؤمنين بعدهم عنهم بحيث لم تكن مصالحهم في ذلك الوقت معارضة لمصالح المؤمنين كاليهود الموجودين في المدينة المنورة وما حولها، والمشركين الموجودين في الحرمين وأطرافهما، وأن التربية الدينية للنصارى كانت على محبة الأمان والراحة، وكان من تعاليم سيدنا عيسى عليه السلام أن من ضرب الخد الأيمن منكم حولوا له الخد الأيسر، فالتزم بذلك القساوسة والرهابنة، لاسيما الرهبان الذين تربوا على الزهد

عن الدنيا وشهواتها وقطع العلاقة عنها. وكان لتعليمات الكنائس للنصارى في الموضوع دور مهم فكانوا أقرب للذين آمنوا مودةً. وأما اليهود فبسبب اضطهادهم في حكم فرعون وأتباعه الأقباط تحولوا إلى امة راعية لنفسها وقدسها وحافظة على إسرائيليتها، وبالغت في ذلك حتى ادعت انها شعب الله المختار في العالم. هذا إذا نظرنا إلى تفسير الآية الكريمة مع رعاية العموم في اليهود والنصارى، وأما إذا قلنا إن المراد بعض منها كالنصارى الوافدين عليه صلى الله عليه وسلم من الحبشة في مقابل يهود المدينة وما حولها فالأمر واضح. ويدل على ما قلنا ما ظهر بعد ذلك العهد بعد توسع فتوحات الإسلام ومسها لمصالح النصارى، فتحولت النصارى إلى حالة غير الحالة السابقة فحاولوا بكل الوجوه ضرب الإسلام والمسلمين وتشبثوا بأنواع الأمور الحربية، ومنها نبعت الحروب الصليبية، والويلات المتتابعة في البلاد المقدسة، والقتال في الأندلس، والاستيلاء عليها، وتنصير المسلمين فيها، ثم تشريع أنواع الأفكار المضادة للدين، وبث سموم التفرقة بين المسلمين.

فترى العالم اليوم كما ترى والدواء النافع المفيد لنا اليوم هو الرجوع إلى تعاليم الإسلام المقدسة النازلة في أول آية نزلت من القرآن الكريم في العلم والتعليم حتى يلد منهما العمل الصالح فيتربى بتاج الاعتصام بحبل الله المتين، والسعي في استفادة العلوم على مستوى الأيام، وقلع بذور النفاق والشقاق من مزرعة الحياة الإسلامية، حتى تعود الأمة إلى أرقى درجات العزة والكرامة والحرية السليمة آمنين مطمئنين.

ويؤيد جانب الخصوص الذي ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وهذه الآية الكريمة واردة في بيان حال النصارى الوافدين من الحبشة إلى المدينة

المنورة. وفي الحقيقة كانوا أناسا متواضعين غير مستكبرين، ويتأثرون بفيوضات أنوار الآيات عند قراءتها عليهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا﴾ بما أنزلته ومن أنزلت عليه ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي اجعلنا عندك من أمة محمد الذين يشهدون يوم القيامة على تبليغ الرسل ما أمرت بتبليغه، أو اجعلنا ممن يشهدون على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وحقية كتابك الذي أنزلته إليه ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي أيّ نفع يحصل لنا غير مؤمنين بالله وبما جاءنا من الحق، أي كما يقولون ربنا آمنا الآية كذلك يقولون في ما بينهم: وما لنا لا نؤمن، فالواو عاطفة لجملة ما لنا على مقول القول السابق وقوله: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ جملة حالية عن الضمير المتقدم، والتقدير أيّ شيئ حصل لنا غير مؤمنين والحال أنا نطمع في صحبة الصالحين عند دخول الجنة؟ ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبد الآبدين وذلك جزاء المحسنين. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وعطف قوله ﴿وَكَذَّبُوا﴾ على قوله ﴿كَفَرُوا﴾ بالله للتنصيص على بيان حال المكذبين ومآلهم المؤلم يومَ الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88)﴾

عن ابن عباس أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء، وأخذتني شهوتي فحرّمت عليّ اللحم ! فأنزل الله الآية.

وعن ابن عباس أن رهطا من أصحاب رسول الله منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وسالم مولى أبي حذيفة توافقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا من الطعام إلا قوتا، وألا يأكلوا لحما ولا دسما، وان يلبسوا المسوح، وأن يجبوا مذاكيرهم، ويعتزلوا النساء، ويسيحوا في الأرض، ويترهبوا ليتفرغوا للعبادة ! فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهم فجمعهم وقال لهم: ((هكذا قلتم؟)) قالوا: نعم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أما أني أخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء. فمن رغب في سنتي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني)). ثم نزلت فيهم الآية رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ معناه لا تحرموا الأطعمة اللذيذة مما أحله الله تعالى لكم فإن تحريم الحلال جسارة وجراءة على حكم الله سبحانه وتعالى. أو لا تلتزموا تحريمها بنحو يمين حتى تحنثوا وتجب عليكم الكفارة؛ فإنه لما كان تحريم الحلال مبغوضا لعدم نفاذه فالتزام تحريمه بنحو يمين أبغض إلى الله تعالى. أو لا تقولوا: حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها؛ فإن ذلك القول لغو من الكلام لا يناسب لمن التزم قواعد الإسلام. فكلوا واشرَبوا والبَسوا ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي لا تتجاوزوا في الاستفادة مما أحل الله لكم الحد كيلا يتحول إسرافا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين عن الحدود المقررة في دين الله ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا ما حل وطاب مما رزقكم الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فلا تخالفوا أحكامه ولا تحرفوا نظامه.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)﴾

كان هؤلاء الصحابة المشار إليهم في الآية السابقة قد حلفوا على ما اتفقوا عليه فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو في اليمين عند الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه: أن يحلف على أمر مضى يظنه كذلك. فإن علمه على خلافه فاليمين غموس. وعند الإمام الشافعي رضي الله عنه: ما يسبق إليه اللسان من غير نية اليمين. ويؤيده ظاهر الآية الاستدراكية. أي لا يؤاخذكم الله تعالى في الأيمان التي تجري على ألسنتكم في العادة الدائرة بين الناس لا والله وبلى والله وأمثالهما ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ يعني بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها بالقصد، وهي التي فيها الكفارة. فإذا عقدتم الأيمان وحنثتم فيها ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ أي كفارة ذلك الحنث بعد عقد اليمين ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي من أقصده في النوع أو المقدار، وهي عند الشافعي مُدَّ لكل مسكين، وعند الحنفية نصف صاع من بر أو صاع من شعير. وعن ابن سيرين قال: كانوا يقولون الأفضل الخبز واللحم، والأوسط الخبز والسمن، والأخسّ الخبز والتمر ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أي كسوة عشرة مساكين.

والمراد بالكسوة عند الحنفية ما يستر عامة البدن على ما روي عن الإمام الأعظم رضي الله عنه، وأبي يوسف فلا يجزيء عندهما السراويل؛ لأن لابسه يسمى عريانا في العرف لكن ما لا يجزئه عن الكسوة يجزئه عن الاطعام باعتبار القيمة. وفي اشتراط النية حينئذ روايتان، وظاهر الرواية الإجزاء نوى أو لم ينو. وروي أيضا أنه إن أعطى السراويل المرأة لا يجوز، وإن أعطى الرجل يجوز لأن المعتبر رد العرى بقدر الإمكان بما تجوز به الصلاة وذلك ما يحصل به ستر العورة والزائد تفضل للتجمل أو نحوه؛ فلا يجب في الكسوة كالإدام في الطعام. والمروي عن محمد أن ما تجوز فيه الصلاة يجزيء مطلقا. والصحيح المعول عليه عندنا هو الأول. ويشترط أن يكون ذلك مما يصلح به للأوساط وينتفع به فوق ثلاثة أشهر وعند الشافعي رضي الله عنه يكفي ما يسمى كسوة مثل: قميص، أو عمامة، أو إزار، أو رداء، أو منديل، لا خُفٍّ، ومنطقة، وقفازين.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ كيفما تكون. وشرط الشافعي الإيمان ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعات عند أبي حنيفة ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ يعني وحنثتم، وإلا فالحلف بدون الحنث لا يوجب الكفارة ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أي احفظوا أنفسكم من الحنث فيها وإن لم يكن الحنث معصية، إلا إذا كان الحنث فيه مصلحة أكيدة وصلت إلى درجة الوجوب أولا لقوله صلى الله عليه وسلم: ((من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا فليحنث وليكفر)) ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ويجوز عند الشافعية تقديم الكفارة على الحنث إلا الصيام، والحنفية لا يجوزونها مطلقا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (91) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (92) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93)﴾

عن أبي هريرة قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله عنهما، فأنزلَ الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (البقرة: ٢١٩) فقال الناس: ما حرّم علينا إنما قال إثم كبير، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام أمّ رجل من المهاجرين أصحابه في صلاة المغرب، فخلط في قراءته، فأنزل الله آية أغلظ منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ (النساء 43) ثم نزلت آية أغلظ منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى ﴿مُنْتَهُونَ﴾ فقالوا: انتهينا رَبَّنا. فقال ناس: يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فراشهم، وكانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجسا من عمل الشيطان. فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية أخرجه أحمد.

وفي رواية قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ((لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم)) وعن ابن عباس إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر في وجهه ورأسه ولحيته، فيقول صنع بي هذا أخي فلان، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن فيقول: والله لو كان أخي بي رؤوفا رحيما ما صنع بي هذا حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله هذه الآية إلى ﴿مُنْتَهُونَ﴾ فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان وقد قتل يوم أحد ! فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ﴾ الآية أخرجه النسائي والبيهقي والحاكم.
قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ وهو المسكر المتخذ من ماء العنب، أو كل ما يخامر العقل ويغطيه من الأشربة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾: وهو القمار ﴿وَالْأَنْصَابُ﴾أي الأصنام المنصوبة للعبادة. وفرق بعضهم بينهما بأن الأنصاب هي الحجارة المنصوبة للعبادة، وكانوا يذبحون عندها، ولم يكن فيها صور، والأصنام: ما صور وعبد من دون الله تعالى ﴿وَالْأَزْلَامُ﴾: وهي الأقداح المذكورة سابقا ﴿رِجْسٌ﴾ أي قذر تكرهه العقول والمراد أن تعاطي هذه الأشياء رجس ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وإلا فكيف تعتبر الأعيان من عمل الشيطان؟

﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾: أي الرجس أو عمل الشيطان. والاجتناب عن الشيء جعله في الجانب والمقصود أن لا يستقبل الإنسان هذه الأرجاس ويجعلها في جانب من الجوانب البعيدة.

ولا يتوهمن عاقل أن الآية الكريمة لا تدل على تحريم الخمر وما بعدها لانتفاء صيغة التحريم فيها. لأنه ليس عبارة التحريم هي العمدة في الحكم بحرمة الشيء، لأنه قد يكون أثراً للنهي عن الشيء وقد يستفاد من تعبيرات

أخرى كالاجتناب بل نقول: إن الأمر بالاجتناب أقوى لأنه لم يستعمل في القرآن إلا للأشياء البعيدة عن الدين غاية البعد، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ وقوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ وقوله تعالى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ وكما في هذه الآية التي نقرأها الآن. وقد يكون بالاستفهام الإنكاري كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾؟ ويدل على تأكد حرمة تعاطي الأمور المذكورة ربط رجاء الفلاح بتركها كما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني إن الابتعاد عن هذه الاشياء من أسباب الفلاح والنجاة. ولو لم يكن حراما لم يكن الفلاح مربوطا بتركه. ومن عنده أدنى معرفة يعلم أن تعاطي الأمر الذي يعاند العقل والصحة والمال والكرامة ويقلل من أهمية الإنسان وأعيان الآدميين حرام وموجب للذنوب والآثام.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾: أي بسبب تعاطيهما وشرب الخمر وعمل الميسر، لأن السكران يعمل أعمالا قبيحة لها عواقب توجب الفتن والمحن والإحن بين الناس، والميسر يجعل الرجل مفلسا يعادي من أخذ ماله حتى يريد قتله أو غنيا بطران يعارضه الناس ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ لأن السكر يجعل الإنسان غافلا عن أداء ما وجب عليه وعن ذكر ربه. والميسر يوجب للمغلوب الانقهار والأسف المزيد بحيث لا يقدر على التلذذ بغذائه وعشائه فضلا عن التلذذ بالأمور الروحية، ويوجب للغالب بطرا وطغيانا يبعدانه عن ذكر الله وعن الصلاة وعن كل ما يقربه إليه تعالى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ عن تعاطي هذين الأمرين القبيحين الذين لا ثالث لهما في القباحة ووخامة العاقبة والعافية.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في جميع ما أمرا به ونهيا عنه ﴿وَاحْذَرُوا﴾: مخالفتهما ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن الحق ولم تسلكوا مسالكه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ولم يقصر في ذلك بتوفيق الله فقامت عليكم الحجة وانتهت الأعذار وانقطعت العلل، وقد تم البلاغ والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ قالوا في سبب نزوله: لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة رضي الله عنهم: كيف بمن شربها من إخواننا الذين ماتوا وهم قد شربوا الخمر وأكلوا الميسر فأنزل الله تعالى هذه الآية. وهذا السبب أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه وعلى ذلك فمعنى الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ من الخمر أو من محصولات الميسر قبل نزول الآية جناح ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ ما ارتكبوه سابقا ولم يعيدوه لاحقا ﴿وَآَمَنُوا﴾ بالله الذي حرمه، أي تركوه خوفا من الله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فيما فرض عليهم او استحب لهم ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ ذلك المحرم وغيره من المحرمات ﴿وَآَمَنُوا﴾ بالله الذي حرمهن ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ علاوة على المحرمات غيرها من الشبهات ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ أي وأخلصوا في إيمانهم وأعمالهم إلى درجة الإحسان المفسر بأن يعبد العبدُ ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه بلا شك وشبهة، وعند ذلك يحبهم الله لأنهم يدخلون في عداد المحسنين ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وبهذا التفسير الذي ذكرناه ظهر أن ليس المراد بالتكرار الوارد في الآية التأكيد لما قبله، بل التكرار استئناف وتأسيس لمعنى جديد لم يكن قبل، ومن قبيل ما فسرت به الآية ما قاله الطيبي رحمه الله المعنى: إنه ليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات، وإنما المطلوب

الترقي في مدارج التقوى والإيمان إلى مراتب الإخلاص، واليقين ومعارج القدس والكمال. وذلك بأن يثبتوا على الاتقاء عن الشرك وعلى الإيمان بما يجب الإيمان به، وعلى الأعمال الصالحة لتحصيل الاستقامة التامة التي يتمكن بها إلى الترقي إلى مرتبة المشاهدة ومعارج ان تعبد الله كأنك تراه، وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ وبه ينتهي للزلفى عند الله ومحبته والله يحب المحسنين. وفي هذا النظم نتيجة من قوله صلى الله عليه وسلم ((ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهد أن تكون بما بيد الله أوثق منك بما في يديك)) وهذا دفع للتكرير وإنه ليس لمجرد التأكيد لأنه يجوز فيه العطف بثم، كما صرح به ابن مالك في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بل به باعتبار تغاير ما علق به مرة بعد أخرى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (95) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (98) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ نزل في أهل عمرة الحديبية حيث ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون، فكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، وكانوا يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعنا برماحهم. فنزلت الآية يعني ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ والله ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ﴾ وَلَيُعامِلَنكم مُعامَلَة المختبِرِ ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي ليتعلق علمه سبحانه بمن يخافه غيبا فلا يتعرض للصيد ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي فمن تجاوز حد الله تعالى وتعرض للصيد ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأن المتعرض للصيد في الدنيا متعرض للقيد في الآخرة حيث إن المتجاوز من الحدود لا يهتم بأحكام الباري تعالى ومن لم يهتم بالأحكام إن لم يكن كافرا فهو آثم والآثم معذب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ الصيد: وإن كان يشمل ما يؤكل لحمه وغيره إلا أن الشافعي خصه بالمأكول لأنه الغالبُ فيه عرفا وأيّد ذلك بما رواه الشيخان: (خمس يقتلن في الحل والحرم: العقرب، والحدأة، والغراب، والفأرة، والكلب العقور) وفي رواية لمسلم والحية بدل العقرب. وذكر القتل دون الذبح ونحوه للإيذان بأن الصيد وإن ذبح <208>

في حكم الميتة. وإلى ذلك ذهب الإمام الأعظم ومالك وأحمد وهو القول الجديد للشافعي رضي الله عنه ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾ أي ذاكرا لإحرامه عالما بحرمة قتل ما يقتله، ومثله من قتله خطأ للسّنة ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ﴾ أي فعليه جزاء مماثل لما قتله ﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ وهذه المماثلة باعتبار الخلقة والهيئة عند مالك والشافعي، وباعتبار القيمة عند أبي حنيفة رضي الله عنهم. وقال يقوّم الصيد حيث صيدَ؛ فإن بلغت القيمة ثمن هدي تخير بين أن يهدي ما قيمته قيمته، وبين أن يشتري بها طعاما، فيعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوما، وإن لم تبلغ تخير بين الإطعام والصوم ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ صفة جزاء ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ ومعنى بلوغه لها ذبحه بالحرم والتصدق به هناك ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ والمعنى عند الشافعي أو أن يكفر بإطعام مساكين ما يساوي قيمة الهدي من غالب قوت البلد، فيعطى كل مسكين مدا. ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أي أو ما ساواه من الصوم فَيَصوم عن طعام كل مسكين يوماً. وإنما قرر عليه الجزاء ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي لينال ثقل فعله وسوء عاقبته بهتكه لحرمة الإحرام أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من قتل الصيد محرما في عهد الجاهلية أو قبل التحريم في الإسلام، أو في هذه المرة ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ علاوة على الكفارة المقررة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ممن عاد إلى ما فعله من الذنوب. ولما ذكر تحريم صيد البر على المحرم ذكر حكم صيد البحر للمحرمين فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ أي ما صيد منه، وهو عند الشافعي ما لا يعيش إلا في الماء على أي صورة كانت فخرج منه: الضفدع، والسلحفاة، والحية... وغيرها مما يعيش في البحر وفي البرّ لقوله عليه الصلاة والسلام في شأن البحر: ((هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته)) وعند <209>

أبي حنيفة لا يحل منه إلا السمك. وقيل يحل السمك وما يؤكل
نظيره في البرّ ﴿وَطَعَامُهُ﴾ أي وأحل لكم طعام البحر وهو ما
قذفه البحر إلى الخارج، أو ما نضب عنه الماء فمات في
الساحل ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي تمتيعا لكم ولسيارتكم
يتزودونه قديدا أي للمقيمين وللمسافرين ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ
الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ والمراد بصيد البرّ ما يصطاده المحرم فلا
يشمل ما صاده الحلال ولم يكن له دخل فيه. وعليه الجمهور.
وقيل: يحرم على المحرم كل ما صيد في البر وإن لم يكن
للمحرم دخل فيه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ جَعَلَ اللَّهُ
الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ أي جعل الله الكعبة التي
هي البيت الحرام وسيلة قيام وبقاء للناس واستفادتهم منها
في الدين بركة وعبادة وصلاة وطوافا واعتكافا فيها، وفي الدنيا
بأن جَعَلَها مأمناً لا يتعرض للناس فيه، ووسيلة توفير الرزق فيه
من الحجاج والمعتمرين وسائر الوافدين عليها. ﴿وَالشَّهْرَ
الْحَرَامَ﴾ أي وجعل الشهر الحرام أي الذي يؤدى فيه الحج وهو:
ذو الحجة أو جنس الأشهر الحرم قياما لهم. ﴿وَ﴾ كذلك جعل
﴿الْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ أي ذوات القلائد وهي البدن. قياما لهم وبركة
ينتفعون بها ﴿ذَلِكَ﴾ أي الجعل المذكور أي كل ما ذكر من
الأحكام شرعت ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومن جملتها ما ترد
عليكم من المنافع والمضار فقرر ما قرر لجلب المنافع إليكم
ودفع المضار عنكم. ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فرحمته وسعت كل شيئ وقد كتبها للمتقين.
وعذابه يقع على من استحقه إلا إذا عفا عنه، فابتعدوا عن
الذنوب والآثام، واقلعوا عنها ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد
بلغكم وأشهد الله والملائكة والناس عليه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فلا تخفى عليه خافية قطعا. <210>

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100)﴾

عن جابر قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر تحريم الخمر، فقام أعرابي فقال: إني كنت رجلا كانت هذه تجارتي فاعتقبت منها مالا، فهل ينفع ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله تعالى؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تعالى طيب !!!لا يقبل إلا الطيب)) فأنزل الله تعالى الآية تصديقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه الواحدي والأصبهاني في الترغيب. وقوله فاعتَقَبْتُ أي فاقْتَنَيْتُ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ أمر الله رسوله الحبيب أن يقول للناس أو للسائل عن حكم ماله الخاص الحاصل من تجارة المخدرات أنه لا مساواة عند الله سبحانه وتعالى بين الرديء والجيد من الاشخاص والاعمال والاحوال ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإن العبرة بالكيفية لا بالكمية، والمحمود القليل خير من المذموم الكثير. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي فاتقوا عذاب الله في اقتناء الخبيث، وإن كان كثيرا، واختاروا لأنفسكم الطيب وآثروه، وإن كان قليلا، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين أن تفوزوا بالفلاح والنجاة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101)﴾

عن أنس بن مالك قال: خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبة فقال رجل: مَنْ أبي؟ قال: فلان. فنزلت الآية. وعن ابن عباس قال:

كان قوم يسألون رسول الله استهزاء فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل، تضل ناقته،: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم الآية. أخرجهما البخاري وعن علي لما نزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ... ﴾ قالوا: يا رسول الله أفي كل عام؟ فسكت. قالوا: يا رسول الله أفي كل عام؟ قال: لو قلت نعم لوجبت. فأنزل الله الآية أخرجه أحمد والترمذي والحاكم. ولا مانع أن تكون نزلت بسبب الأمرين معا.

والمعنى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ كونوا على رعاية الأمور المهمة التي تحتاج إلى الكشف والبيان من أمور الدين أصلا وفرعا، ومن ضروريات الحياة التي يستفيد الإنسان من العلم بها فائدة جليلة. و﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ لا خير لكم فيها من نحو التكاليف الصعبة التي لا تطيقونها والأسرار الخفية التي قد تفتضحون بها، فكما أن السؤال عن الأمور الواقعة مستتبع لإبدائها كذلك السؤال عن تلك التكاليف لإيجابها عليهم بطريق التشديد (لإِساءتهم) الأدب وتركهم ما هو الأولى من الاستسلام لأمر الله من غير بحث فيه. فقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ صفة لأشياء داعية للانتهاء عن السؤال فيها. وعطف عليها ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآَنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ ومعناه إن تلك الأسئلة إذا كانت على مقصود محمود ينبغي السؤال عنه، فهي تظهر لكم حين نزول القرآن الكريم على مرات متتالية؛ لأن المهم ينزل مشروحا، ويفي بمقصود الإنسان الحازم الطالب لفهم المقاصد المهمة، وإن لم يكن كذلك فما ينبغي السؤال عنه مطلقا لأنه لا ينبغي إضاعة الوقت على ما لا ينبغي. ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي عن المسألة التي سألتم عنها. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي بليغ المغفرة وافر الحلم يسامح أهل الذنوب لاسيما إذا كانت عن جهل، وحليم لا يستعجل بالعذاب بل كرمه يغلب غيره.

أخرج مسلم وغيره أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتعبوه في المسألة، فصعد ذات يوم المنبر وقال: ((لا تسألوني عن شيئ إلا بينته لكم)) فلما سمعوا ذلك خافوا أن يكون بين يدي أمرٍ قد حضر. قال أنس رضي الله عنه فجعلت أنظر يمينا وشمالا فإذا كلّ رجل لافّ رأسه في ثوبه يبكي، وأنشأ رجل كان إذا لاحى أي نازع أحدا يُدعى إلى غير أبيه، فقال: يا رسول الله من أبي؟ قال أبوك حذافة. ثم أنشأ عمر رضي الله عنه فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا. نعوذ بالله تعالى من الفتن. ثم قال رسول الله: ((ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط ! إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط)) وذكر ابن شهاب أن أم ابن حذافة واسمه عبدالله قالت له لما رجع إليها: ما سمعت قط أعق منك ! اَمِنت أن تكون أمك قارفت بعض ما يقارف أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس ! فقال ابن حذافة: لو ألحقني بعبد أسود للحقته ! وأخرج غير واحد عن قتادة أن هذه الآية نزلت يومئذـ

ومما يحسن أن نعلم أن لفظ أشياء لما استعملت غير منصرف، وظاهره أنه جمع شيئ كبيت وأبيات وليس فيه أسباب منع الصرف اختلفت آراؤهم. فذهب سيبويه والخليل إلى أن الهمزة للتأنيث وأن الكلمة اسم مفرد يراد به الجمع كالحلفاء والطرفاء. فأشياء في الأصل شيئاء بهمزتين بينهما ألف، فقدمت الهمزة الاولى التي هي لام الكلمة على الفاء لاستثقال همزتين بينهما ألف قبلهما حرف علة، والهمزة الثانية زائدة للتأنيث ولذلك لا تنصرف، ووزنها لفعاء. وقصارى ما في هذا المذهب القلب وهو كثير في كلامهم. وذهب الفراء إلى أنها جمع شيئ بياء مشددة وهمزة بوزن هين وليّن، إلا أنهم خففوه فقالوا شيئ كَميْتٍ، وبعد التخفيفـ جمعوه على اَشْيئاء بهمزتين بينهما ألف بعد ياء بزنة أفعلاء فاجتمعت همزتان إحداهما لام الكلمة

والأخرى للتأنيث، فخففوا ذلك بقلب الهمزة الاولى ياء ثم حذفوا الياء الاولى التي هي عين الكلمة فصار وزنه أفعلاء.

وقيل في تصريف هذا المذهب: إنهم حذفوا الهمزة التي هي لام الكلمة لأن الثقل حصل بها فوزنها اَفعاءُ، ومنع الصرف لهمزة التأنيث واستحسن هذا المذهب لو كان دليل على أن أصل شيئ بالتخفيف شيئ بالتشديد. وقال الأخفش إنها جمع شيئ بوزن فلس وأصلها أشيئاء بهمزتين بينهما ألف بعد ياء ثم عمل فيه ما مر. ورده الزجاج بأن فعلاء لا يجمع على أفعلاء.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (102)﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما هم قوم عيسى عليه السلام سألوه إنزال المائدة ثم كفروا بها. وقيل: قوم صالح سألوه الناقة ثم عقروها وكفروا بها. وعن مقاتل: هم بنو إسرائيل كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء فإذا أخبروهم كذبوهم. وقيل غير ذلك.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (103) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (104) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)﴾

<214>

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾ معناه ما شرع تعالى في دين من الأديان ﴿مِنْ بَحِيرَةٍ﴾: وهي الناقة التي نتجت خمسة أبطن آخرها ذَكَرٌ فشقوا أذنها، وخلوا سبيلها، فلا تركب، ولا تحلب بحجة أن الله تعالى حرم الاستفادة منها بعد ذلك. والبحيرة: من البحر بمعنى الشق لأنهم كانوا يشقون أذنها. ﴿وَلَا سَائِبَةٍ﴾: من سبيته إذا تركته وأهملته يعني يُعْرَض عنها وتترك بدون انتفاع منها. وهي الناقة التي تنتج عشرة أبطن إناث فتهمل، ولا يشرب لبنها إلا لضيف أو ولد. ﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾: وهي شاة نتجت سبعة أبْطُنٍ عناقين عناقين، ونتجت في آخرها عناقا وجديا: ذكرا وأنثى. قيل: وصلت أخاها؛ فجرت مجرى السائبة أهملت مرضية مرعية بدون أتعاب لها في الركوب ولا شرب لبنها. ﴿وَلَا حَامٍ﴾: وهو جمل نتج من صلبه عشرة أبطن وكانوا يحرمون ركوب ظهره أو تحميله شيئا، ولا يمنعونه من ماء ولا مرعى وقالوا في حقه: قد حمى ظهره. ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بنسبة تحريم ما ذكر إليه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يميزون الحلال من الحرام والمباح من المحرّم وإنما يطبقون ذلك تقليدا بلا بصيرة لأسلافهم الأجلاف. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ في مقام النصيحة ودعوتهم إلى التوحيد والتزام الشريعة ورفض ما اخترعوه من المفتعلات: ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا﴾ مما قلدناهم فيه ﴿أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾: الواو للحال والهمزة للإنكار أي اَحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا لا يعلمون بأنفسهم طريق النجاة ولا يهتدون بهدي الناصحين المرشدين من الأنبياء والمُرسَلين وورثتهم من العلماء العاملين؟ !

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ قد سمعتم أخبار الأمم الكافرة التي أبت استماع أوامر الله ونواهيه على ألسنة المرسلين، وعلمتم أن هناك أناسا يتمردون أمثال أولئك المارقين ولا ينفعهم الزجر والردع بآيات الله البينات، ولا بأدلة العلماء

العاملين ف ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ألزموها وعلموها وأدّبوها وزكوها بالعلم المشرق والعمل الحق، ولا تكسلوا عن الاستعداد للاستشراق بأنوار شريعة الخلاق ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ في دنياكم ولا دينكم ضلال ﴿مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ بهدي الرسول الأمين من ترك المحرمات وأداء الواجبات العينية والكفائية في الدين. ومن جملتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحادث من المعتدين ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ المخلصون والمفلسون ويحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

تنبيه: أشرت بقولي: ومن جملتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى دفع ما يتوهم من ظاهر الآية أنه يجوز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان الإنسان سالما في نفسه مراعيا لحق الباري من فعل المأمورات وترك المنهيات وذلك باطل؛ لأن الاهتداء لا يتحقق إلا بأداء ما لزم المكلف قولا وفعلا، ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

روى ابن مردويه عن أبي بكر بن محمد قال: خطب أبو بكر الصديق الناس فقال في خطبته: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس لا تتكلوا على هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إن الداعر يكون في الحيّ فلا يمنعونه فيعمهم الله تعالى بعقاب. فمعنى الآية الشريفة أنه إذا اهتديتم بترك المحرمات وأداء الواجبات، ومن جملتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فحين ذلك لا يضركم ضلال من ضل في الأفكار والأعمال، وانحرف عن الصراط المستقيم. وعلى ذلك فالاهتداء يستوعب كافة الأحكام ومن جملتها ذلك. ومن الناس من فسر الاهتداء هنا بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين فقط.

ومن الناس من قال إن الآية تسلية لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ولكن لم يقبل منه لغلبة الفسق وبعد العهد بالوحي، ومعناها حينئذ إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وما قبله الناس الفاسقون فليس عليكم شيئ من الذنوب لأنكم أبرأتم ذمتكم بالامر والنهي ولستم بمسيطرين على المتكبرين. أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال: يا رسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم فقال صلى الله عليه وسلم: ((يا معاذ مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فإذا رأيتم شُحّاً مطاعا، وهَوىً مُتَّبَعاً، وإعجاب كل امرىء برأيه فعليكم أنفسكم)).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آَخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآَثِمِينَ (106) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآَخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (107) ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (108) ﴾

عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية قال: برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بداء، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فَاتَيا الشامَ لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة، ومعه جامٌ من فضة فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله.

قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناها، أنا وعدي بن بداء. فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا: ما ترك غير هذا وما دفع الينا غيره. قال تميم: فلما أسلمتُ بعد قدوم الرسول المدينة تأثمت عن ذلك، فأتيت أهله وأخبرتهم الخبر وأديت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها. فأتوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم البينة فلم يجدوا، فأمرهم أن يستحلفوه فحلف بما يعظم به عند أهل دينه. فأنزل الله الآيات إلى ﴿الْفَاسِقِينَ﴾. فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بدّاء. أخرجه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم.
والجام هو الإناء من فضة، وفي بعض الروايات: وكان مخوَّصاً أي عليها صفائح الذهب أي منقوش مموه بالذهب مثل خوص النخل.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ أي يا أيها الذين آمنوا من جملة الأحكام المشروعة فيما بينكم ما سيأتي وهو ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي قاربه ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ أي حين الإدلاء بها وبيانها لنفع الورثة في المستقبل أو منفعة نفسه لبراءة ذمته من حقوق الله أو حقوق الناس ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي شهادة رجلين عادلين من المسلمين ﴿أَوْ آَخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي أو شهادة رجلين آخرين من غير المسلمين لضرورة ضبطها من المريض المقارب للموت لأدائها عند الحاجة.

واعتبار غير المسلمين في الشهادة كان في صدر الإسلام لقلة المسلمين. وأما بعده فلا اعتبار لها فالحكم منسوخ وعلى هذا الرأي الإمام الشافعي ومالك والنخعي. وأما أبو حنيفة فيعتبرها صحيحة في أي وقت لاسيما عند الحاجة. وهذا النوع من تحمل الوصية للشهادة بها ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾.

وقال الإمام الرازي: إن قوله تعالى إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت: المقصود منه بيان أن جواز الاستشهاد بآخرين من غير المسلمين مشروط بما إذا كان المستشهد مسافرا ضاربا في الأرض وحضرت علامات نزول الموت. وعلى ما ذكره يكون قوله تعالى ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي توقفونهما إلى ما بعد صلاة العصر الذي يجتمع فيه الناس ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ أي ذانك الشاهدان اللذان من غير المسلمين قسماً ﴿بِاللَّهِ﴾ تعالى ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي وقعتم في ريب وشبهة من صدقهما أيضا مربوطا بالشاهدين اللذين كانا من غير المسلمين. وإلا فالشاهد المسلم لا يوقف ولا تقيد شهادته بما بعد الصلاة ولا يحلف، ومنهم من يقول: إن التوقيف إلى العصر وما بعده جائز للشاهد المسلم وغيره عند وقوع الريب والشبهة في حقه.

وقد روي عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه كان يحلف الشاهد والراوي عند التهمة. ويقولان في حلفهما: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي يؤديان الشهادة ويقولان: نشهد أن فلانا قال في وصيته إن هذا مال فلان وذاك حقه إلى آخر ما ذكره، ونقسم بالله لا نشتري بأدائنا لهذه الشهادة ثمنا قليلا أي متاعا نقداً أو غيره قليلا بالنسبة إلى عذاب الآخرة ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ الإنسان الذي تصله المنفعة بشهادتنا ﴿ذَا قُرْبَى﴾ لنا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أي ولا نضيع الشهادة التي كانت في ذمتنا، وأمرنا الله بأدائها على وجه الحق ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآَثِمِينَ﴾ بكتمنا لها. ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ <219>

أي فإن وقع العثور والإطلاع بعد ذلك على أن الشاهدين أديا الشهادة على غير وجه الحق واستحقا بذلك إثما ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي فشاهدان آخران غيرهما يقومان مقام الآثمين في أداء الشهادة على اعتقادهما الراجح ويعارضان بشهادتيهما شهادتيهما ويعود الحق لأهله. وهذان الشاهدان الآخران يكونان ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ أي استحق الإثمَ الشاهدان اللذان كانا هما الأوليان والأوفقان بالإيصاء إليهما من جانب المريض الموصي. وفيه إشارة إلى الزجر والتوبيخ لهما لأنهما كانا من المختارين عند المريض وحَمَّلهما الأمانةَ وقد خاناه وخانا الله وخانا الورثة. وقرئ ﴿الْأَوْلَانِ﴾ تثنية الأول ومعناه ظاهر لتقدمهما في الشهادة. فقوله ﴿اسْتَحَقَّ﴾ بفتح التاء فعل مبني للفاعل ﴿الْأَوْلَيَانِ﴾ فاعل ﴿عَلَيْهِمُ﴾ مفعول به غير صريح. والمعنى: استحق الشاهدان الأوليان الإثم على الورثة أي على اِضرار الورثة. وقال ابن السري معناه استحق عليهم أداءُ الوصية. والاوليان بدل من آخران أي فآخران يقومان مقام الآثمين، وهما الاوليان والاوفقان بقبول شهادتهما لأن الوصيين قد خانا في حقهما ومقابلة الخيانة ودفعها جائز بل مستحب بل واجب بحسب المواقع ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ بعد أدائهما الشهادة: ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ لأن شهادتنا كانت مبنية على إطلاعنا بخيانة الشاهدين الأولين، وحصل لنا الاعتقاد الراجح بأن المالَ مالُنا ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي وما تجاوزنا الحق في شهادتنا وقولنا نشهد أن المال الفلاني عائدٌ إلينا ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسنا إن تجاوزنا الحق. ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ قوله او يخافوا معطوف على يأتوا أي ذلك المنهج المشروع الشامل على الاهتمام بشهادة عادلين منا، أو رجلين آخرين من غيرنا مع <220>

القيود اللاحقة أقرب وأوفق إلى إتيانهما بالشهادة على وجهها حالكونهم يخافون الله سبحانه وتعالى في الآخرة، أو يخافون أن ترد أيمان منهما إلى جانب أصحاب الأموال بعد أيمانهم إذا كانا غير مهتمين بالشهادة فيفتضحا ويخزيا بين الناس، والخزي والعار أشد من النار على الأحرار.

يقول المفسر البيضاوي رحمه الله تعالى ما نصه: ومعنى الآيتين: إن المحتضر إذا أراد الوصية ينبغي أن يُشهِدَ عدلين من ذوي نسبه أو دينه على وصيته أو يوصي إليهما احتياطا فإن لم يجدهما بأن كان في سفر فآخرين من غيرهم، ثم إن وقع نزاع وارتياب أقسما على صدق ما يقولان بالتغليظ بالوقت، فإن اطلع على أنهما كذبا بأمارة ومظنة حَلَفَ آخران من أولياء الميت، والحكم منسوخ إن كان الاثنان شاهدين فإنه لا يحلف الشاهد ولا يعارض يمينه بيمين الوارث، وثابت إن كانا وصيين. ورد اليمين إلى الورثة إما لظهور خيانة الوصيين، فإن تصديق الوصي باليمين لأمانته أو لتغير الدعوى انتهى. وقال الشهاب: وقوله أو لتغير الدعوى أي انقلابها بأن المُدّعى عليه صار مدعيا للملك والوارث مدعىً عليه فلذا لزمته اليمين لا للرد كما مرَّ وهو الصحيح.

وفي حاشية الشهاب أيضا ما نصه: والشهادة لها معان منها: الإحضار كقوله تعالى واستشهدوا شهيدين من رجالكم. ومنها القضاء نحو شهد الله أنه لا إله إلا هو. أي قضى. ومنها: اَقَرَّ. ومنها حَكَم. ومنها حلف. ومنها علم ومنها وصى كما في هذه الآية. قلت: والظاهر عندي أن الشهادة هنا على المعنى المعروف في الشرع، لكنها في أول الامر شهادة حسبة أي إن قول العدلين الحاضرين عند الوصية للورثة قبل النزاع إن فلاناً أشهدنا قبل موته بكذا وكذا شهادة حسبة وبيان

حق لمرضاة الله. وفي وقت حدوث النزاع بين الورثة وطلب بعض منهم مقدارا وإنكار غيره له تكون شهادة مقامة بشرط طلب الورثة منه الشهادة، أو طلب القاضي. وأما شهادة الآخرين فليس إلا كلاماً مستقلا يؤدي في مقابل الرجلين الخائنين حاصله أن ذلك المال مال أصحابِهِ والله اعلم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ أي اتقوا الله في مخالفة شريعته واسمعوا كلامه سماع إجابةٍ وإطاعةٍ وإلاّ تحوّلتم فَسَقَةً ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (109) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (110)﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ يوم ظرف منصوب بقوله السابق ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي واتقوا الله وعذابه وهيبته ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ في الدنيا حين بلغتم كتابي إلى الناس وخرجتم عن عهدة التبليغ؟ ﴿قَالُوا﴾ أي الرسل الكرام من دهشتهم واضطرابهم من سؤال الملك العلام: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بتفصيل ما أجابونا به من كلمات التلبية والاسعاد أو العبارات البغي والعناد ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ بأنواعها وأصنافها وأشخاص لا يعزب

عنك شيئ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ كلمة إذ بدل من يوم. أي وذلك الجمع للرسل، والسؤال والجواب واقع ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ﴾ أما عليك فبما يأتى، وأما على والدتك فبولادتك منها ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي بجبريل الأمين عليه السلام، أو بتحقق روح لك مربوطة بحضرة القدس بتوالي نزول الأنوار عليها ودوام الشهود ونظرات رحمة الباري إليها حالكونك ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ كلاما لا يليق الا باصحاب الرسالة والعهد ﴿وَ﴾ تكلمهم ﴿كَهْلًا﴾ بآيات كنت لتبليغها أهلا ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ أي الكتابة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ والكلام الرصين المحكم الصواب ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾ المنزل على موسى ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ المنزل عليك انت ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ تصورها من جنسه وذلك ﴿بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ أي في تلك الهيئة ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ الأعمى من الولادة والإنسان ﴿وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ فتخرجهم انسانا سويا حيا بهيا ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ أي منعت ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ حين هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي المعجزات الواضحة ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا﴾ أي ما هذا الأمر الصادر من عيسى ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ واضح بلا شبهة.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (115)﴾

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آَمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾. أي واذكر إذ ألهمت الناس الذين قررت أن يكونوا من حوارييك أن آمنوا بي وبرسولي عيسى ابن مريم. أو أوحيت إليهم على لسان عيسى فقلت له يأمركم الله بالإيمان بي وبرسولي فوقع في قلوبهم نور الإطاعة والتوجه إلى الخالق البارئ و﴿قَالُوا آَمَنَّا﴾ بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وبرسوله المولود من أمه الصديقة بنفخة من جانب جبريل المأمور بها من الرب الجليل، وبكل ما يأتينا به من الله القدير ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ ونسترحمك يا الله أن تقبل إيماننا وتراقبه بإحسانك إلى يوم لقائك، وأن تعاملنا على أننا مسلمون منقادون مخلصون لك ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

قيل: كيف يناسب هذا السؤال قوما أوحي إليهم بالإيمان بالله وبرسوله فآمنوا بالله وبرسوله، وترجوا من الله أن يقبل منهم ذلك؟ فأجيب بأجوبة منها: إنه لا يلزم أن يكون المؤمن، كائنا من كان، أن يعلم بجميع ما يمكن منه تعالى من أفعاله وتصرفاته. ألا ترون أن سيدنا موسى عليه السلام سأل ربه رؤيته؟ فقال: رب أرني أنظر إليك. قال: لن تراني الآية. وعلى ذلك يجوز في حق الحواريين الجهل ببعض الأمور الممكنة التي يعملها الباري سبحانه وتعالى.

ومنها أن المراد بالاستطاعة تقتضيه الحكمة والإرادة الاِلهية. وليس المراد بها القدرة لأن شمول قدرة الباري لكل ممكن واضح لا ريب فيه.

ومنها أن قولهم يستطيع بمعنى يطيع ويجيب. أي هل يجيبك ربك إذا طلبت منه إنزال مائدة لنا؟

ومنها أن الحواريين كانوا فرقتين فرقة ألهموا رشدهم وآمنوا بالله وبرسوله حق الإيمان، وهم المرادون في قوله تعالى: وإذ أوحيت إلى الحواريين والسؤال لم يكن منهم. وفرقة كانوا معهم صورة لكنهم كانوا مترددين مذبذبين بين الإيمان والنكران، وهم الذين سألوا عيسى هل يستطيع ربك الآية ويؤيد هذا الجواب قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أي أكل تبرك واختصاص بهذه المعجزة الشريفة ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ وتخلص من قبول الوساوس التي تأتيها من الشيطان، ﴿وَنَعْلَمَ﴾ علم عيان ﴿أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في دعوى الرسالة وبشائرك التي بشرتنا بها ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على نزولها ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والحاضرين عليها كي نبلغ الناس بكل قوة واطمئنان هدي رسالتك ومدى جلالتك واحترامك عند الله رب العالمين. ولما تبين أساس سؤالهم ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ عليه السلام: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ يعني سفرة تميد ويمد عليها الطعام ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ سماء كرمك وهباتك وعلو عظمتك فيضك وإحسانك ﴿تَكُونُ﴾ المائدة ﴿ لَنَا عِيدًا﴾ سعيدا يبقى أثرها زمانا مديدا، لا لنا نحن الحواريين فحسب بل ﴿لِأَوَّلِنَا وَآَخِرِنَا﴾ من أتباعنا، فإن رحمتك واسعة ﴿و﴾ تكون ﴿آَيَةً﴾ باهرة ومعجزة ظاهرة مِنْكَ ﴿وَارْزُقْنَا﴾ التمتع بها والشكر عليها وَأَنْتَ ﴿خَيرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإن

الرازقين صورة يرزقون من يطعمهم، وأنت ترزق المؤمنين والكافرين والناكرين والشاكرين فالحمد لك يا رب العالمين.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ تعالى مجيبا لنداء عبده عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ لتوجه رحمتي إليكم ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ﴾ بصاحب تلك النعمة الجسيمة ﴿بَعْدُ﴾ أي بَعدَ تنزيلها والأكل منها ﴿مِنْكُمْ﴾ وأنتم المتمتعون بهذه المائدة المباركة ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ﴾ بسبب كفرانه لتلك النعمة ﴿عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم.

وهذا العذاب في الدنيا كان بمسخهم قردة وخنازير. وروي ذلك عن قتادة. وأما في الآخرة فهو ما رواه أبو الشيخ وغيره عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة والمنافقون وآل فرعون. وهذه الرواية دليل على أن بعضا من الحواريين كفر بعد نزولها.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ
الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (119) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ عطف على ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ يعني وإذ قال الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؟ ! وإنما يقول ذلك توبيخا للكفار وتبكيتا لهم بإقراره عليه السلام على رؤوس الأشهاد بالعبودية لله تعالى وأمرهم بعبادته عز وجل. ﴿قَالَ﴾ عيسى عليه السلام ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي تنزيها لك من أن أقول ذلك، أو تنزيها من أن يقال في حقك ذلك أبدا. ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ يقول ما ينبغي لي أنْ أقول شيئا غير موافق للحق، وما قلته أبدا، وإن كنت قلته فقد علمته إذ لا تخفى عليك خافية، تعلم ما في نفسي من المضمرات ولا أعلم ما في نفسك من المغيبات. وذكرُ النفس وإضافتُها إلى المخاطب وهو ذات الباري تعالى للمشاكلة. أو المراد بالنفس الذات، أي ما هو معلوم عندك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ و﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ عندما كنت معهم ﴿إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ وكنت رقيبا أراعي أحوالهم ما بقيت فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي فلما قَبَضْتَني ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وبعد رفعي إلى مقامي المعلوم انحصرت الرقابة والعلم الغزير الشامل المستوعب في ذاتك ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي حاضر ومراقب ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي فلا نزاع في أفعالك لأنهم أملاك خاصة وعبيد واقفون على عتبات عزتك وقدرتك ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي وإن تغفر لهم كُلَّ سيآتهم فإنك القوي القادر على جميع شئون التصرفات <227>

وكل تصرف لك مقرون بحكمة ثابتة لا عتب من أحدٍ عليها.
﴿قَالَ اللَّهُ﴾ هذا كلام مستأنف وقع في ختام واقعة الجمع يعني قال الله تعالى ﴿هَذَا﴾ اليوم الحاضر الذي وقع فيه جمع الرسل الكرام وسؤالهم عن إجابة الأنام ﴿يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ أي الموصوفين بالصدق في توحيد الله تعالى وإرسال الرسل وما جاؤا به واستمروا على ذلك إلى أن انتقلوا من الدنيا ﴿صِدْقُهُمْ﴾ فيما ذكر، ويأتيهم ذلك الصدق بالمثوبة الحسنى عند الله وهي أنه ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لإيمانهم وصدقهم في إيمانهم واستمرارهم عليه ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وعن إفاضة كرمه ونعمته عليهم بإحسانه ﴿ذَلِكَ﴾ الرضا من الطرفين هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا يحيط به نطاق الوصف والبيان ولا غرو في ذلك الفوز العظيم الحاصل لأولئك المكلفين الفائزين بالنعيم المقيم فإنه ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ يهب ما يشاء لمن يشاء والله الفاعل المختار ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في القدرة واللطف والله هو المعين. <228>

سور الانعام مكية، وهي مائة وخمس وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (3) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (5)﴾

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الكلام في لام التعريف اَهِي للجنس أو الاستغراق؟ مشهور. والحقيقة أن مآلهما واحد، لأن الجنس إذا كان موجودا في الخارج فهو موجود بوجود الأفراد، لأن وجود الكلي الطبيعي وجود أفراده، فإذا قلنا: جنس الحمد مختص بالله تعالى، فمعناه أن هذا الجنس المتحقق في جميع الأفراد أيا كان فهو مختص بالله تعالى، وإذا قلنا: إن أفراد الحمد عموما لله كما هو الاستغراق معناه أن أفراد ذلك الجنس مختص به تعالى، ولا يليق به غيره. ومن الناس من قال: إن اللام للعهد أي إن الحمد

الذي حمد الله به نفسه ويليق بذاته، مختص به تعالى. ثم إن الحمد لله قد يكون في مقابل النعمة وقد لا، والواقع في فاتحة هذه السورة في مقابلة نعمة تستوعب أفراد النعم لأنه ربط الحمد بالمحمود ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وكل نعمة وصل أو ستصل إلى أيّ مظهر للحمد فإنما تنبع من السماء أو من الأرض فقد أفاد أن كل أفراد الحمد ثابت لله الذي نشأت منه كل نعمة أنعم بها على البرايا، وجمع السماوات، وأفرد الأرض قالوا لأن السماوات طبقات متعددة متباينة بالذات، فأما الأرض فهي، وإن ورد أنها سبع أيضا في قوله تعالى ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ لكنها متطابقة لا ترى ولا تلاحظ إلا كشيئ واحد فهي كالبصلة الواحدة فيها قشور متضامة بعضها فوق بعض. والحق أن يقال: إن ما تحت الأقدام شيئ واحد وهو الأرض التي يستقر عليها البشر وسائر الحيوانات، وإن كان في ذاتها تحتوي على طبقات مختلفة متفاوتة الآثار. واما ما علا رؤوس الإنسان فهو أمور كثيرة منها الشمس المضيئة التي تنور الكائنات، ومنها القمر، ومنها الزهرة، ومنها سائر الكواكب المشعة البعيدة. ثم قالوا: إن الفرق بين الخلق والجعل هو أن الخلق فيه معنى التقدير، وأن الجعل فيه معنى التضمين، فمعنى خلق السموات هو أن الله قدر وقرر في علمه الأزلي صورة الكائنات ثم أبدعها على ما تقرر في علمه.

وأما معنى ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أنه صير الظلمات عارضة على بعض المواد كما أنه صير الأنوار عارضة على بعض آخر، فالجعل يحتاج إلى اعتبار موصوف يقبل الصفة أي جعل الظلمات والنور صفات للمواد الكونية، وقد يستعمل الجعل بمعنى الخلق والإبداع بدون ملاحظة شيئ آخر مع ذلك المخلوق المُبدَع.

والكلام في أن الماهيات مجعولة أولا مشهور بين أهل العلم، ولكن في بيانه تفصيل، وهو أنه إذا أريد بالجعلِ الجعلُ البسيط، أي إبداع الشيئ من العدم إلى الوجود، ومن الماهية الحقيقةُ الثابتة في الخارج أو في الذهن، فكل حقيقة خارجية جوهر أو عرض مجعول بهذا الجعل، فإن الله سبحانه وتعالى أبدعها من الليسية إلى الأيسية، وكما أن الشمس تستتبع حدوث الضوء كذلك إرادة الفاعل المختار تستتبع تلك الحقيقة الخارجية عينا أو عرضا، وكذلك الماهية الموجودة في الذهن بالوجود الذهني فإن ذلك الوجود عرض من حيث قيامه بالذهن، وكيف والله تعالى يخلقه في قلب الإنسان المدرك؟ وإذا أريد بالجعلِ الجعلُ المركب، أي جعل شيئ شيئا، واعتبرنا الوجود زائدا على ماهية الموجود فكل ماهية خارجية أو ذهنية مجعولة بذلك الجعلِ لأن الله تعالى جعل الماهية متصفة بالوجود، وجعل الماهية موجودة. وإذا اعتبرنا الوجود عين الماهية فلا مجال للقول بالجعلِ بهذا المعنى، لأن الشيئ الواحد لا يتصور فيه جعل شيئ شيئا. هذا حاصل الموضوع بقدر مستوى أفكار المطالعين اليوم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ معناه ثم انظروا إلى عقول الكفار المشركين بعد أن إذا سألتهم من خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ليقولن الله فأولئك الناس الذين كَفَروا يَعْدلُونَ ويسوون الأصنام بربهم ويجعلونها شركاء لله تعالى في العبادة ويعبدونها كما يعبدون الله بزعمهم.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ استئناف لبيان كفرهم بالبعث، فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أي خلق أصلكم وهو آدم عليه السلام من الطين، أو خلق أنفسكم من الطين باعتبار أن مادة النطفة المتكونة عند الوالدين نشأتها من المواد الطينية ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ يعنى قدر

وكتب حدا معينا من الزمن للموت لا يستأخر آنا كما لا يتقدم. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى تعلق علمه بانتهاء حياة كل حي في آن معين لأسباب معينة، وعلمه تعالى غير قابل للتبدل أبدا، فعلى ذلك تبين أن الأجل لكل حيّ أجل واحدٌ، والذين زعموا أن الأجل يتعدد وأن المقتول لم يمت بأجله وقعوا في غلط فاحش، حيث لم يعرفوا معنى الأجل، وإلا لزم تعدد الأجل لكل من لدغته حية، أو صال عليه سبع، أو سقط عليه حائط، أو غرقه الماء، إلى آخر الأسباب التي يتولد الموت منها. ومنشأ الغلط تفسيرهم للأجل بالوقت الذي انحلّت أعضاء الحي فيه ولم تبق فيها قابلية النمو والبقاء مع أن ذلك تفسير موهوم. وإنما الأجل هو الوقت الذي علم الله تعالى انتهاء الحياة فيه ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أي وكما أن لانتهاء حياة الحي أجلا معينا كذلك يوجد في علمه تعالى حد معين للبعث من القبور ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ أيها المخاطبون ﴿تَمْتَرُونَ﴾ وتشكون في البعث مع أن البعث وهو الإحياء بعد الموت مثال للخلق والإيجاد أولا. فكما صدر منه البدء يصدر منه الإعادة ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. فالأساس لهذه التطورات قدرة الفاعل ووجود القابل والكل متحقق.

فإن قيل إذا كان الأجل على ما ذكرت فما وجه معصية القاتل المباشر للقتل؟ قلنا: معنى علمه تعالى بأجل الرجل تعلق علمه بأن زيداً العاصي السيئ الاختيار يباشر سبب قتل عمرو ويقتله. فهذا القاتل حقق ما علمه الباري تعالى وعلمه متعلق بأن زيدا جانٍ عاص عابث. فإن قلت: إذا كان الأمر كذلك فما معنى قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾؟ وما وجه الأحاديث الكثيرة التي تدل على أن الصدقة تدفع البلاء وتزيد العمر، وأن صلة الأرحام ومساعدة الأرامل والأيتام توجبان زيادة العمر؟ قلت: معنى الآية الشريفة واضح، ووجه الأحاديث الشريفة

لائح وليس المعنى على أن عمر الشخص كان قليلا في علمه تعالى ثم خالف علمه وزاد في مدة حياته وأخر أجله. بل المعنى إن العمر الطويل للشخص أو العمر القصير له مكتوب في اللوح المحفوظ ومعلوم عند الله تعالى، وإن عمر المتصدق على الفقراء والواصل للأرحام كتب طويلا حسب علمه بأن الرجل المطيع للدين الحسن الاختيار يفعل في المستقبل تلك الحسنات والصلات والمبرات.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ الظرفان متعلقان بالمعنى الوصفي الذي تضمنه الاسم الجليل. ومعنى الآية: وهو المعبود بحق في السماوات وفي الأرض، وليس معناه إن الله مستقر في السماوات وفي الأرض، وذلك لوجوه:

الأول: إن الأدلة القطعية دلت على أن الله تعالى واجب الوجود، وموصوف بالكمال المطلق، ومنزه عن النقص مطلقا. والاحتياج إلى المحل والمستقر نقص أي نقص.

الثاني: إن الله تعالى قديم أزلي والسماوات والأرض حادثتان، فلو احتاج الباري إلى المحل لزم احتياجه إلى الحادث، واحتياج القديم الى الحادث غير معقول.

الثالث: إنه الله تعالى أزلي قديم، والسماوات والأرض حادثتان فلو احتاج الباري إليهما لزم احتياجه قبلهما إلى غيرهما من الأمكنة الحادثة، ولزم احتياجه قبلها إلى مكان آخر حادث فلزم أن لا ينفك الباري عن المكان ولزم قدم المكان مع أن استغناء الباري عن المكان وحدوث كل ما سوى الله محقق ومعلوم بالإجماع.

الرابع: إنه لو كان الله تعالى محتاجا إلى المكان وجب أن يكون مكانه مساويا له لأن نقصان المكان عن المتمكن وزيادته عليه ممتنع بالذات، فلزم

من استوائه لمكان بُعداً ومَسافةً كونُ الباري تعالى على مسافة من البدن ومركباً من أجزاء محدودة، ولزم من ذلك احتياجه إليها وذلك شعار الحدوث وممتنع عليه تعالى، فوجب إما السكوت عن هذه الآية الكريمة وما شابهها وتفويضها إلى الله تعالى مع الإيمان بصدقها ومطابقتها للواقع وإما تأويلها بحيث يتناسب مع وجوب وجود الباري تعالى وقدمه واستغنائه عن كل حادث كما أفادها المحققون من المفسرين.

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي ما أسررتم وجهرتم به من القول والفعل ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي ما تفعلونه لجلب مصلحة أو طرد مضرة. كيف لا وهو عالم لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ سواء كانت تنزيلية أو تكوينية من الخوارق للعادة معجزات أو كرامات له صلى الله عليه وسلم أو لأحد أصحابه أو أتباعه ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ غير مقبلين ولا معتنين ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وهو القرآن الكريم الذي لا يرفضه إلا اللئيم ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فإن الله تعالى عالم بجميع سيّآتهم من الكذب والافتراء والبهتان والاستهزاء والعناد والعداء والبغي والشحناء وهو تعالى، وإن كان له إمهال فلا إهمال منه، تعالى رب العالمين.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (6) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (9) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10)﴾

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ الآية استئناف مسوق لتعيين ما هو المراد بما تقدم، يعني الزجر والتوبيخ على المعاصي والتحريض على الإيمان بالله ورسوله. واختلف في مقدار مدة القرن فقالوا: مائة وعشرون سنة وقيل: مائة. وقيل: ثمانون، وقيل: سبعون وقيل: ستون. وقد تقرر اليوم على مائة سنة. فيقال: نحن في القرن الخامس عشر الهجري على هاجرها الصلاة والسلام.

والمعنى: و﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ﴾ أهل ﴿قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أي جعلناهم متمكنين في الاستقرار على الأرض والاستيلاء عليها واستغلالها في منافعهم وطرد الأعداء بحيث لم نمكن لكم بتلك الدرجة ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ عليهم ﴿السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ كثير الدرّ بالخيرات ـ ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أي مكناهم من البنيان والقصور والحدائق والأوراد وشق الأنهار الجارية فيها من تحت الأبنية العالية، فصارت دورهم كمنتزهات لهم، ولكنهم لما استغنوا طغوا على الحق وبغوا في الأرض وأفسدوها بإفساد أهلها، وجعلوا يذنبون بدون زاجر ورادع حتى جاء وقت القضاء عليهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي أهل قرن آخرين. وكلما جاءت أمة لعنت أختها لبغيها وعدوانها، وهكذا الدنيا فلا ينجو أحد من عذاب رب العالمين.

وأولئك المتمردون الموجودون في قرنك مثل أهل القرون السابقة بل أشد شكيمة وأفظع حالا وطبيعة، ولا يزالون في عنادهم ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ من السماء ﴿كِتَابًا﴾ مسطورا من النور ومن أصول الدستور مكتوبا ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ مما اعتاده الناس ﴿فَلَمَسُوهُ﴾ أي الكتاب أو القرطاس ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ حتى لا يبقى عندهم مجال شبهة ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ واعتقدوا أنه من غير الله تعالى

وَإِذا البَيِّناتُ لَمْ تُغْنِ شَيْئاً فالْتِماسُ الهُدى بِهِنّ عَناء

﴿وَقَالُوا﴾ بوجه آخر في قدحهم في رسالتك: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ نراهُ بأعْيننا ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا﴾ عليك ﴿مَلَكًا﴾ بصورته الحقيقية حتَى يَرَوْهُ ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لتم أمر إهلاكهم وإبادتهم عن بكرة أبيهم، إما لهول منظره الرهيب أو لجريان سنة الله بأن إنزال الملك في حال طغيان الأمة لم يكن إلا لاستئصالها ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يُمْهلون. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ يعني ولو جعلنا الرسول النذير الذي اقترحتم إنزاله ملكا لجعلناه رجلا وصورناه بصورته، حتى يتمكن الناس من لقائه ويحشرون معه في مدة بقائه بينهم، لأن الرسول الملك لو أنزل ملكا وفي صورة الملائكة لم يمكنهم مجاورته لعدم استطاعتهم بهذه القوة الاعتيادية الاستفادة منه، لمهابة الملك في صورته الحقيقية وكان يغشى عليهم إذا رأوه، وإذا جعلناه رجلا كان كمثل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والناس اعتقدوه بشرا وللبسنا عليهم ما يلبسون معناه لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم، فيقولون: ما هذا إلا بشر مثلكم كما يقال في المثل العربي:

(عادت الهيفاء إلى ديدنها) يعني إن طبعكم المستمر على التمرد والعصيان والقدح في الرسول صلى الله عليه وسلم بالأساليب الخاطئة لازم لكم لا ينفك فلا فرق حينئذ بين إنزال الملك وإنزال البشر. والذي يطعن في الشمس بأنها أحمرانية يطعن في البدر بأنه أكدراني، والرسول مثل الرسول، والبشر مثل البشر، والطبيعة مثل الطبيعة إلا من هداه الله إلى الحقيقة.

ومما ينبغي أن يعلم أن هذه الآيات الثلاث لها أسباب للنزول، فأما الآية الأولى أعني ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ فقد نزلت في النضر بن الحرث وعبدالله ابن أبي أمية، ونوفل بن خويلد لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنك رسوله. فنزلت تلك الآية وردت عليهم بأن حصول مأمولهم لا يفيدهم لأنهم قوم تمردوا واستمروا على العناد ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

وأما الآية الثانية فقد نزلت في جواب واحد من مقترحين اقترحهما جمعٌ من مشركي مكة، فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام وكلّمهم، فَابلَغَ إليهم فيما بَلَغني، فقال له زمْعَةُ ابن الأسود ابن المطلب، والنضر ابن الحرث بن كلدة، وعبدة ابن عبد يغوث وابي بن خلف بن وهب والعاص بن وائل بن هشام: لو جُعِلَ معك يا محمد ملكٌ يُحدثُ عنكَ الناس ويرى معك!فأنزل الله تعالى قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ وسر قضاء الأمر فيهم وإهلاكهم اما عدم قابليتهم لرؤية الملك في صورته الحقيقية، وإما لأنه لو أنزل الله الملك حسب

اقتراحهم وهم الذين طبعوا على العناد ما كانوا يؤمنون، فاستحقوا الإهلاك لأن اقتراحهم لم يكن لمطلق المعجزة كيف كانت، بل كان معجزا خاصا تعلق به أمَلهم، فاذا أجيبوا وفق مقترحهم ولم يؤمنوا كانوا على غاية من العناد، وسنة الله تعالى جرت في تلك الحالة على إهلاك المقترحين.

وأما المقترح الثاني لهم هو أنهم اقترحوا أن يكون الرسول الذي يأتيهم غير البشر ويكون ملكا، فردهم الله تعالى بالآية الثالثة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ ومعناها: ولو جعلنا النذير الذي اقترحتم إنزاله ملكا لمثلنا ذلك الملك رجلا لعدم استطاعتكم معاينة الملك على هيكله الاصلي، ولو جعلناه رجلا لَلَبسنا عَلَيهم ما يلبسون، يعني لجعلنا عليهم الحالة التي هم عليها الآن مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فإن الملك لما تمثل برجل من الرجال لا يكون فيه مزية من محمد صلى الله عليه وسلم. وكما أنكروا عليه كذلك كانوا ينكرون على ذلك الرجل الذي تمثل به الملك المرسل إليهم.

والحاصل: إن هذه الاقتراحات كلها تعنت ولم يتحقق شيئ منها على وجه الإنصاف والاسترشاد، حتى إذا أجبناهم أجابونا بل كلها على التعجيز، لأنا نراهم يسخرون بالرسول سخريتهم بإنسان من العوام. ولكن مع ذلك كله لا تهتم بهم وبمقترحاتهم وباستهزائهم ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وهذه الآية تسلية له صلى الله عليه وسلم عما يصيبه من قومه. يعني يا حبيبي لست بأول رسول استهزأ به قومه، فكثير من الرسل الكرام استهزأ به من قومه الجهلة اللئام، وكان النصر حليفه في العاقبة كما أن عاقبة

أولئك الجهال كان الدمار في الدنيا والنار في الآخرة. وهذه سنة الله في خلقه، والتأريخ يعيد نفسه بحقه.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11) قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا﴾ خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وأمر له أن يقول لقومه المتمردين سيروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ومواقع البلاد المعمورة منها حتى تتضح لكم أحوال الأمم الخالية المتمردة وما نزل عليهم من المصائب بسبب تمردهم ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾ بعيون الإبصار وقلوب الاعتبار حتى تعلموا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ وبديهي عند ذلك النظر والاعتبار تعلمون أن

عاقبتهم كانت سيئة، وعلتها البغي والطغيان والتمرد الموجود فيكم بزيادة، فتعلمون أن عاقبتكم هي الدمار في الدنيا والنار في الآخرة.

﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لقومك على سبيل التوبيخ: ﴿لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الكواكب والأنوار والأمطار وسائر الخيرات، ومن المعادن والنباتات والحيوانات؟ وإذا سكتوا عن الجواب خجلا ف ﴿قُلْ﴾ نيابة عنهم: كل ما ذكر ﴿لِلَّهِ﴾، لأن كل عاقل يعلم أن تلك الأشياء ليست واجبة الوجود فلها مؤثر رجح وجودها وذلك المؤثر هو الله الواجب الوجود ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وقل: إن ذلك الذات كتب على ذاته الرحمة ولذلك لا يستعجل بعذاب الكفار المتمردين ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ويحاسبكم على إشراككم وسائر معاصيكم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مال العقل والتفكر فيما هو فيه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فإذا خسروا رؤوس أموال العقول فهم لا يؤمنون. ﴿وَلَهُ﴾ أي لذلك الذات الكثير البر والإحسان جميع ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ واستقر أي وله كل ما اشتملا عليه من المائع والجامد والمؤمن والجاحِدِ ملكا وتصرفا وإفناء وإبقاء لا يمنعه مانع ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ القوى السمع لكل ما يسمع من الأصوات الجهرية والسرية و﴿الْعَلِيمُ﴾ الوافر العلم بكل ما يتعلق به العلم أبدا. ﴿قُلْ﴾ يا رسولي مستنكرا لما أصروا عليه من الكفر والجحود والإشراك في المعبود ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ الجامع للكمال المانع عن النقص ﴿أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ ناصرا ومولىً ينصرني ويؤيدني أعبده وأسجد له حال كونه ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وموجدهما من العدم إلى الوجود. والفاطر: هو الباديء بالشيء خلقا وإيجادا، أو صنعا واكتسابا ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي وهو يعين ولا يعان، يرزق ولا يرزق؛ لأنه الغني المطلق.

﴿قُـلْ إِنِّي أُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْـلَمَ﴾ من هـذه الأمـة فـأمرني ربي أن أكـون مسـلما موحـدا، ونهـاني عن الإشـراك، وقـال: ﴿وَلَا تَكُـونَنَّ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ﴾ أحـداً بـه؛ لا في وجـوب الوجـود، ولا في الخلـق وإيجـاد الموجـود، ولا في العبـادة من أشـباه الطاعـات والركـوع والسـجود، وأدّبـني أن أمشـي على سـنته في الكائنـات، وأباشـر الأسـباب في جلب كـل خـير من الخيرات ورفع كل شر وآفات ﴿قُلْ إِنِّي أَخَـافُ إِنْ عَصَـيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فإن الخالق أعظم من كل عظيم، وإطاعتـه عبارة عن العبادة وانتهاج الصراط المسـتقيم، وجـزاء العـاملين المثوبة الحسنى والنعيم المقيم، وجـزاء العـاطلين عـذاب النـار الأليم. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أي عذاب ذلك اليوم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم نيل الجزاء ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الله ﴿وَذَلِكَ الْفَـوْزُ الْمُبِينُ﴾ وهـو الـذي لا مانع لمـا أعطـاه، ولا معطي لمـا أبـاه. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْـكَ اللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِضُرٍّ﴾ لمـرض ومخافـة وفقـر حـال وآفـة ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ فلا قادر على كشفه إلا هو لأنه هو الذي أبداه وهو الذي يزيلـه ويفنيـه، وكـل مـا قـرره وشـرعه من الأسـباب النافعة والدافعة من الاستفادة بمداواة الطبيب، أو الالتجاء الى ملجأ رهيب، أو الاستغاثة بإنسـان نـافع بعيـد أو قـريب، أو تعلم العلاج من أستاذ مرشد لبيب... فمن الأسباب.

وقد قال تعالى: ﴿وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وذلك كله هدى الله يهدي به من يشاء بجلب ما شاء أو دفع ما يشاء. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ فصححك وأمنك، وأعزك، وأكرمك، فهو منه تعالى ومن مقدوراته التي يسيرها لك بفضله عليه، وإن تسألني عن مدى قدرته ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعظم عليه شيئ، فتأدبوا واكتسبوا على سنته وشريعته إلى يوم الدين. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ أي الغالب المستولي ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فوقية الغالب على المغلوب. وفوقية المعين على المكروب، وفوقية الناجح الحائز على المطلوب، لا فوقية زيد على السطوح، بل فوقية الفاتح على المفتوح. فإن الأدلة القاطعة

والبراهين الساطعة تدل دلالة لا فيها شبهة أن الله تعالى أزلي قبل كل موجود قبل الزمان والمكان، وقبل حركة الفلك بالدوران، وقبل وجود السماء والكواكب والارض وسائر الأكوان. فالفوقية النسبية باعتبار ما هو المعتاد ممتنع في حقه تعالى. والاستدلال بظاهر الآثار والإسناد عادةُ من لا ينظر إلى برهان الرشاد، ويكتفي بالظنون حسب المعتاد. وانى هذا من ذلك ! وكل ما ورد من الأحاديث الشريفة الظاهرة في إسناد الفوقية إليه تعالى فليس على معنى ثبوت الجهة والجانب، وأن يكون هو فوق شيئ فوقية مكانية، بل إنما هي من الآيات المتشابهة المفوضة إلى علم الله تعالى وتسليمها بدون البحث عنها، أو أنها مؤولة على قاعدة الخلف بتأويلات مناسبة أَظْهَرُها وأنْورها فوقية الغلبة والقدرة، كما أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ عبارة عن ارتباط علمي وسيطرة من جهة القوة والقدرة. بل يقول الإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالى: إنها ليست من الآيات المتشابهة، بل كلها كنايات عربية مفهومة لأهل العرف العام. والمراد بها ما ذكرنا.

ورفع اليدين إلى السماء في وقت الدعاء مبني على رعاية الشرف والاحترام؛ فإن الأرض تحت الأقدام والقلب فوقها، والرأس فوق الصدر، وكل ما يكون أمامك أو تحت أقدامك لا يلاحظ فيها اعتبار يمتاز به عن غيره شرفا. فالإنسان إذا دعا ربه يدعوه ويجعل الكعبة التي هي قبلة الصلاة قبلة دعائه، ولا قبلة أخرى لنا غيرها. ورفع الأيدي إلى السماء ليس إلا لاعتبار الشرف في العلو والفوقية.

ولما كان معنى لفظ القاهر والأعلى الغلبة الباهرة والسطوة الظاهرة، وذلك مما يتوهم الناس منه أن الله إذا عصاه عاص فاجأه بالانتقام، وليس ذلك كذلك لأنه سبحانه وتعالى كثيرا ما يسمح ويعفو، وقد ينتقم ويؤجل الانتقام إلى مدى بعيد.. ختم الآية بقوله ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي إن الله تعالى مع أنه قاهر فوق عباده حكيم ذو حكمة بالغة، وعالم بالأشياء على ما هي عليه، ومبالغ في إحكام الأمور وإتقانه، ولا يعمل شيئا خاليا عن المصلحة والحكمة، وخبير بأحوال العباد وأعمالهم، وما يناسب العفو أو التأجيل أو التعجيل، وكل ما يصدر منه حق واضح مبين.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)﴾

عن ابن عباس قال جاء: النحام ابن زيد، وقروم بن كعب، ومجرى ابن عمرو، فقالوا: يا محمد ما نعلم مع الله إلها غيره. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا إله إلا الله، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو. فأنزل الله في قولهم هذه الآية. رواه ابن إسحاق وابن جرير. وقيل: إن رؤساء مكة قالوا: يا محمد ما نرى أحداً يصدقك بما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فقالوا: ليس لك عندهم ذكر ولا صفة. فَأَرِنا من يشهد لك انك رسول الله. فنزلت الآية. ذكره الواحدي والبغوي.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ يعني يا حبيبي قل في جواب قولهم من يشهد لك برسالتك: أي شيئ وأي موجود في العلم أكبر شهادة على الحق من غيره؟ و﴿قُلِ﴾ أنت بنفسك في الجواب: ﴿اللَّهُ﴾ أي أن الذي هو أكبر شهادة ذات الله الواجب الوجود؛ لأنه عالم بجميع ما يمكن أن يعلم، وكل حقيقة معلومة عنده بلا شبهة وخفاء. ثم ابتدأ فقال: ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي هو شهيد يشهد على رسالتي وهو صاحب القول الفصل بيني وبينكم ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي ومن جملة ما يشهد به لي أنه أوحي إليّ هذا القرآن الذي هو فصل الخطاب لأنذركم يا قريش ومن معهم، ومَن بَلَغ، وأنذر به من بلغه من الثقلين الجن والإنس الأسود منهم والأبيض والأحمر والأصفر ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آَلِهَةً أُخْرَى﴾ إنكار واستبعاد لما يجري من المخاطبين بقوله ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أي أأنتم مع هذا القرآن العظيم الذي نزل وثبتت قدسيته بشخصه تشهدون بقوة وتأكد أن مع الله الواحد الأحد الفرد الصمد آلهة أخرى بلا وزن لوجودهم الفارغ عن الوجود لاستغناء الواجب عن الممكن والكامل عن النقص؟ ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أي قل لهم إن شهدتم بوجود آلهة مع الله فأنا لا أشهد بما تشهدون؛ لأن الوحي السليم والعقل المستقيم يأبى ذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ قل لأولئك الجاهلين الغافلين عن الحق: إنما المعبود بالحق إله واحد فحسبُ، ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي تجعلونه بزعمكم الباطل شريكا لذلك الذات الكامل، من الأصنام والهياكل المنحوتة المنحوسة. تعالى الله عما يشركون.

﴿الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20)﴾

قوله: ﴿الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ جواب عن قول الكفار ولقد سألنا اليهود والنصارى فقالوا: ليس لك عندهم ذكر، فيقول ﴿الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي يعرفون رسول الله بحليته ونعوته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ بحيث لا يشكون فيه. ومن هذا الباب قال عبد الله بن سلام في تصديق الآية: وأيم الله الذي يعرف ويحلف به ابن سلام لأَنا بمحمدٍ أشد معرفة مني بابني؛ لأني لا أدري ما أحدثت أمه ! ثم قال تعالى ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ من أهل الكتاب والمشركين ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما يجب الإيمان به.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآَيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25)﴾

قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية معناه وأيّ مكلف أشدّ وأكثر ظلماً مِمن أي من الذي ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن قال الملائكة بنات الله، أو الأصنام شفعاؤنا عنده برضاه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآَيَاتِهِ﴾ الدالة على وجوده وبعث

رسله من المعجزات القاهرة الظاهرة، وادعوا أنها سحرٌ أو غير ذلك من المفتريات !؟ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين اتصفوا بالظلم ولو كان قليلا، فكيف بمن هو أظلم الظالمين؟ فلا شبهة إنه لا يفلح لأنه ظالم ولا يفلح الظالمون.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي اذكر يوم نحشرهم جميعا ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾؟ أي أين الشركاء الذين كنتم تعتمدون عليها لتخلصكم من العذاب ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونها نافعة لكم ودافعة عنكم الهول والعذاب ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ معناه لم تكن عاقبة كفرهم وشركهم إلا البهت والحيرة وعدم الانتفاع بما اتخذوه نافعا لهم، والحلف الكاذب من قولهم: والله ربنا ما كنا مشركين ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وضاع عنهم ما كانوا يفترون بوجوده ونفعه على الله.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو آيات القرآن الكريم من مشركي مكّة ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي أغطية وحجبا مانعة من ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي يفهموه وجعلنا ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ مانعا من استماعه حق الاستماع ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ معناه وإن أبصروا بالعيون أو أدركوا بالقلوب كل آية دالة على رسالتك، وعلى صحة ما تدعو إليه من التوحيد لا يؤمنون بها لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم للإصغاء إليك أو للتأمل فيما يدل على صدقك ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي وصل عنادهم وغيهم إلى درجة لا تخليهم للاستفادة مما تقرأه عليهم، وزاد ضلالهم بحيث حتى إذا جاءوك يجادلونك ويتكلمون ويتخاصمون معك للغلبة عليك.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا﴾ أي ما هـذا المكتـوب الـذي يقـرأه عليكم ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أحاديثهم المسطورة التي تنقل وتقرأ على العادة

التقليدية، وليس بشيئ يعول عليه. وكلامهم هذا ناشئ عن جهل وعناد وفساد وإفساد. فإن الإنسان العاقل إذا سمع ألفاظا مأخوذة من الأفواه، أو مقروءة من الكتب فحقه أن يستمع لها حتى يأخذها، ثم يتفكر في مدلولها، فإن كان داعيا إلى الرشد والأخذ بالانتباه، وملاحظة الحال والاستقبال، وتوجيه القلوب إلى الشعور بالمسؤولية أخذه وتقبله وجعله وسيلة لسعادته في الدارين. وليس من حقه أن يرفضه وينسبه إلى ما لا يليق به، فإن ذلك مثل ما يجد الإنسان نقودا من الذهب ويرميها في البحر ولا ينتفع بها لا هو ولا غيره من بني نوعه!

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (26)﴾

عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أبي طالب، كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتباعد هو عما جاء به. رواه الحاكم والبيهقي. وعن سعيد ابن أبي هلال نزلت في عمومة النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر. رواه ابن أبي حاتم. وقيل: نزلت في كفار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع رسول الله ويتباعدون بأنفسهم عنه.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الضمير العمدة راجع للمشركين، وضمير عنه راجع الى القرآن، يعني إن المشركين كانوا ينهون الناس عن استماع القرآن لئلا يقع في قلوبهم، أو لئلا يتفكروا فيه فيأخذون به. ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي ويتباعدون عنه بأنفسهم إظهارا لنفرتهم عن سماعه، أو أنهم ينهون عن إيذائه غيرة وحمية، وقد كانوا يبتعدون عنه، ولا يؤمنون، فالضميران المجروران للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾

أي وما كانوا يهلكون بتلك الأعمال والحيل إلا أنفسهم بتعريضها لعذاب الآخرة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن الوبال يأتيهم في المآل.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآَيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (28) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، أو لكل من له قابلية الخطاب، فيشرع الباري في بيان ما يأتي عليهم وما يصدر عنهم يوم القيامة. فيقول: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا﴾ أي عرضوا على النار وعرضت عليهم، وعلموا أنهم واردون فيها ومعذبون ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا مع الشعور النافع ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآَيَاتِ رَبِّنَا﴾ كما كنا نكذب من قبل ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي أعرض <248>

عما يشعر به كلامهم هذا من رغبتهم الصادقة في الرجوع إلى الدنيا للطاعة والانقياد، وإنما قالوا ذلك لأنه ظهر وبدا لهم عذاب وعقاب كانوا يخفونه وينكرونه من قبل في الدنيا ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الكفر والاستكبار والعناد. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يستفاد من تمنيهم وهو أنهم نادمون عن المعاصي وعازمون على إطاعة الباري ورسوله في الأحكام ﴿وَقَالُوا﴾ قيل إنه عطف على قوله تعالى ﴿عَادُوا﴾ أي ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وقالوا ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ والحق إن الواو لعطف حكاية حال من أحوالهم على حال آخر. والمقصود: وقالوا: أي المشركون أو الكفار المنكرون للبعث مطلقا إن هي ضمير مبهم راجع إلى الحياة المذكورة بعدُ، أي وقالوا: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا وحياتنا في عالم الوجود قبل الموت وعالم البرزخ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ إذا فارقتنا الروح في هذا العالم، أي لا حياة ولا بعث بعد الموت. هذا كلامهم الذي صدر منهم في هذه الدنيا ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا حبيبي ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وعرضوا عليه ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي قال الله تعالى: أليس هذا بالحق. أي ليس هذا البعث والحياة بعد الحياة الدنيوية بالحق، أي حقا ومتلبسا بالحق. ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أي بلى هو حق وربنا. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهم: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ الذي أنكرتموه في الدنيا ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم به، أو بالكفر به وبغيره ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ قيل: إنّ لقاء الله تعالى استعارة تمثيلية عن البعث وما يتبعه. والحسن وابن عباس على أن المراد لقاء جزائه تعالى يوم القيامة بتقدير المضاف. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ أي يوم البعث والنشور. والساعة: القطعة من الزمان وغلب على يوم القيامة كالنجم للثريا ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة، مصدر وقع موقع الحال أي مباغتة ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ <249 >

أي على تفريطنا وتقصيرنا في مدة الحياة الدنيا. وهذا المقول جملة ندائية يقصد بها إظهار التحسر على ما فات ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ والجملة في موضع الحال من فاعل قالوا، والمراد بها بيان سوء حالهم وشدة ما يجدونه من المشقة والآلام والعقاب. وقيل حملها على الظهر حقيقة وأنها تجسم ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ تذييل مقرر لما قبله. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يعني وما أعمال الإنسان في مدة الحياة الدنيا إلا لعب ولهو أي اشتغال بما لا يعني. وفرق بينهما بأن اللعب: ما قصد به تعجيل المسرة والاسترواح. واللهو: كل ما شغل من هوى وطرب وإن لم يقصد به ذلك ﴿وَلَلدَّارُ الْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك؟

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآَيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34)﴾

عن علي كرم الله وجهه أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنا لا نكذبك، وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذب بما جئت به ! فأنزل الله الآية. رواه الترمذي والحاكم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ كسرت إن لدخول اللام فيما بعده ومعناه نحن نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ويتأثر قلبك به لأن مغزى كلامهم تكذيبك في دعوى الرسالة من الله، وإنكار آيات الله لأن معنى قولهم إنا لا نكذبك وإنك عندنا لصادق ولكن نكذب بما جئت به، إما

أنك صادق في ما أخبرت به في أمور الدنيا، ولكن لا نصدقك في أنه يوحى إليك ولا بما تقول إنه وحي من الله. فهناك تكذيب لك في دعوى الرسالة كما أنه تكذيب لآيات الله النازلة، وإما معناه أنت كنت صادقا بيننا وما نسبناك إلى الكذب في ما سبق من عمرك ولكنا نكذب ما جئت به وننكر أنه كلام الله وحكمه، وإنما هو من كلام بعض من الجن يُلقى إليك وأنت تقبله وتنقله إلينا فهناك أيضا، وإن لم ينسبوه إلى الكذب ظاهراً ويقولون له أنت صادق في أنه أُلقي إليك كلامٌ غيبيّ بدعوى أنه كلام الله، ولكنه تكذيب لآيات الله تعالى وجحود وإنكار لها، وفي الحقيقة تكذيب للرسول في دعوى أنه رسول الله تعالى. فقوله تعالى ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي ظاهرا ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يكذبونك باطنا و﴿بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حقيقة بكل معنى الكلام.

هذا إذا كان مورد نزول الآية ما ذكرنا من قول أبي جهل: يا محمد إنا لا نكذبك وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذب ما جئت به كما نقلناه آنفا. وأما إذا كان المورد هو تكذيبهم له صلى الله عليه وسلم كما كان عادتهم فمعنى الآية الكريمة: يا رسولي لا تحزن بإنكار المشركين وبتكذيبهم لك، فإنهم وإن كذبوك ولكن ليس التكذيب عائدا إليك، بل إن الظالمين بالإشراك والاستكبار بآيات الله يجحدون، ونحن نعلم بهم وبأقوالهم وأفعالهم، وننتقم منهم في حالهم ومآلهم في الحال بعذاب وأسر وقتل محدد، وفي المآل بعذاب مستمر إلى الأبد. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ عيسى وموسى وإبراهيم وهود وصالح ونوح ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ بتأييد وفتوح ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي كلماته التي هي فصل الخطاب في العالمين، حيث قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾. وقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾. وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾.

﴿وَلَا مُبَـدِّلَ لِكَلِمَـاتِ اللَّهِ﴾ فإنهـا من سـنته الـتي تقـررت في العـالمين ﴿وَلَقَـدْ جَـاءَكَ مِنْ نَبَـإِ الْمُرْسَـلِينَ﴾ والحمـد للـه رب العالمين.

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآَيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36)﴾

قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية يقول سبحانه وتعالى لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلـم إنك رسول الله أرسلك إلى كافة الناس بشيرا ونذيرا، وكلما ارتفعت درجة الإنسان في العالم زادت أعداؤه وحسّاده، لاسيما الرسول الذي نزل عليه الوحي وأمر بتبليغه إلى المكلفين، وعند ذلك لا مجال إلا بالاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه، والصبر على ما يناله من الأتعاب، وهكذا كانت عادة الرسل قبلك إلى أن جاءهم النصر. وإلا فإن كان كبر عليك إعراضهم أي إعراض المشركين عن الإيمان بك وبما جئت به من القرآن المجيد وشق عليك الصبر على أذاهم ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ وقدرت وتهيأ لك ﴿أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي سربا فيها تذهب إليه وتسكن به وتختفي عنهم ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ أو أن تبتغي سلما أي مرقاة ومصعدا فيها ترقى عليها وتصعد إلى محل لا تنالك فيه أيدي العابثين، ولا تسمع فيه كلام المشركين وتتفرغ للسعي في ما ينجيك منهم ﴿فَتَأْتِيَهُمْ﴾ منها ﴿بِآَيَةٍ﴾ أرضية أو سماوية على حسب ما اقترحوه من الآيات، أو حسب ما تعتقد فيه إقناعهم به من المعجزات فافعلْ ذلك وأقنعهم بها، وسخرهم لإطاعتك والإيمان

بما جئت به من الله العلي القدير. وإن لم تستطع ذلك، ولن تستطيعه أبدا، فاصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم بالحق وهو خير الحاكمين، ولا تعتقد أن الله سبحانه وتعالى عاجز عن أن يفعل بهم ما يريد من الإهلاك والإبادة، أو أن يهديهم إليه بحيث لا يبقى في قلوبهم شك وشبهة في أمر الدين كلا ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ جمعهم على ما أنت عليه ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ في أقرب وقت وأقل زمان، ولكن الله لا يريد ذلك لأن الإيمان حينئذ يكون إيمان إلجاء واضطرار، ولا وزن له في سوق العبودية، وإنما يحب أن يختار الإنسان المخلوق على القابلية والاستعداد صرف إرادته إلى الخير والرشاد، وينحرف بالقوة عن بغي الهوى وعناد النفس الأمارة وإفساد الشيطان ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بهذه الحقائق.

وهنا نكتتان: الأولى: إن الله سبحانه وتعالى راعى كرامة الرسول صلى الله عليه وسلم ومقامه الرفيع، ولم يقل فلا تجهل، بل قال فلا تكونن من الجاهلين أي ممن ينسب إلى أولي الجهل بواجبات الإنسان.

الثانية: إنه لم يكن الرسول منزعجا غاية الانزعاج وضيق الصدر وحصر النفس في مقابل المشركين حتى يردع ويزجر بآية مثل ما نزلت، ولكنه أراد تنوير المسلمين وتوجيههم إلى وجوب الصبر وإفساح الصدر، فإن الإنسان كائنا من كان يجب عليه أن يتورع بالأخلاق العالية، ومن أهمها: التوكل على الله، والصبر على أذى العباد، والاستقامة على طريق الرشاد.

ثم أتى الباري سبحانه بمفهوم آخر يؤيد الصبر والسلوى للرسول صلى الله عليه وسلم.

فقال تعالى ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي لا تجزع من عدم استجابة أهل الإشراك لما تقرأه عليهم من الآيات؛ فإنه

لا يستجيب إلا من يسمع الكلام ويفهمه، ولا يسمعه إلا الأحياء، ولكن المشركين مَوتْى القلوب، والموتى لا يسمعون إلا يوم ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ من القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الله ﴿يُرْجَعُونَ﴾ فيحاسبهم على ما سمعوه وما لم يسمعوه وكانوا عنه غافلين.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آَيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آَيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ أي وقال رؤساء قريش البالغون أعلى مراتب الجهل: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آَيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي لولا نزل عليه آية قاهرةٌ ملجئة للإيمان بأن يقلع جبل أبي قبيس ويرفعه على رؤوسهم ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آَيَةً﴾ كما يقترحون ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن الله قادر على أن ينزل كل آية يقترحونها؛ لأنهم لا يؤمنون بوجود إله واجب الوجود موصوف بالكمال منزه عن النقص، ولو آمنوا بذلك لعلموا أن قدرته تشمل كل ممكن من الممكنات، فإن القدرة على خلق السماوات ونجومها، وحركات الكواكب السيارة فيها، وبقائها على نظام خاص في الحركة الدورية، وخلق الأرض والجبال وما فيها من المعادن والنبات والحيوان مع بداهة أن كلا من المذكورات وأجزائها من الممكنات الخاصة

التي يستوي وجودها وعدمها، ولا يتحقق شيء منهما إلا بمرجح خارج عن سلسلة الممكنات.. دليل ظاهر وسلطان قاهر على أن الله على كل شيء قدير.

وهذه الآية التي اقترحوها ليست بأعجب وأبدع من خلق جميع الحيوانات وإدارة شؤونها ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في خلقها من العناصر ونشؤها ونمائها، وتوالدها وتناسلها، والميل والعطف الغريزي فيها، وفي إحساسها بالحواس الموجودة فيها، وفي إدراكها إلى درجة تناسب بقاء نوع الحيوان، ولكن لكل نوع من أنواعها أفق خاص محدود، وتتفاوت آفاقها. ومن طالع كتب الحيوانات ونشوءها وبقاءها والآثار الظاهرة منها في تربية أفراخها وتداويها، وسعيها في تحصيل الرزق، وعبورها المياه الكثيرة، وفي تحصيل المواد الغذائية التي تعيش بها، وفي إعداد المسكن الذي تبقى فيه، وفي نظامها الداخلي، ومدافعة الأعداء المهاجمة عليها، أو على نسلها.. اطلع على حقائق محيرة للعقول ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما قصرنا في ضبط أحوالها في الكتاب المعهود، أعني اللوح المحفوظ، وجمعناها فيه، أو في القرآن الكريم بصورة إجمالية تناسب إدراكنا ﴿ثُمَّ﴾ بعد الخروج من دائرة الحياة المادية الدنيوية وبعد الموت وانقضاء أمد البرزخ ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

ثم إن ظاهر قوله تعالى ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ هو أن الحيوانات البرية والبحرية على كثرتها بعد الموت يحشرون ويحاسبون. ويؤيده ما روي أنه يأخذ للجماء من القرناء ويجازيها كيف يهملكم سدى؟ ! وهو حديث صحيح رواه الشيخان. ولكنه لا يلزم من هذا أن يدخل في الجنة أو في النار، ولعل لتعذيب الواحد أي واحد أصولا مقررة خاصة، وكذا التنعيم، كما أن ظاهر الآيات القرآنية هو أن كل شيء له تسبيح خاص وأنا لا نفقه تسبيحه. فالكائنات شواهد وآيات للدلالة على ذاته

الواجب الوجود الأزلي وصفاته الكمالية، وتسبيح الحصى في يده الشريفة دليل لطيف على الموضوع بالوجه المناسب، وهناك آراء مشروحة في محلها.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ في قوة التعليل، أو نزلت بمناسبة للآيات تشبه مناسبة العلة للمعلول في قوة الارتباط والمقارنة في الوجود. ويقول: والسر في أن الكافرين المشركين لا يعلمون أن الله قادر على كل شيىء ولا يؤمنون بآيات الله مع ما يرونه من الآثار الدالة على وجوده وكماله هو أنهم استمروا في ظلمات الجهل وتحت سيطرة التقليد الأعمى، وركبوا جماع الهوى النفسية التي تعاند الهدى القدسي، وأضيف إلى كل ذلك العناد الناشىء عن الحسد.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا﴾ بناء على العوامل المذكورة ﴿صُمٌّ﴾ عن استماع الحق وآيات القرآن والمواعظ والنصائح المفيدة ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا ينطقون بكل ما يفيدهم خيرا من الاستنجاد بأهل المروءة والنجدة والتعليم والإرشاد. وهم ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ الأربع السابقة ظلمة الجهل والتقليد والهوى والعناد. و﴿مَنْ﴾ اختار مباشرة الأسباب الأربعة للضلال فهو ممن شاء الله تعالى أزلاً إضلاله بسبب سوء مباشرته وسوء اختياره لها فيما لا يزال ومن ﴿يَشَأِ اللَّهُ﴾ إضلاله أزلا لعلمه بسوء مباشرته ﴿يُضْلِلْهُ﴾ لأن المراد لا يتخلف عن الإرادة ﴿ومَنْ يَشَأِ﴾ أزلا هدايته لعلمه بحسن تصرفاته فيما لا يزال يهديه و﴿يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وبيان حقيقة الأمر هو أن الله خالق كل شيىء وعالم بكل شيء أزلا وأبدا وأنه خلق مخلوقات جامدة ونامية غير حساسة، وخلق مخلوقات حساسة غير عاقلة، وخلق مخلوقات حساسة عاقلة يميز بالعقل بين الخير والشر والنفع والضر، ولكنها لا تدرك بمحض العقل المغيبات الآتية والمسؤوليات في المستقبل فأرسل الرسل وأيدهم بالوحي فبين الرسول لهم على

حسب الوحي أنهم يموتون ثم يبعثون ويحشرون ويحاسبون ويأخذون جزاء أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر. وبنو آدم من العقلاء المكلفين لهم تنوير العقل وتأييد الرسل للعقل وتعليمه في مالا يدركه بالذات فمن صرف قواه في هداه فقد فاز بالسعادة ومن صرفها في هواه فقد نال الشقاوة. والباري تعالى علم أزلا أن أي إنسان وأي مكلف يصرف قوته في سعادته، وأي مكلف يصرفها في شقاوته، وعلى ذلك العلم الأزلي والإرادة الأزلية من باشر في ما لا يزال أسباب الخير شاءه الله له وخلقه ومن باشر فيه أسباب الشقاء شاءه الله له، فالمسؤل هو العبد المشغول بالأعمال فمن وجد خيرا فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. فقدرة الباري وسائر صفاته أزلية أبدية، وخلقه للأشياء إنما هو بقدرته، وقدرته تابعة لإرادته وإرادته تابعة لعلمه، وعلمه مرآة يتجلى فيها صور الأشياء التي يباشرها العبد باختياره۔ ومن ذلك اشتهر عند الأصوليين أن العلم تابع للمعلوم وحاك عنه يحكي صورة ما يقع في المستقبل باختيار الفاعل الكاسب، وعليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45)﴾

قوله ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ استفهام تعجيب، ولفظ كُمْ حرف خطاب للدلالة على الجمع مجاز عن أخبرني مجازا مرسلا تبعيا. أي تجوز فيه بتبعية المجاز في المصدرين منقول عن أرأيت بمعنى أبصرت أو عرفت، كأنه قيل أأبصرته وشاهدت حاله العجيبة؟ ! أو أعرفتها أخبرني عنها؟ فلا تستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة لشيىء. ووجه المجاز أنه لما كان العلم بالشيىء سببا للإخبار عنه أو الإبصارُ به طريقا إلى إحاطته علما وإلى صحة الإخبار عنه استعملت الصيغة التي لطلب العلم أو لطلب الإبصار في طلب الخبر، وعلى التقديرين فيه تجوزان، وشبه استعارة تبعية. وينبغي أن يسمى مثله مجاز مرسلا تبعيا قاله الشهاب.

يعني أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ بغتة ومفاجأة كما أتى بعض المتمردين الذين كانوا قبلكم ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ الموعودة وأدركتم هولها وشدتها ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ لتخليصكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى أن الأصنام آلهة. وجواب الشرط محذوف، أي فادعوه ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ أي تخصون الله تعالى بالدعاء كما عرف من عادتكم إذا ألجأتكم الحوادث ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ لأن استجابة الدعاء تفضل منه تعالى ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ به حين الخلاص والكشف لأن المستغيث إذا أجيب اطمأنّ قلبه إلى ربه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي أرسلنا إلى أمم من قبل أيام رسالتك ﴿فكفرواً﴾ وكذبوا وتمردوا ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ﴾ من الشدة وفقر الحال ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ من الأمراض والبلايا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي يتذللون ويتوبون فنتوب عليهم، ولكن لم يتضرعوا لشدة شكيمتهم وقساوة قلوبهم

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ حتى نرحمهم ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وذلك دأب الفاسقين المتعنتين. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من النعم التي صورتها نعم وسيرتها نقم ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ منها ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي آيسون من الرحمة ومتحسرون ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي آخر من بقي منهم حتى يبادوا ويستأصلوا ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على نعمته التي أنعم بها على العباد من إبادة أهل البغي والعناد ليستريح الناس برهة من الزمان تحت راية الأمان والأمر لله رب العالمين.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (49)﴾

قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ الآية معناه: قل يا رسولي لأولئك المشركين الغافلين عن شكر نعم الله الكثيرة الواردة عليهم: ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ منكم ﴿سَمْعَكُمْ﴾ فجعلكم صُمّا لا تسمعون شيئا ﴿وَ﴾ أخذ ﴿أَبْصَارَكُمْ﴾ وجعلكم عُمْياً لا تبصرون شيئا ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ ومنعها عن إدراكها الغريزي وورود المعلومات عليها فـ ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي بذلك المذكور من السمع وغيره ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي تفكر في معاملتنا

مع الناس الغافلين عن الخالق وشكر نعمه والإيمان به وبصفاته وبرسله وبما جاؤا به، فتارة نذكرهم بالترغيب والترهيب، وتارة بذكر القصص العجيبة ونقل ما وقع في سالف الأيام على الأمم المعاندة للرسل، وتارة بالتوجيه نحو الاستدلال بالأدلة النفسية والآفاقية ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ومع ذلك كله هم يعرضون عنها ولا يستفيدون منها، وما ذلك إلا لسوء اختيارهم ولقلة اعتبارهم وكلمة ﴿انْظُرْ﴾ يفيد التعجب مثل أرأيت وتصريف الآيات تكريرها على أنحاء مختلفة تناسبُ الحالَ والمقام ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ أي مباغتة ومفاجأة بدون مقدمة وكانت سرا ﴿أَوْ﴾ أتاكم عذابه ﴿جَهْرَةً﴾ واضحة يتقدم عليها دعوة للحق من الرسل وإنذارات وتباشير ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ بذلك العذاب هلاكَ غضب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾؟ والجواب لا؛ فإن الله اذا جرى عذابه على أحبابه فإنما هو لكفارة سيئات أو رفع درجات، وإذا جرى على الأشقياء المتمردين على الحق فإنما هو عذاب إهلاك وانتقام من حيث يشعرون أو لا يشعرون ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا﴾ مبلغين لأحكام الله تعالى الاعتقادية والعملية و﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمنقادين بالجنة ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ لهم بالنار، وليس عند الرسل إلا البلاغ وإيضاح السبل، وليس في قدرتهم الإتيانُ بالمقترحات والخروج عن سنة الله في الكائنات ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ بالله ورسوله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أعماله وترك ما يجب أن يترك وفعل ما يجب أن يفعل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فات من الثواب.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي يخرجون عن إطاعة الباري.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51)﴾

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أعطي من أشاء ما شاء ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ غير ما يوحى إلي ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وأقدر على طي المسافات الشاسعة وفعل الأعمال الصعبة الشاقة، أو على مخالفة الطبيعة من الابتعاد عن الأكل والشرب والمنام والمقام ومقتضيات الأنفس البشرية، وإنما أنا بشر مستوعب لصفات البشر ومنتظر لأمر الله حسب القضاء والقدر، وخصني ربي برحمته فأفاض علي سابغَ نعمته، وشرفني بنبوته ورسالته، وأوحي إليّ ما شاء من شريعته و﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ وأبلغه إلى الأنام؛ فمن تبعه واهتدى به فهو البصير الذي يدرك طريقه ويمشي عليها سوياً، ومن تركه وعانده وجحده فهو الأعمى في البصيرة، ولو كان صاحب بصر، فإذا بينت القسمين لهم فـ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الآفاق وفي انفسكم، وفيما يوحى إليّ وأُلقي إليكم لعلكم تفلحون.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أي بما يوحى إليك ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أن يحشروا إلى ربهم حال كونهم ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ ينصرهم بالقوة والغلبة ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إذا انذرتهم به ﴿يَتَّقُونَ﴾ ويحذرون مخالفة ربهم فيفوزوا بالسعادة في الدنيا والدين.

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55)﴾

عن سعد بن أبي وقاص قال: لقد نزلت ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ﴾ الآية في ستة: أنا، وعبد الله بن مسعود، وبلال، وعمار، والمقداد، وصهيب. قالوا المشركون لرسول الله: اطردهم فإنا نستحي أن يكون لك تبع كهؤلاء، فوقع في نفس النبي ما شاء الله. فأنزل الله الآية إلى قوله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ رواه ابن حبان ومسلم والنسائي والحاكم. وعن ابن مسعود قال: مرّ الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلـم وعنده خباب ابن الأَرَتِّ، وصهيب، وعمار، وبلال، وغيرهم من ضعفاء المسلمين. فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ ! أهؤلاء مَنَّ اللهُ عليهم من بيننا؟ ! أنحن نصير تبعا لهؤلاء؟ لو طردت هؤلاء لاتبعناك !! فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ إلى ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ رواه احمد، والطبراني وابن أبي حاتم. وعن عكرمة قال: جاء عتبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى ابي طالب فقالوا: لو أن ابن أخيك يطرد عنه هؤلاء الأَعْبُدَ كان أعظم في صدورنا، وأطوعَ له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه !! فكلم أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون. فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ إلى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ وكانوا بلالا، وعمار بن ياسر، وسالما مولى أبي حذيفة، وابن مسعود في آخرين،

فلما نزلت أقبل عمر فاعتذر للنبي صلى الله عليه وسلم من مقالته، فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ رواه ابن جرير.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإنذار المذكورين لعلهم يدخلون في سلك المتقين نهي عليه الصلاة والسلام عن كون ذلك بحيث يؤدي إلى طردهم فيقول سبحانه وتعالى يا رسولي ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ مخلصين حال كونهم ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي رضاء ذاته. والجملة في موضع الحال من ضمير يدعون. والمراد بإرادة الوجه الإخلاص بناء على امتناع كون ذاته مرادا لذاته؛ لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالممكنات ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ معناه ما عليك شيء من حساب إيمانهم وأعمالهم الباطلة ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي وما من حساب إيمانك وأعمالك عليهم أبدا، فحسابهم عليهم لا يتعداهم، كما أن حسابك عليك لا يتعدى إليهم ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي بمن يقع منه الشكر والإيمان والطاعة. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ومعلوم أن المؤمنين هم الذين كانوا يدعون ربهم فأمر الله تعالى حبيبه أن يبدأ بالتسليم عليهم أو يبلغ سلام الله إليهم، ويبشرهم بسعة رحمته، ومعنى تلك الرحمة ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي جاهلين بحقيقة ما يتبعه من الخير والشر والثواب والعقاب ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ ثم تندم عما اقترفه من السوء وعزم على أن لا يعود إليه في المستقبل، وأصلح بالتدارك ما أمكن تداركه ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي وبمثل هذا التفصيل والبيان الواضح نفصل الآيات أي آيات القرآن وصفة المطيعين والمجرمين ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي قل للمشركين قطعا لأطماعهم الفارغة في ميلك إليهم: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي الآلهة الذين تعبدونهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ﴾ إن ما أنتم عليه أهواءٌ باطلة وأمانٍ عاطلة، وإني ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت إذاً ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ قل للمشركين الذين تاهوا في بيداء الضلال: إني على بينة وبرهان من ربي تدل دلالة قاطعة على أن الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمدُ ﴿وَ﴾ الحال إنكم ﴿كَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ وعاندتموني ودعوتموني إلى الإتيان ببعض الآية الكونية التي تدل على صدقي في أمري و﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من تلك الآيات الكُبْريات التي تقطع عرق الضلال الذي ضللتم به ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم في تأخير إنزال تلك الآيات إلا لله وحده من غير أن يكون لأحد تأثير فيه ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أي يتبع الحق والحكمة في ما يحكم به ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي خير القاضين وخير الفاصلين للقضاء بين العباد.

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي﴾ أي في سيطرتي ونفاذ أمري ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من عذاب يأتي عليكم ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وكنت أنزل عليكم ما تستعجلون به ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ من كل عالم ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾ ومدى استحقاقهم للعذاب أو للسماح في الدنيا أو في الآخرة.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59)﴾

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ أي العلوم الدقيقة التي تكشف أفراد المغيبات في الكائنات أعم مما يصل إليها الأفهام أولا ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ لا يعلم تلك المغيبات ولا يكشفها إلا هو وإذا اطلع أحدٌ على شيء منه رسولا أو نبيا أو وليا فإنما يطلع عليه بإطلاعه عليه سواء بوحيه أو بِإلهامه وتلك العلوم ليس في إمكان غير الله سبحانه وتعالى كشفها. وجاء للتأكيد على الموضوع بقوله الكريم ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي ما في أبعاد الأرض وأعماق الماء، وما في البر يشمل الأحجار والرمال والتراب وما عليها من النبات والأزهار والأوراق ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ ويعلم وقت حدوثها وبقائها وزوالها وسقوطها ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ مما تحت القشرة العليا أو الوسطى أو الأدنى ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ بمعنى المادة المائية وغيرها، والنامي والجامد والحي والميت ﴿إِلَّا﴾ هو موجود ومحدود ومعين ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وهو علمه الأزلي أو مخزن المعلومات الكونية أعني اللوح المحفوظ، أو غير ذلك مما استأثر الله بعلمه.

تنبيه: فسرت المفاتح بالعلوم بناء على أنها جمع مفتح بكسر الميم اسم آلة بمعنى المفتاح، ويؤيده قراءتها بالياء، فالغيب هو الأمر الغائب عن الإحساس وإدراك العقول، ومفاتحها علوم هي الكاشفة عنها. ثم الغيب على قسمين: غيب مطلق، وهو ما استأثر الله بعلمه ككنه ذاته وصفاته، وأسرار القدر، وقيام الساعة، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله. وغيب مقيد، وهو ما غاب عن أبصار بعض دون آخر، وعن إدراك عقل شخص دون آخر. فالمادة التي أمام عين زيد في مملكة غيبٌ عند عمرو في مملكة أخرى، وليس غيبا عند كل أحد. والقضية التي يدركها عقل العالِم ليست غيبا عنده وهو غيب عند

الجاهل أو العالم الذي ليس علمه في ذلك المستوى. فكل شيء محسوسٍ بالمجاهر ليس غيبا عنده، حتى يقال: كيف علم الغيب؟ وإنما هو غيب عند من ليست عنده المجاهر. وكذلك العلوم العقلية التي يدركها بعض دون بعض. فكل ذلك مما هو حاضر في علمه تعالى أزلا وأبدا، وإذا لم يعلمه أحد فمن الممكن أن يعلمه الله بالوحي كما أوحى إلى الرسل كثيرا من المغيبات المستقبلة عن زمانهم أو بالإلهام، أو بإراءة صورة ذلك الشيء بأن يجعل قوة نفسه الإدراكية قوية واسعة كما أدرك عمر بن الخطاب جيش سارية في (نهاوند).

والحاصل: إن علم الغيب بمعنى الإدراك اللازم للذات أزلا وأبدا لا يوجد عند أحد إلا الله. وكل من كان له معرفة به فإن كان عنده جهاز يظهر له ذلك الشيء فهو حينئذ ليس من المغيبات بالنسبة إليه، وما عدا ذلك من المعلومات الغيبية إذا حصل علمها لأحد فإنما هو بإعلامه تعالى له ذلك الشيء، فليس لذلك الشخص علم الغيب بالمعنى المذكور. فخذ هذا وكن من الشاكرين.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62) قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67)﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ الآية في هذه الآية وما بَعْدَها إلى قوله ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ الآية بيان لأعمال عظيمة عجيبة يعجز عنها غيره تعالى، يباشرها الباري بصفة أنه خالق السماوات والأرض والمتصرف فيهما وفيمن فيهما بالإتعاب والإنامة والاِيقاظ والاِقامة والاِماتة والاِحياء ثم الحساب وإعطاء الجزاء لكل عامل حسب عمله... وما على شاكلة هذه الأعمال للدلالة على أنه يجب على كل عاقل أن يعبد الله الواجب الوجود الخالق لكل موجود والمستحق لعبادته بالركوع والسجود حتى تلين عريكتهم وتخف شكيمتهم ويتوجهوا إلى الله رب العالمين.

ومعنى قوله الكريم: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ أنه يُنيمُكُمْ ويجعلُ النومَ غالبا عليكم بحيث تقعون في المحل كالمَوْتى لا عندكم حسّ ولا شعور بما يَجري حولكم، فضلا فيما يبعد عنكم، فكأنه اماتكم وتَوَفّيكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ أي ويعلم ما كسبتموه بالنهار المقدم على تلك الليلة، فكان النهار أوقات دنياكم وحياتكم فيها والليل وقت اِماتتكم ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي في النهار الذي يلي تلك الليلة التي توفاكم فيها. وبشبه ذلك النهار يوم البعث. وتبقون هكذا يتقلب عليكم النهار والليل إلى

انتهاء مـدة حيـاتكم في الـدنيا ﴿لِيُقْضَـى أَجَـلٌ مُسَـمًّى﴾ لينتهي زمان مقرر معين لبقـائكم فيهـا ﴿ثُمَّ إِلَيْـهِ مَـرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ بعد الرجوع ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ومما ينبغي أن يعلم أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلـم أمسك عن بيان حقيقة الروح فأمسك عنها العلماء تأدبا، وذلك لغموضها وصعوبة الوصول إلى كشفها. ولكنهم ذكروا أن للإنسان روحا حيوانيا يتولد من البخار المتولد من القلب الصنوبري، ويكون مداراً للحس والحركة الإرادية وبفنائه يفنى الإنسان ويموت. وله روح انساني ويقال: لها الروح والنفس الناطقة، وعليها مدار العقل والتميز، وبها يصير الإنسان إنسانا عالما بالكليات والجزئيات المجردة والمادية، وهو المسئول يوم القيامة عن الأعمال خيرها وشرها، وهو المتمتع بنعيم الجنة أو المتعذب بعذاب الجحيم. وكما أنه مدار للعقل والتميز كذلك مدار للتطورات الواردة عليه، ومن شدة ارتباطه بالروح الحيواني قد يتوهم أنهما شيىء واحد، ولكنهما في الواقع شيئان متغايران، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى إماتة الإنسان يطفئ الروح الحيواني، وبانطفائه تنقطع علاقة النفس الناطقة التي هي الروح الإنساني عن البدن، وإذا تعب الإنسان في ساعات اليقظة والعمل قبض الله تعالى الروح الإنساني وسلب عنه الشعور المنبعث من استعمال الحواس حتى يكتسب الإنسان راحة وهدوءً مؤقتا، وهو في الزمان عينه باق ومتعلق بأعماله الذاتية، أي أنها في حالة النوم لا تتعطل عن الإدراك بقدر قابليته؛ فقد ثبت أنه كما في حالة اليقظة تدرك الأشياء كذلك في حالة النوم، لكنها في حالة اليقظة تستفيد المعلومات من الحواس الخمس الظاهرة وغيرها، وأما في حالة النوم فلا تستفيد من الحواس بل من غيرها. ومن جملة معلوماته المكتسبة في النوم الرؤى التي يراها إما بإفاضة الباري تعالى عليه علوما من ذاته، وإما بعلاقته مع باقي الأرواح الحية أو الميتة، وإما باستفادته من اللوح المحفوظ الذي فيه صور

جميع الأشياء الواقعية. فلا يغرنكم ما اشتهر من بعض الناس أن الرؤيا التي يراها الإنسان خيالات باطلة، بل هي إدراكات للنفس الناطقة كما ذكرنا، لكن بعضا منها إدراك لحقائق واقعية تظهر في الوجود، وبعض منها إدراكات لأمور غير واقعية أي لمفاهيم لا تطابق الواقع. ففي كتاب المواقف وشرحه: وقال الأستاذ أبو إسحاق: إنه أي المنام إدراك حق بلا شبهة، إذ لا فرق بين ما يجده النائم من نفسه في نومه من إبصار المبصرات، وسمع المسموعات، وذوق المذوقات وغيرها من الإدراكات، وبين ما يجده اليقظان في يقظته من إدراكاته. فلو جاز التشكيك فيه أي فيما يجده النائم جاز التشكيك في ما يجده اليقظان، ولزم السفسطة والقدح في الأمور المعلومة حقيقتها بالبداهة. إنتهى.

وفي حاشيته للسيالكوتي ما نصه: قال المازني: مذهب أهل السنة أن حقيقة الرؤيا خلق الله في النائم اعتقادات كخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ولا يمنعه نوم ولا يقظة، ويخلق هذه الاعتقادات على أمور يخلقها في ثاني الحال كالغيم علما على المطر. إنتهى. والمراد بالاعتقادات ما يعم المتخيلة والمتحققة ليشمل القولين المذكورين في المتن أعني كونه خيالا باطلا أو أمرا حقا. إنتهى.

قلت: فما اشتهر من أن النوم ضد الإدراك معناه ضد للإدراك بتوسط الحواس الظاهرة، وإلا فإدراك النائم لكثير من الحقائق محقق لا شبهة فيه. وما ذكرناه هو الحق الموافق لظاهر الآيات الكثيرة الدالة على أن الرؤيا حق مثل قوله تعالى: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ وللاحاديث الكثيرة من جملتها ما ثبت بالأحاديث الصحاح أن النبي عليه السلام جعل الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة، وعمل بها قبل الوحي ستة أشهر. ويؤيد ما ذكرنا من وجود الروح الحيواني والنفس

الإنساني ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن في ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس؛ فالنفس التي بها العقل والتميز، والروح التي بها النَّفَسُ والحياة. فتتوفّيان عند الموت، وتتوفى النفس وحدها عند النوم. والله أعلم.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي والله هو الغالب المستولي على عباده كافة استيلاء من أخذ جانب الفوق من مقابله بحيث لا يفلت منه قطعا ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي يرسل عليكم ملائكة حافظين لأعمالكم، لا يخفى منهم شيء منها وهم الكرام الكاتبون. أو حافظين لكم من الأعداء الإنسية والجنية والوحشية في اليقظة والمنام والقعود والقيام. كما في قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وكما في قوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن مع كل إنسان ملكين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، فإذا تكلم الإنسان بحسنة كتبها من على يمينه، وإذا تكلم بسيئة قال من على اليمين لمن على اليسار: لننتظره لعله يتوب منها. فإن لم يتب كتب عليه. والمشهور أنهما على الكتفين.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾

معناه: حتى إذا انتهت مدة حياة أحدكم وجاء أسباب الموت توفته الملائكة المرسلة مِنّا المفوض إليهم ذلك وانتهى هناك حفظ الملائكة الحافظين، وهم لا يقصرون عن أداء واجبهم بالتواني والكسل ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي وبعد التوفي لأرواحهم ردّوا إلى الله تعالى مولاهم ومالكهم الحق الثابت في الواقع بلا معارض ومدافع ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي يختص به الحكم والقضاء في شأنهم صورة ومعنى ظاهرا وباطنا لا حاكم غيره ولا مغير لحكمه ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يحاسب جميع الخلائق في أسرع زمان ولا يشغله حساب عن حساب. وفي الحديث: ((أنه تعالى يحاسب الكل في مقدار حلب شاة)).

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ﴾ الذي تسيرون فيه وهو مغبر بالغبار الذي أثارته الرياح بحيث لا يرى أحد ما أمامه ﴿وَ﴾ ظلمات ﴿الْبَحْرِ﴾ إذا وقعتم فيها وانغمرت سفنكم أو المراد شدائد الأحوال في البر والبحر من الحروب أو الغلاء أو الآفات الواردة عليها حال كونهم ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا﴾ وابتهالا إليه ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي إسرارا. والمعنى إعلانا وإسرارا قائلين: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾ ربنا المنجي ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الظلمات والشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الراسخين في الشكر المداومين عليه ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ أي من تلك الظلمات ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ وبلاء آخر إذا قدر الله إنجاءكم منها ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ بربكم بدل أن تشكروه وتوحدوه وتعبدوه مخلصين له الدين. ﴿قُلْ﴾ يا رسولي منذراً لأولئك الغافلين من عذاب الله الجاهلين بواجبهم إزاءه: ﴿هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي من جهة السماء كالصيحة والصاعقة، والبرق الخارق، والثلج المتوافر، والبرد المتناثر... وهذا في ذلك الزمان. أو من المواد التفجيرية الملقاة من الطيارات والصواريخ في زماننا ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي من جهة السفل كالرجفة، والخسف، والزلازل، والإحراق، والإغراق. أو الألغام والمواد التي تلقى في الأرض وتتفجر ويحصل منها هلاك العشرات والمآت ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ أو يخلط عليكم أمركم ويجعلكم في اشتباه بدون انتباه، وفي آراء مختلفة بمعاذير مختلقة حال كونهم ﴿شِيَعًا﴾ وطوائف وجماعات كل منها ينظر فيها إلى جانب مشرقين ومغربين ومشتملين ومجنبين، مُفْرطين، ومفرِّطين، بحيث يحصل العداء والبغضاء والتنافس بينكم، ويشتد الخلاف وينجر إلى القتال ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ كما نرى في العَصر العسير أمورا من هذا القبيل، وهذا من أشد أنواع البلاء؛ لأن البلاء العملي عملية مؤقتة غير مستمرة، وأما البلاء العلمي والفكري فهو مستمر بحيث لا يدع للناس فيه أمانا زمانا ﴿انْظُرْ﴾ يا رسولي ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ في التبشيرات والإنذارات، ونحولها من

نوع إلى آخر وذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ إن تلك الآيات الدالة على وجوه الحوادث لا يأتي بها إلا الله ويعتبرون بها ويرجعون من الغي والضلال إلى الرشد والإقبال.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أي بالقرآن الجامع لهذه الآيات البينات ﴿قَوْمُكَ﴾ أي قريش ومن شايعهم لا للجهل فقط بل للحسد والعناد ﴿وَ﴾ الحال ﴿هُوَ﴾ أي القرآن ﴿الْحَقُّ﴾ النازل من ربك الحق ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وما فُوضَ أمرُكم من الله تعالى إلي حتى أدبر الأمور ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي لكل نبأ عظيم أتى به الصادق تحقق ووقوع واستقرار وآثار ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مقتضى نبأكم هذا فانتظروا إنا معكم من المنتظرين.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آَيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي وإذا رأيت أهل الكتاب ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آَيَاتِنَا﴾ أي يدخلون في تكذيب آياتنا ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ واتركهم ولا تدخل بينهم ولا تجالسهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي في

كلام غير الكلام في التكذيب ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ أي وإن أنساك الشيطان ذلك النهي الوارد عليك منا وجالستهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي فلا تقعد بعد تذكر الأمر بالإعراض مع أولئك القوم الظالمين بإنكار بعث خاتم الأنبياء والمرسلين وكتابه الذي أنزل عليه من رب العالمين.
﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ليس على المسلمين الذين يتقون مخالفة احكام الله تعالى من اعمالهم التي يحاسب عليها الخائضون من شيء قليل أو كثير إذا جالَسوهم حَسَبَ المعتاد بحيث لا يتوهم أنهم راضون بالخوض ﴿وَلَكِنْ﴾ عليهم ﴿ذِكْرَى﴾ صادرة منهم بالنسبة لأولئك الخائضين بأن ينهوهم عن الخوض في تكذيب آيات الله، أو يظهر منهم ما يدل على كراهية ما يصدر منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لعل الكافرين الخائضين في تكذيب آيات الله يتقون الله ويتركون ذلك.

روي أن المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزئ بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ونطوف ! فنزلت للدلالة على أن الممنوع من مجالسة الخائضين هو الرسول صلى الله عليه وسلـم فقط لا غيره من المسلمين. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وجمع أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى النازل في المدينة: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آَيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا... ﴾.

وفي الطود الراسخ في المنسوخ والناسخ أنه لا نسخ؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ خبر ولا نسخ في الأخبار، اللهم إلا إذا قيل بأن تلك الجملة الخبرية في معنى إنشاء إباحة المجالسة المذكورة في الآية الكريمة. والله اعلم.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ معناه واترك أهل الكتاب الذين اتخذوا دينهم الذي فرض عليهم، وهو دين الإسلام، لعبا ولهوا؛ لا يهتمون

به ولا يقبلونه ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي أغفلتهم وخدعتهم هواية الآمال الفارغة في الحياة الدنيا أو نفس الحياة الدنيا المحبوبة عندهم بحيث يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن واقرأه عليهم كراهة ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ وتحبس في الآخرة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ ـه حال كونها ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ﴾ ناصر يدفع عنها المهمات بالنصر والتأييد ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ بالرجاء والدعاء والتمجيد ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ﴾ أي تلك النفس وأعطت فديتها ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي كل فداء ﴿لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أي أولئك المتخذون دينهم لعبا ولهوا، هم الذين اُبْسلوا أي حرموا ومُنِعوا عن الثواب بسبب كسبهم الأعمال السيئة؛ فالموصول خبر لاسم الإشارة. وقوله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ خبر ثانٍ واستحقاقهم للشراب من الحميم والعذاب الأليم ثابت ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم بآيات الله البينات.

ومنهم من قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ أي أترك مجالسة السفهاء الذين اتخذوا ﴿دِينَهُمْ﴾ الذي يتماوتون عليه صورةً ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ في الحقيقة والسفهاء بتلك الدرجة لا يجوز مجالستهم إلا لإرشادهم، وإذا لم يسترشدوا فالبعد عنهم رشد إلا بقدر الضرورة الواقعية.

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابو الشيخ عن السدي أن المشركين قالوا للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد صلى الله عليه وسلـم فقال الله تعالى لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ أَنَدْعُو﴾ الآية وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأصنام. ولما كان الإسلام وصل من الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم كان الأصل الأصيل في الرد على تلك الرغبة الباطلة هو الرسول صلى الله عليه وسلـم فكأنه وكأنهم كالواحد أمر الله تعالى رسوله الجليل بالرد عليهم، وجعل نفسه الشريفة في عداد المؤمنين وعلى رأسهم الصديق رضي الله عنه فقال: ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لهؤلاء الجهلاء: ﴿أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ ونترك عبادة الله الجامع لجميع صفات الألوهية التي من جملتها القدرة على النفع والضر ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ إلى الوراء من غير رؤية مواضع أقدامنا، فنضل ونهوى في جحيم الهوى بعد أن دخلنا سواء الطريق الموصل إلى جنة النعيم ورضوان الله العظيم ورؤية ذاته الكريم فنكون لا سمح الله حينئذ ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ أي كالجاهل الغافل الذي ذهبت به مَرَدَة الجن في الصحارى القفرة البعيدة عن الإنسان ووسيلة الحياة الطيبة، فبقي حيران بلا بصر ولا بصيرة، وحاله أنه ﴿لَهُ﴾ أي لذلك المستهوي الغافل ﴿أَصْحَابٌ﴾ وأحباب ﴿يَدْعُونَهُ﴾ بجدٍّ ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ أي الطريق المستقيم الموصل سالكه بحيث كأنه نفس الهدى، قائلين لذلك الغافل: ﴿ائْتِنَا﴾؟ ! ولا تبعد عنا وكن لازما لجماعة الرحمة فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب.
﴿قُلْ﴾ يا حبيبي لهم بعد الرد عليهم داعيا إلى الحق القويم: ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ الذي هدانا إليه وهو الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ وحده

وغيره هو الهوى وماذا بعد الهدى إلا الضلال ﴿وَأُمِرْنَا﴾ نحن معاشر المسلمين بالإخلاص ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ معطوف على مفعول الأمر المقدر، وتقدير الكلام: وأمرنا بالإيمان وبإقامة الصلاة ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي وأمرنا بأن اتقوه أي اتقوا الرب في مخالفة أمره ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وهذه الجملة مستأنفة موجبة لامتثال الباري تعالى فيما أمر به لأنه الله سبحانه وتعالى يعود إليه كل عائد كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وهو الملك المسيطر الذي إليه لا إلى غيره تحشرون أيها المكلفون ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ بما فيها من الكواكب النيرة الثابتة والسيارة ﴿وَ﴾ خلق ﴿الْأَرْضَ﴾ بما فيها من المعادن والنبات والحيوان والعيون والأنهار والأشجار والأزهار والبحار الكبيرة الممتدة. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ أي وقوله النافذ الحق الثابت يوم يقول لأي شيء أراده: كن، فيكون كما أراد. وهذه إما كناية عن سرعة نفاذ إرادته وقدرته، أي إذا أراد شيئا نفذت قدرته في وجود ذلك المراد كما أراد، أو أنه خطاب يتوجه منه تعالى إلى الصور العلمية الموجودة عنده ضمن اتصافه بالعلم بدون لزوم قدم شيء غير ذاته وصفاته تعالى؛ فإذا توجه إلى أية صورة من تلك الصور أحدثها وأبدعها كما قدرها وقررها، فتكون الأمور المعلومة أعيانا خارجية ثابتة جواهر وأعراضا ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي وإذا ظهر في الصورة ملك ونفاذ أمر لشخص من الأشخاص في عالم الدنيا فذلك إنما يكون قبل يوم نفخ الصور، وفي ذلك اليوم له الملك لا لغيره أبدا يوم ينفخ بأمره، والنافخ الملك المقرب إسرافيل ينفخ في الصور، وهو قرن ينفخ فيه ذلك الملك عند الساعة نفختين، وبالنفخة الأولى يموت ما على الأرض من أصحاب الحياة ويتزلزل وتخرج أثقالها. وبالنفخة الثانية تحيى جميع الأموات ويساقون إلى المحشر للحساب والميزان ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو عالم بكل شيء غائب عن الحواس وبكل ما يشاهد لأي مشاهد، وإلا فالكائنات المادية والمعنوية كلها مكشوفة < 276 >

لله أزلا وأبدا ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في كل ما يفعله ﴿الْخَبِيرُ﴾ بجميع الأمور الخفية والجلية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آَلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ معناه واذكر إذ قال ﴿إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آَزَرَ﴾ مستنكرا اعتقاده الفاسد وعمله الكاسد ودورانه حول الصنم الجامد: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آَلِهَةً﴾ تعبد وهي منحوتة بأيدي صناعكم الحجّارين والنجّارين، وليس فيهم أية صفة تدعو إلى شرفها واستحقاقها للتشريف والتعظيم فضلا عن العبادة والركوع والسجود وطلب الجود بالموجود ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ التابعين لك ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي غيّ في الجنان وضياع لطريق سعادة الإنسان ضلالا واضحا لا يحتاج إلى بيان ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومثل ذلك التنوير لقلبه والتبصير لبصيرته المدركة للحق المميزة بينه وبين الباطل حتى عارض أباه بما تراه نريه

ونبصره ملكوت السماوات ربوبية البـاري تعـالى للملك العظيم المتحقق في الأعيان بالطول والعرض للسماوات، والأرض ومـا فيهما وما بينهما وما احتوياه من الأعيان والأعراض الدالـة على صنع الصانع المبـدع القـادر الحكيم ﴿وَلِيَكُـونَ﴾ بقوتـه المعنويـة من الغالبين، ويكون في نفسه ﴿مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

فإن الداعي إلى مبدأ يجب أن يكون غالبا في دعوته وقويا في بصيرته وموقنا في سريرته، وإلا فإذا عارضه أدنى معارض تأثر وتراجع إلى الوراء فيتنازل من الثريا إلى الثرى.

﴿فَلَمَّا﴾ عارض أباه في مبتغاه، والتهب قلبـه إلى إدراك طريـق الوصول إلى مولاه، ولم يكن له بغية سواه و﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْـلُ﴾ بعد يوم المعارضة والمقال ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ مشرقا يتلألأ بالتجوال ويشع على الجوّ بحسن الجمال ﴿قَالَ﴾ إبـراهيم: ﴿هَـذَا رَبِّي﴾ لا الأصنام الأرضية لأنها سفلية، وهذا علوي، وتلك أرضية مظلمـة، وهذا سماوي مشرق، وتلك في متنـاول الأيـدي والأقـدام وهـذا رفيع في القدر والمقام ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ من مداره وغاب مع آثـاره ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ﴾ لأن المحبوب يجب أن يكون ثابتا مرغوبا لا زائلا محجوبـا، فكيـف بـالمعبود الـذي هـو منتهى الأمـل والمقصود ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ﴾ طلـع من الأفـق بازغـا وملأ الجـوّ من نوره وما خَلّى فراغا ﴿قَالَ هَـذَا رَبِّي﴾ لا ذاك الكـوكب، ولم يـأت على بالـه أنّه أيضـا في طريـق زوالـه، ومشـغول بدورانه وتجواله، ومسـخر للخـالق بجمالـه وجلالـه ﴿فَلَمَّا أَفَـلَ﴾ القمـر أيضا ﴿قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَـوْمِ الضَّـالِّينَ﴾ لأن الإنسـان كائنـا من كـان لا يصـل علمـه إلى مـا وراء الطبيعـة الموصوفة بالحدوث والإمكان ﴿فَلَمَّا﴾ تأمـل سـاعة وعـرف من نفسه قلـة الاسـتطاعة و﴿رَأَى الشَّـمْسَ بَازِغَـةً﴾ شـقت الكـون بالإشعاع وعم ضياؤها الأرض في كل بقاع، قال: هذا النير أكـبر من ذاك الآفل وأنوَر ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ استدلالا بكبر الجسـم ووفرة الجود على عظمته في

الوجود، وأنه لائق بالعبادة والسجود ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ وغربت مثـل سابقيها ولم يستمر لها السكون علم أن المعبود بالحق لا يشبه ما كان وما يكون ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ﴾ من عبادة كـل زائـل ومن عبـادة ﴿مِمَّا تُشْـرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ وحـولت ذاتي وقلبي ﴿لِ﴾ الإله ﴿لـذِي فَطَـرَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ودبـر أمرهما وأمر ما فيهما على الطول والعـرض ﴿حَنِيفًا﴾ مـائلا من كل زائل وباطل ومن كل عاجز وعاطل، وأنا من الموحدين للـه رب العالمين ﴿وَمَـا أَنَا﴾ قطعـا ﴿مِنَ الْمُشْـرِكِينَ﴾ فتـدرج عليـه السـلام من بسـاطة الصـبيان إلى فكـرة أهـل العرفـان، ومن تقاليد العميان إلى تحقيق أهل العيان، ومن سفاسف السفليات إلى معـارف العلويـات، ومن صـفاتها الناقصـة الدالـة على الحدوث إلى الإيمان بالله الواجب الوجود الخالق لكـل موجـود، فاستقر في حاله حيث انكشف له ربه وعـرف واجبـه في حالـه ومآله فاشتهر أمره وذاع خبره، حتى دعاه الملك وحاجّه بما هو مشهور، فآل الأمر إلى رميـه بـالمنجنيق في النـار فصـارت لـه بردا وسلاما! فاضطرّ إلى تهجيره من العراق فتحول من أسـير بين يدي الملحدين إلى رسول صار إماما للموحدين، وبنى قبلـة لعالم الإسلام هي قبـة التوحيـد على مـر الأيـام، وولـد لـه أولاد منهم إسماعيل الجـد الأعلى لخـاتم الأنبيـاء والمرسـلين سـيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه الصلاة والسلام إلى يوم الدين.

ومما ينبغي أن يعلم في هذا المقام أن بعض الناس قد استشكلوا ما حكاه الله سبحانه وتعالى في قصة إبراهيم من القول بربوبية الكوكب، ثم القمر، ثم الشمس بأنه كفر بالإجماع، والكفر غير جائز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مطلقا وأجيب عنه بوجوه:

الوجه الأول: إن إبراهيم عليه السلام لم يقل: هذا ربي على سبيل الإخبار والاعتراف بربوبيته، بل قاله على سبيل التنازل الوارد في

الجدال، فكأنه قال لهم فرضنا أن الكوكب هو الرب ولكن كيف يجوز أن يكون الرب يظهر تارة ويغيب أخرى، ويطلع ويغيب ويتحرك ويتحول؟ ! إلى آخر ما هنالك من اوصاف الأشياء الحادثة...

الوجه الثاني: إن المراد بقوله هذا ربي إنه ربي في زعمكم لأنكم كنتم تعبدون الكواكب. الوجه الثالث: إن المراد بذلك الكلام كلام واقع على سبيل الاستفهام الإنكاري، كما هو المعروف.

الوجه الرابع: أن يكون على كلامه قول مضمر والتقدير قال يقولون هذا ربي.

الوجه الخامس: إن كلامه ورد منه على طريق الاستهزاء بقومه.

الوجه السادس: إن اسم الرب ليس من الأسماء المختصة بالمعبود كالاله، إلا إذا أضيف إلى ما يختص به نحو رب العالمين. وإذا أضيف إلى المتكلم أو المخاطب كأن يقال ربي أو ربك جاز أن يراد به المربي وصاحب الأمر كما قال سيدنا يوسف عليه السلام في شأن عزيز مصر ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وكما قال: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ﴾ الآية. فقول سيدنا إبراهيم عليه السلام في المواقف الثلاث: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ إشارة إلى الكوكب أو القمر أو الشمس ليس إلا كقول يوسف عليه السلام ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وليس نصا في معنى الربوبية بالمعنى الممنوع، ولا سيما أن قومه كانوا متعودين على عبادة الكواكب على أساس أنها وسائط بين الخالق والمخلوق بزعمهم في ذلك العهد، فيجوز أن يراد به أن الكوكب الفلاني يربيني ويقربني إلى الله ويبعدني عن عبادة الهياكل المنصوبة.

ثم هذه الأجوبة مبنية على التزام أنه عليه السلام تكلم بذلك الكلام بعد البلوغ ووصوله حد التكليف. وأما إذا كان قبله وعند المراهقة فيقال: إنه تعالى خص إبراهيم بالعقل الصافي فخطر بباله قبل بلوغه معارضة الإشراك ورفض الهياكل والتوجه بالفكر السليم إلى الواحد الأحد، وبينما هو متفكر ومضطرب رأى ما رآه وأبدى ما أبداه على سبيل الانتخاب والاختيار حتى أتاه اليقين.

وقال بعض المحققين: التحقيق في الموضوع هو أن الكفر والإيمان وصفان متقابلان تقابل التضاد، فإن الكفر هو العناد والجحود بذات واجب الوجود. والإيمان هو الإذعان والتصديق به وبوحدته واستحقاقه للعبادة وإنه خالق لكل موجود. فهما كالسواد والبياض لا يجتمعان في محل واحد لتضادهما، ولكنهما قد يرتفعان، فكما أن الأجسام اللطيفة كالهواء ليست بأبيض ولا أسود كذلك من لا يكون فيه ايمان ولا كفر كمن نَشَأ في محل لم تبلغه الدعوة الإسلامية وبقي خالي الذهن منهما فإنه ليس بمؤمن ولا كافر، وكذلك المجنون والصبي الغير المميز فلا ينسب إليه منهما إلا بتبعية الدار او الوالدين أحدهما أو كليهما. وكذلك الصبي المميز الغير الدارس للموضوع، وأما المميز الدارس له فإنه يتصف بواحد منهما واقعا ولكنه لا يجري عليه الأحكام التكليفية المترتبة على البالغ ولا تجري أحكام الحدود وأمثالها مما يتعلق بالتكليف، وإن ترتب عليها الأحكام الوضعية كالغرامة لما أتلفه. فالصبي المميز الدارس المتفكر في الموضوع إذا نظر إلى الآفاق والأنفس وتفكر في آثار الخالق في الكائنات فربما استرشد إلى الاستدلال على وجود الصانع الواجب الوجود، وما دام هو يتفكر في هذا الشأن ربما ينتقل من طور إلى آخر من الظن إلى الاعتقاد ثم إلى اليقين، وإذا قلنا: له درجات، فهو يتحول بين درجاته إلى أن يصل إلى علم اليقين بل عين اليقين بل

حق اليقين، وهو في هذه المجالات، وإن كان في أوائل الاعتقادات لا يقال له إنه مؤمن لعدم التيقن ولا إنه كافر؛ لأنه غير جاحد وغير معاند، وإنما هو متفكر مسترشد يطلب الرشاد من الله تعالى. فشأن سيدنا إبراهيم في ذلك المجال وتكلمه بذلك الكلام ما دام كان أثناء البحث عن الخالق الخبير والصانع القدير لا يوجب القول بأنه عليه وبال وعنده شيئ ممّا لا يناسب قدره؛ لان القدر إذا لم يمتلئ لم يفض منه شيئ.
وحاصل الكلام: إن قوله عليه السلام ﴿هَذَا رَبِّي﴾ إنما كان على معنى غير معنى الخالق والاله؛ فإنه لم يقل (هذا إلهي). ولو سلمنا جدلا أنه كان على ذلك المعنى فبما أنه لم يكن قبل كلامه هذا دعوة إسلامية، وكان هو في دور الفكر والملاحظات لاستنارة القلب والتوجه إلى الله تعالى لم يكن إلا على حال الاستبصار والانتقال من مجال إلى مجال، حتى تجلى عليه الحق سبحانه وتعالى، وأفاض على قلبه النور والهدى، فلم يستقر قلبه إلا على الإيمان بواجب الوجود الخالق المعبود، كما قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ وهذا التحقيق حقيق بالقبول، والله الهادي إلى سواء السبيل.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) ﴾ <282>

قوله ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ يعني بعد أن اَعْلن إبراهيم عليه السلام توحيد الباري سبحانه وتعالى، ورفض عبادة الأصنام والهياكل خاصمه ونازعه قومه: أبوه ومن تابعه، تارة بالاستدلال بأدلة سقيمة عقيمة فاسدة مبنية على وجوب رعاية تقليد الجاهلين، وتارة بالتخويف بأمور على تركه عادة الملك وقومه ومعارضته بالنتيجة لإدارته وشئون مملكته، لكنه ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام في ردهم وسد أفواههم بكل فتوة نفسية، وقوة قدسية، مستنكرا لاحتجاجهم بالباطل وانتهاجهم بالأمر العاطل قائلا: ﴿أَتُحَاجُّونِّي﴾ وتخاصمونني ﴿فِي﴾ توحيد ﴿اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ إلى الإيمان بذاته وصفاته، وإنه الواحد الأحد الفرد الصمد ﴿وَ﴾ جعلني صاحب معنوية بحيث ﴿لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ به الملك العلام من الأصنام المصنوعة من الحجارة والأخشاب المسندة لا حول لها ولا قوة الا بالأوهام ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾؟ يصيبني من أثر مكرهم وقهرهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ بما ينفع وما يضرّ، فيجوز أن يحدث منكم مكر ومكيدة، ويجوز أن يحصل من الله تعالى صيانة وسلامة لي ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ما رأيتم من الكائنات من الحوادث والبليّات، وكيف نجَّا سبحانه وتعالى من شاء وابتلى بها من شاء، فإنه باق كما كان ولا يتغير بتغير الزمان ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ﴾ أنا المسلم المتوكل على الله ﴿مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي ما أشركتموه بالله القدير ما لم ينزل به عليكم سلطانا من تلك الأخشاب المشوهة والحجارة المموّهة، مع أنه لا يقبل العقل السليم أن يحدث منها أي شيئ للتعذيب أو للتنعيم ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ الحي القيوم بعض الجوامد التي ركبتموها مـ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ الباري تعالى ﴿بِهِ﴾ أي بتقديره وتقديسه فضلا عن عبادته عليكم <283>

﴿سُلْطَانًا﴾؟ ! برهانا من العقل بيانا أو دليلا من الحس عيانا ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ من الموحدين والمشركين ﴿أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ والسلامة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ مظانّ الخوف والأمان بالبرهان او بالعيان؟ والجواب لهذا الاستفهام عند أولي الأفهام هو أن الموحدين أحق بالأمن والسلام بلا جدال وكلام. لكن لما سكت القوم عن الجواب قال تعالى في تحقيق الحال: ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا﴾ بالله وملائكته ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ﴾ أي ولم يخلطوا إيمانهم ﴿بِظُلْمٍ﴾ وهو الإشراك بالله ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إلى الحق والسعادة الموافرة في الدنيا والدين.

﴿وَتِلْكَ﴾ الحجة الواضحة القوية التي استدل واحتج بها على قومه رفضا لعبادة الأصنام والهياكل والنيرات بأنها مسخرة ومنقادة للعمل وزائلة متحولة لا تبقى على حال، وكل ما كان كذلك لا يكون واجب الوجود ولا يستحق أن تنظر إليه بعين النظر إلى المعبود، وفرضا لعبادة الباري تعالى وحده بأنه هو الذي فطر السماوات والأرض وأودع فيها دقائق صنعة وحقائق حكمة، وكل من هذا شأنه وهو الفرد الصمد حقيق بأن يُطاعَ ويُعبَد هي ﴿حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ وألهمناه ليحتج بها ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ ولا عجب في ذلك فإن الأمر كله في قدرتنا ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ﴾ في العلم والحكمة ﴿مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في توديع الناس العلوم والحكم وتوزيعها عليهم حسب الموهبة المطلقة، أو وفق علو الهمم ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يكون مستحقا للرسالة ويختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90)﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ أي لإبراهيم عليه السلام ﴿إِسْحَاقَ﴾ وهو ولده من سارة عاش مائة وثمانين سنة ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ وهو ابن إسحق عاش مائة وسبعا وأربعين سنة ﴿كُلًّا﴾ من إبراهيم وابنه وحفيده ﴿هَدَيْنَا﴾ بالإيحاء، والرسالة، والنبوة، ونيل الكرامة، والثواب ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل إبراهيم عليه السلام. والمشهور أن إدريس عليه السلام كان قبله، وقيل بالعكس. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ الضمير راجع لإبراهيم عند جمع لأن المقام لبيان أحواله وشئونه. واختار كثيرون رجوعه إلى نوح لكونه أقرب، ولأنه ذكر من الأنبياء لوطا وليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخيه هاران، وآمن به وخرج معه مهاجرا إلى الشام، فأرسله الله إلى أهل سدوم. وكذلك يونس عليه السلام لم يكن من ذريته عند بعض، ولكن صرح في جامع الأصول أنه كان من الأسباط وعاصر (شعياء) وحينئذ لا يبقى خارجا من نسله إلا لوط عليه السلام و﴿دَاوُودَ﴾ هو كما قال

الجلال السيوطي: ابن إيشا، كان أحمر الوجه، سبط الرأس، أبيض الجسم، طويل اللحية، حسن الصّوت والخلق. وجمع له بين النبوة والملك. ونقل النووي عن المؤرخين أنه عاش مائة سنة ومدة ملكه منها أربعون سنة ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ ولده وكان على سمت أبيه، وكان يشاوره أبوه في صغر سنه لوفور عقله.

ويقال: إنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وتوفى وله ثلاث وخمسون سنة. ويقال: إن أباه داود ابتدأ بناء بيت المقدس وأكمله سليمان عليه السلام ﴿وَأَيُّوبَ﴾ وهو ابن موص، بن دوم، بن عيص بن اسحاق عليه السلام وحكى ابن عساكر أن أمه كانت بنت لوط عليه السلام وأن أباه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام قال ابن جرير: إنه كان بعد شعيب عليه السلام وقال ابن أبي خيثمة: كان بعد سليمان. وروى الطبراني أن مدة عمره كانت ثلاثا وتسعين سنة ﴿وَيُوسُفَ﴾ ابن يعقوب عليهما السلام وعاش مائة وعشرين سنة ﴿وَمُوسَى﴾ بن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوي بن يعقوب. وفي الصحيح وصفه بأنه آدمُ، طوال، جعد، كأنه من رجال شَنوءة. وعاش مائة وعشرين سنة. قاله الثعلبي. ﴿وَهَارُونَ﴾ أخوه الشقيق وقيل لأبيه وقيل لأمه. توفى قبل موسى عليهما السلام وقد ولد قبله بسنة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ومثل إبراهيم نجزي أولئك الرسل المحسنين ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ هو ابن اذن ابن بركيا كان من ذرية سليمان عليه السلام، وقتل يوم قتل ولده، ومات وعمره تسع وتسعون، وقيل مائة وعشرون سنة. ﴿وَيَحْيَى﴾ ابنه عليه السلام ﴿وَعِيسَى﴾ ابن مريم عليه السلام. وذكره من عداد الذرية دليل واضح على دخول ابن البنت في الذرية ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ هو ابن لسن بن فنحاص بن العيزار بن هرون أخي موسى بن عمران عليهم السلام ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ المراد الكاملين في الصّلاح ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ هو كما قال النووي: أكبر أولاد إبراهيم ولد من هاجر عليهما

السلام ﴿وَالْيَسَعَ﴾ قال ابن جرير: هو ابن أخطوب بن العجوز ﴿وَيُونُسَ﴾ وهو ابن متى كان في زمن ملوك الطوائف وولد في زمان شعياء وأرسل الى أهل نينوى بالموصل. قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ﴿وَلُوطًا﴾ هو ابن هاران بن آزر ﴿وَكُلًّا﴾ منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي على عالمي عصرهم. وفيها دليل على فضل الأنبياء على الملائكة ﴿وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ أي وهدينا من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم جماعات كثيرة ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ واصطفيناهم واخترناهم على غيرهم ممن أرسلناهم إليهم ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الحق الذي ارتضاه ربهم وأحكامه العملية التي تناسب زمانهم ﴿ذَلِكَ﴾ الهدى ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ هدى منه تعالى اختاره لأن يكون سراجا منيرا للقلوب ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ويظهر المهتدي من غيره باختياره الحسن إلى العمل الحسن ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ بالله تعالى غيره ﴿لَحَبِطَ عَنْهُمْ﴾ أي لسقط وضاع عنهم ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الصالحات، فإن صالح العمل موقوف على صالح الاعتقاد.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ المنزل من الله عليه أو على من سبقه وجعله تابعا له في العمل بما نزله ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي كيفية فصل القضاء بين المتخاصمين، أو الحكمة ومعرفة حقائق الأشياء حتى كانت أقوالهم واضحة مبينة مفيدة، وأعمالهم رصينة سالمة مجيدة، وأخلاقهم طيبة حميدة. ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ ورتبة النبوة التي هي خصوصية بين الله وعباده المختارين بها، وعلاقة كعلاقة المصباح بأطرافه المستنيرة ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي بتلك النبوة الرفيعة ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المشركون من أهل مكة أو الكفار مطلقا ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي بالإيمان بها وبرعايتها والعمل بمقتضاها ﴿قَوْمًا﴾ لهم قائمة الشرف و﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ في وقت من الأوقات وهم الأمة المرحومة التي أعلن الله أنها خير أمة أخرجت للناس من الطبقة الأولى، وما بعدها إلى يوم القيامة

فإن مثل أمة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره، ولا يزال الخير فيه وفي أمته الى يوم القيامة. ﴿أُولَئِكَ﴾ الأنبياء المذكورون هم ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي هداهم إلى الحق ﴿فَبِهُدَاهُمُ﴾ اعتقادا وأعمالا وأخلاقا ﴿اقْتَدِهِ﴾ أي كن مجمع الأنوار في النور الوارد، وكنز الكنوز للفوائد، وبحر البحور للفرائد، واقتداء شخص بشخص في أمَرٍ حَسَنٍ من الأمور لا يوجب كون المقتدي مفضولا حيث جاز ووقع اقتداء الفاضل بالمفضول على أنه ليس المراد بالاقتداء الاكتساب منه أو من قواعد دينه، بل المقصود هنا أن يكون جامعا لفضائل أولئك السلف الرشيد في الاعتقاد والأخلاق والأعمال حتى لا يبقى شيئ من المحسنات إلا وهو موجود عنده، وكذلك أن يكون عند المقتدي مزيد فائدة لم تكن موجودة عند الإمام؛ ولذلك قال عليه السلام: ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) كما أنه يجوز أن يكون عندهم من الآداب والأحكام ما لا يناسب عصره وعصر أمته وينسخ بما عنده من شريعته. ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ أيها الناس الناسون لحقوق الله على عباده ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على ما نزل علي وأبلغه إليكم من القرآن وأحكامه ﴿أَجْرًا﴾ ومنفعة مادية تعود إلي. فإن شأن الرسل إيضاح السبل للكل، وشأن الفائزين بالسعادة منهم الاتباع بلا جدال ولا نزاع ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرَى﴾ وموعظة حسنة تهدي إلى طريق الرشاد، أي ترك الفساد ومباشرة الخيرات للعباد، لا لأمة أو قبيلة محدودة بل لجميع ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾.

وهنا أمور يستحسن التنبيه عليها:

الأول: إن الله سبحانه لم يذكر الأنبياء الكرام على تسلسل النسب ولا الزمان، بل قدم منهم وأخر للإشارة إلى أمور معلومة لدى أهل الكفر، ومنها أن الدين الحق ينظر إلى الرسل نظرة واحدة كأن الكل مهتمون بشيء واحد

في عصر واحد، وليست مهمتهم إلا الرسالة وتنوير العباد أين كانوا ومتى كانوا وكيف عاشوا.

ولما كان الأولاد والأحفاد أول شيئ تَقِرّ به العُيون ذكر إسحق ويعقوب قبل كل شيئ. ثم لما كان نظر الناس إلى الدولة والدنيا أقوى ذكر داود وسليمان الجامعين لهما. وبعد ذكرهما ذكر الأنبياء من أصحاب الاسقام والبلاء كسيدنا أيوب وسيدنا يوسف. ثم ذكر من جعله مظهرا لقدرته حيث تسلّط مع ضعفه وفقره في طبيعته على ملك ادّعى الألوهية في مملكته، وبعد ذلك أراد أن يبين استغناءه عن رعاية الاعتبارات في خواص عباده، فذكر زكريا ويحيى المستشهدين بأيدي الطغاة من أهل البغي والعناد، وذكر عيسى لابتلائه بأيدي اليهود الألداء. واخر إسماعيل مع أنه كان من أولاده الصلبية لأنه رأس سلسلة مستقلة نادرة الوجود، وهي سلسلة آباء سيدنا محمد صاحب المقام المحمود، ثم ذكر اليسع ويونس ولوطا لتناسبهم في الانفراد ببعض أمور نادرة كابتلاء يونس بتمرد الآشوريين وابتلاع الحوت له، وابتلاء لوط بقوم لم يسبقها أمة في ارتكاب العمل الفاحش الذي ارتكبوه. والحاصل إن لكل من ذكر هنا خصوصية امتياز رجحت ذكره والله أعلم.

الثاني: يجب أن لا يتوهم أحد أن الأنبياء والرسل هم المذكورون في هذه الآيات أو غيرها من آيات القرآن الكريم؛ لأنهم لا يبلغون ثلاثين مع أن الرسل والأنبياء كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله فإنه تعالى قال: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ اي ياتى واحد بعد الآخر. وقال: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ﴾ فالحصر في عدد معين غير جائز قطعا. والأحسن الإمساك عنه. وإنما ذكر أولئك الأنبياء الكرام في القرآن لأنهم عاشوا في جزيرة العرب وكانت أسماؤهم دائرة

بين الناس، وأما الأنبياء والرسل الذين كانوا في البلاد الآسيوية الشرقية، أو الغربية، أو في أوربا وغيرها فلم يتعرض القرآن الكريم لذكرهم.

الثالث: إن الحق الحقيق بالقبول هو أن المدة بين أبينا وسيدنا آدم أبي البشر عليه السلام والأنبياء المذكورين لا يعلم ضبطه إلا الله، وما يقال إن المدة بينه وبين نوح عبارة عن عشرة قرون أو ما شاكلها ليست عليه حجة يعتمد عليها، فإن العقائد لا تؤخذ بروايات الآحاد. يقول تعالى في سورة هود: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية وفي سورة طه ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ وفي سورة السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ وفي سورة يس ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾. والحاصل: إن الآيات الصريحة في تقدم القرون الكثيرة كثيرة، والأدلة القاطعة على كثرة القرون متوفرة، فيجب على المسلم العاقل أن يؤمن بأن الأرض كانت مأوى للجن قبل الإنس. قال تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ وأن آدم عليه السلام خلقه الله وجعله خليفته في الأرض، وأما مبدأ ذلك الزمان، ومتى كان، وكم من الأمم جاءت وذهبت؟ فهو في علم الله تعالى لا يعلمها غيره. وإن المكلف كيفما كان وفي أي زمان ومكان وجب عليه إطاعة أمر ربه وخالقه وشريعته في خليقته، ويبقى على هذه الاعتقادات مع العمل بالشريعة إلى أن يموت، وأن يعتقد أنه سيأتيه الموت، ثم البعث بعد الموت، ثم الحشر والحساب، ثم المصير إلى دار الجزاء. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92)﴾

عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من اليهود يقال له: مالك بن الصيف فخاصم النبي صلى الله عليه وسلم. فقال النبي: اَنشُدُكَ الله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟، وكان حبرا سمينا، فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيئ ! فقال له أصحابه: ويحك ولا على موسى؟ فقال: والله ما انزل الله على بشر من شيئ فأنزل الله الآية. رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر. وذهب ابن جرير إلى أن الآية نزلت في قريش؛ لانها مكية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يعني وما عرفوا الله حق معرفته في إنعامه وكرمه وإفاضته الخير على عباده ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ حين قالوا ما أنزل الله على بشر شيئا من الوحي المسطور في الكتاب، فإنهم لو كانوا يعرفون قدرة الله على كل ممكن، ومدى رحمته بعباده، وإرسال الرسل إليهم لتعليم الأحكام ما تجاسروا على هذا السلب الكلي وما قالوا ذلك، علاوة على ذلك فهم يتجاسرون حين يتجاهلون إنزال التوراة على عبده موسى. ف ﴿قُلْ﴾ يا رسولي لرده وإخزائه: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى﴾ أي واضحا في ذاته، وموضحا طريق الحق لغيره من الناس ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ أي حال كون الكتاب أنه تجعلونه موزعا

بحسب الأهواء، مكتوبا في قراطيس ﴿تُبْدُونَهَا﴾ لمن يرغب فيكم وترغبون في إمالته إليكم ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ مما في ذلك الكتاب لعدم الرغبة في علم الناس به وإطلاعهم عليه، وعلمتم بواسطة ذلك الكتاب ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آَبَاؤُكُمْ﴾؟ وإذا لم يجبك أحد جهلا أو عنادا أو استكبارا ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي فقل أنت: أنزله الله. يعني الله هو الذي أنزل ذلك الكتاب ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي بعد أن بينت لهم أن الكتاب الموصوف أنزله الله على موسى وتم إلزامهم، ذرهم في خوضهم يلعبون، أي أتركهم يلعبون في خوضهم الباطل.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وكما أن الله أنزل الكتاب الواضح على موسى، وهذا الكتاب الذي نتلوه عليكم وندعوكم على ضوئه إلى الحق كتاب مبارك كثير الخيرات دينا ودنيا، مصدق للكتاب الذي بين يديه أي نزل قبله. والمراد به الإنجيل والتوراة وما سبقهما ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ معناه وكما نزل لتصديق الشرائع السماوية والكتب التي قبله كذلك نزل لتنذر أهل أم القرى أي مكة المكرمة، ومن حولها إلى آخر الكرة الأرضية جنوبا وشمالا شرقا وغربا لعموم بعثته صلى الله عليه وسلم إلى أمم العالم. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ﴾ وبلقاء ربهم فيها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بذلك الكتاب ومن أنزله ومن أنزل إليه، ﴿وَهُمْ﴾ لإيمانهم بما آمنوا به ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ لأن الدوام على الأعمال الواجبة فرع الإيمان الكامل بمن أوجبها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)﴾

نزلت هذه الآية فيمن ادعى النبوة كذبا وزورا كمسيلمة، والأسود العنسي وفيمن اجترأ على الله، وقال: سأنزل مثل ما أنزل الله كعبد الله بن أبي سرح، وكان من كتبة الوحي، وكان من خبره أن الرسول دعاه ليكتب الآيات الآتية في سورة المؤمنين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ فلما أملى عليه هذه الآيات ووصل إلى قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ عجب عبدالله من تفصيل خلق الإنسان فقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: ((أكتبها فكذا أنزلت علي)). فشك عبد الله حينئذ، وقال: لئن كان محمد صادقا لقد أوحي إليّ كما أوحي إليه، وإن كان كاذبا لقد قلتُ كما قال ! فارتد عن الإسلام، ولحق بالمشركين. ذكره ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ معناه ومن أشد ظلما وأقوى فسادا ممن اختلق على الله خبراً لا يطابق الواقع وقال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ مع أن إنزال الله تعالى الكتاب على الرسل ثابت ومحقق بذكر الأنبياء والرسل وإثباته بالمعجزات الباهرة ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من الله تعالى ﴿وَ﴾ الحال إنه ﴿لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كمسيلمة والأسود العنسي ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي قال أنا قادر على إنشاء مثل تلك الآيات النازلة من الله سبحانه وتعالى كعبد الله بن سعد بن أبي سرح ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ كالأناس الثلاثة السابقين ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾أي في سكراته الشديدة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ المأمورون بقبض الأرواح وهم أعوان أو مأمورو ملك الموت ﴿بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ أي مادون الأيدي بالتعذيب إليهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ من هذا العذاب وخلصوها منه، والمقصود من هذا

التوبيخ والتأنيب. ويقولون لهم: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي عذابا هو الإهانة والتحقير الذي أشد على أهل الشرف من كل عذاب، أو عذابا بالنار شديدا في ذاته ومخلوطا بالإهانة والتحقير ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من نفي إنزال الكتاب على أيّ بشر، أو ادعاء الوحي ودعوى النبوة كذبا، أو انزالهِ مثلَ ما أنزل الله، ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي تعرضون بدون تأمل فيها.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)﴾

عن عكرمة قال: نزلت الآية في النضر بن الحارث لما قال: سوف تشفع لي اللات والعزى. رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ استعراض لأحوال المشركين في يوم القيامة ليتنبه من له إدراك وبصيرة في الأمور، وينتهي عن العبث والغرور فيقول: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ أي لا شك ولا شبهة في أنكم ستأتوننا يوم القيامة فرادى بدون ناصر ومعين وبدون شفيع لكم عند الله المبين ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ من الأولاد والخدم والحشم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي وتتركون ما نفعكم وما انتفعتم بها كُلَّها ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ﴾ في ذلك اليوم ﴿شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي شركاء لله في الربوبية ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ﴾ ما ﴿بَيْنَكُمْ﴾ من وجوه الوصل والعلاقة الوثيقة ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أي وضاع عنكم ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاؤكم، أو أنهم شركاء لله تعالى عن ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ شروع في بيان آثار قدرة الباري تعالى وعجائب صنعه وأفعاله العجيبة التي يحار المتفكر فيها فقال: إن الله فالق الحب والنوى. والحب في اللغة المواد المأخوذة كثمرة للمزروعات أو الموجودات في داخل الفواكه. والنوى: جمع نواة. وهي الموجودة في داخِلِ التمرة والفلق الشق ومعنى الآية: إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يشق الحبوب والنوى المبذورة في الأرض فتخرج كنبات نام من الأرض وتعلو وتثمر ويعيش عليها الإنسان وسائر الحيوان ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾أي يُخرِج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر مما لا ينمو من النطفة <295>

والحب والنوى ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ والميت كالنطفة
والحب والنوى، والحي الحيوان والنبات والشجر ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾
يعني إن ذلك الصانع الحي العليم القادر الحكيم هو الله
الواجب الوجود المستحق للعبادة ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف
تصرفون عن عبادته وتشركون به المواد الجامدة التي لا حياة
فيها ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ الإصباح مصدر سمي به وقت الصبح أي
إن الله تعالى أخرج نور الصباح من ظلمة الليل حتى يبصر
الناس وسائر الحيوانات ما أمامها فيأتي الإنسان ويذهب
ويسعى ويكتسب، ويدور الحيوان والحشرات على طريق
معيشتها ويحصل ما يتقوت بها، وألهم كل ذي روح ما يحتاج
إليه في بقائه واستمرار نوعه على اختلاف المستويات، وميز
الإنسان بينها بتفكرات نابعة عن النفس الناطقة، وبمحاولات
عملية دقيقة على ما يسر له من أسباب الرقي. ومن أهمها:
العلم، ووحدة الصف، ونظام العدل. فإن الأعمال الناتجة عن
الجهل لا تكون أنيقة، وما يكتسب بدون وحدة الصف لا تتقدم
به الأمة، وما يحصل بدون النظام العادل لا يستريح منه البشر.
﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ أي كما أنه خلق الإنسان والحيوانات،
وخلق لها وسائل عيشها وفلق الصبح، وجعل النهار مجالا
لكسب المعيشة بالتعب، كذلك جعل الليل سكنا أي وقتا يسكن
إليه المتعبون بالنهار من كل إنسان وطير ودابة ﴿وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي وجعل الشمس والقمر حسبانا. والحسبان
بالضم مصدر حسب بالفتح بمعنى الحساب، أي جعل الشمس
والقمر ذوي حساب ومنشأ حساب للأوقات في الليل والنهار
والأسابيع والشهور والسنين على أوضاعهما المتتابعة في
الشروق والغروب، سواء كانت الحركة منهما أو من غيرهما
﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي ذلك الجعل ناشئ من تقدير
الله العزيز الغالب على أمره العليم بكل ما جرى ويجري في
الكائنات. <296>

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ ما عدا الشمس والقمر ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ عند السير في الصحارى أو البحار، أي تهتدوا بطلوعها وارتفاعها وغروبها دائما ﴿فِي ظُلُمَاتِ﴾ الليل بـ ﴿الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فإن من راقبها بمرور الوقت يستعلم منها أوقات الليل وجهة الشرق والغرب كما يستعلم من طلوعها وغروبها أحوال الفصول والمواسم حرا وبردا، ومواسم الزراعة وغرس الأشجار وغير ذلك لأن الله تعالى جعلها علامات على أحوال شتى. فمن راقبها وكان له معرفة بحركات السيارات منها استنبط أشياء كثيرة.

والمذموم من التنجيم ومن أحوال المنجمين نسبة الآثار إليها لا جعلها علامات على أمور خفية، كما أن كل إنسان يستعلم من تفتح الأزهار حلول موسم الربيع. والحاصل: إن الاستدلال بالعلامات والأسباب أمر مشروع وإنما الخطأ في جعل العلامات عللا واقعية بدون نسبة التأثير إلى الحكيم الخبير. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ معانيها ومراميها وأهدافها فيعملون بمقتضاها. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي آدم عليه السلام وخلق منها زوجته، وبَثكم منهما على بسيط الأرض ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي فلكم استقرار في الأماكن التي استوطنتموها واستيداع في الأماكن التي سكنتم بها بقدر الضرورة ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآَيَاتِ﴾ الموضحة لأحوال الأمة وواجباتها في أدوار حياتها واستقرارها واستيداعها ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ معانيها الدقيقة الحقيقة بالتأمل والإمعان.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ منهم من فسرها بأنه تعالى أنزل من نفس السماء ماء مع بعدها مسافة ويقول إن ذلك من الممكنات وظاهر الآية دليل عليه. ومنهم من فسرها بتقدير المضاف أي من جانب السماء. أي من جهة الفوق. ومنهم من فسر السماء بالسحاب مستدلا بأن الأبخرة الكثيرة تجتمع في باطن الأرض ثم تصعد بالرياح وترتفع إلى الهواء وينعقد السحاب <297>

منها ويتقاطر ماء. ويستدل بأن الناس كثيرا ما يقفون على قمم الجبال تحت الشمس ويرون السحاب المتراكم في وسطها وتنزل منها الأمطار، وكل ذلك محتمل وجائز، والمؤمن بقدرة الله فائز ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي فاخرجنا من الأرض وأنبتنا بذلك الماء نبات كل صنف من أصناف الناميات ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي نباتا ملونا بالخضرة ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ والجملة صفة لما قبله. أي خضرا نخرج منه حبا كثيرا يركب بعضه بعضا كما في السنبل ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ النخل معروف ويستعمل في الواحد والجمع. والطلع شيئ يخرج منه كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود. والقنوان جمع قنو بمعنى العذق. وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب، وتثنيته قنوان، ولا فرق بين المثنى والجمع إلا الإعراب، أي أن إعراب المثنى بالألف والياء وإعراب الجمع بالحركة لأنه جمع مكسر. وقوله دانية أي قريبة من المتناول، أو قريبة من الأرض بكثرة ثمرها وثقل حملها. أي وأخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾أي وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ وقوله تعالى ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ إما حال من الزيتون اكتفى به عن حال الرمان لسبقه، والتقدير والزيتون مشتبها وغير متشابه، والرمان كذلك. أو حال من الرمان لقربه ويقدر مثله في الأول أي وأخرجنا الزيتون والرمان حال كون ذلك بعضه مشتبه وبعضه غير متشابه في الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأصناف. وذلك دليل على كمال حكمة صانعها وقدرته الواسعة ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ﴾ إلى حالِ ﴿يَنْعِهِ﴾ أي نضجه واستوائه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآَيَاتٍ﴾ عظيمة دالة على وجود الصانع القادر الحكيم ووحدته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يطلبون الإيمان بالله تعالى. <298>

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)﴾

وقوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ معناه إن ذلك الإله العظيم الشأن العظيم الآثار الذي ذكرنا أوصافه آنفا جعل المشركون الجاهلون له شركاء ونظراء في الألوهية والربوبية. وقوله ﴿الْجِنَّ﴾ عطف بيان أو بدل من الشركاء. والمراد من الجن إما الشياطين، ومعنى جعل الجن شركاء له تعالى إنهم يطيعونهم كما أطاعوا الباري تعالى، أو المراد به الملائكة حيث عبدوهم وقالوا: إنهم بنات الله سبحانه وتسميتهم جنا مجاز لاجتنانهم واستتارهم عَنِ الأَعْين. وقوله: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ حال من فاعل جعلوا بتقدير قد، أي والحال إن الله تعالى خلقهم لا الملائكة، وكانَ الحق أن يوحدوا من خلقهم، أو الضمير راجع إلى الجن أي وجعلوا الجن شركاء له تعالى مع أنه تعالى خلقهم، وما دام هو خلقهم ولم يكونوا إلا بإيجاده وإحداثه فكيف يعقل أن يكونوا شركاء له تعالى؟ ﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾ أي اختلقوا ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت العرب: الملائكة بنات الله. وهذا الخلق كان بغير علم بحقيقة من خطأ أو صواب ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ وتنزيها له ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزيها له تعالى أن يكون له ولد أو زوجة ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي موجدهما ومبدعهما من العدم إلى الوجود

﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)﴾

يعني أن ذلك الخالق لكل شيئ والعليم بكل شيء هو ربكم رباكم وأوصلكم إلى مستوى الإنسان اللائق بالاحترام، ولا معبود بحق إلا هو خالق لكل موجود مباين لذاته، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به غيره، وهو على كل شيئ وكيل، أي متولّ لجميع الأمور ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ المودعة في الوجوه في هذه الدنيا وإنما تدركه الأبصار المودعة في وجوه الوجهاء في الآخرة، ووجهاء الآخرة من وجه وجهه في حياته إلى ذاته وصفاته، ونظر إلى رحمته وهباته، وتَرَكَ محرماته، وأدى واجباته، وفيهم قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23)﴾ وإنما فسرنا الآية على الوجه المذكور؛ لأنه لا يجوز حملها على السلب الكلي المستغرق للأزمنة والأمكنة والأحوال مع أفراد الموضوع، وإلا لزم أن لا ترى ذاته الشريفة عين في الدنيا ولا في الآخرة لا من المؤمن، ولا من الكافر، وليس الأمر كذلك لأنه قد تقررت الآية بحملها على رفع الإيجاب الكلي، أي لا تدركه كل الأبصار، وإنما تدركه بعض الأبصار، وذلك لوجود الدليل على رؤيته تعالى في دار الآخرة كالآية المذكورة آنفا، ولحديث: ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر)) وهذا الحديث رواه الكثيرون من الصحابة رضي الله عنهم. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي يراها على وجه الإحاطة والضبط الكامل وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ جملة سيقت للتعليل على قوله ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ لأن اللطيف لا يمنعه شيئ عن الوصول إلى شيئ.

وقال بعض: إنها تعليل للحكمين السابقين، فاللطيف يفيد علة عدم إدراكه بالأبصار. والخبير يفيد علية إدراكه للأبصار. فإن قيل: اللطيف مقابل للكثيف، وهما من صفات الجسم ! قلنا: ذلك هو اللطيف النسبي،

والمراد باللطيف في وصفه تعالى اللطيف الحقيقي المطلق، وذلك ليس مما له علاقة بالأجسام. وقد بين ذلك في محله.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107) وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108)﴾

قوله تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة. وهي المقلب كالبصر للعين يدرك بها الحقائق. والآية استئناف وارد على لسان الرسول أو شأنه كسائر الآيات السابقة. أي قل يا حبيبي: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ أو هو تعالى مباشرة يقول: أيها الناس قد جاءكم ﴿بَصَائِرُ﴾ أي آيات بينات كالبصائر والقوى المودعة في القلوب لإدراك الأشياء على ما هي عليه، أي جاءكم الرسول ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بكتاب مبين معجز ويحتوي على اعتقادات سليمة وأحكام مستقيمة، وعظات وإرشادات مناسبة لأهل القلوب السالمة عن العناد ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحق بتلك البصائر ﴿فَـ﴾ لقد أبصره ﴿لِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ﴾ عن إدراكه ﴿فَـ﴾ عماؤه ﴿عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ يحفظ أعمالكم فيجازيكم عليها، بل الله هو الحفيظ المجازي على أعمال العاملين <301>

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ﴾ معناه ومثل ذلك التصريف اللطيف المناسب للمقام نصرف الآيات، ونغيرها من صنف إلى صنف باجراء الحوادث في الكائنات وبإنزال الآيات البينات، وبإظهار المعونات والمعجزات ليسترشد المسترشدون على حسن النيات ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أي وليقول الكفار الحاسدون المتعنتون ليست تلك الآيات من خالق السماوات بل من الجن أو من بعض الأعاجم الآتين بالأساطير المنقولات، فإن سنة الله جرت على أنه كلما أرسل رسولا أو أقام داعيا يدعو إلى الرشد ومعارضة الخرافات انقسم الناس أصنافا، فمنهم من اتبع الحق، ومنهم من عاند. والمعاند منهم الساكت، ومنهم الناشر لبذور السيئات، ونحن لا نهتم بهم ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ نحن نستمر على ما أردنا من الهدى لما ذكرنا ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾ أي الحق ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وهم الصالحون السالمون. ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ واستمر دواما على تبليغك وحسن حسبك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَأَعْرِضْ﴾ بكل وجه ﴿عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تعتد بأقاويلهم الباطلة وعاداتهم العاطلة، ولو شاء الله عدم إشراكهم وهدايتهم إلى التوحيد قسرا ما أشركوا، ولكن ما شاء ذلك لأن سر العبودية إنما يظهر في حسن تصرف العباد بتوجيه قلوبهم إلى داعي الرشاد فيؤمنوا وينقادوا ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي رقيبا مهيمنا من جانبنا حتى تخاف من عدم أداء الواجب. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تقوم بأمرهم حتى تخاف من سوء العواقب على جسارتهم. إنما أنت رسول أمين، وما على الرسول إلا البلاغ المبين. ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي يدعوه المشركون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إنسانا أو أوثانا، فإن من اعتقد شيئا حصل في قلبه من ذلك عقدة لا تنحل، ولا يحصل من سبابه وشتائمه إلا الجراحة <302>

المؤدية إلى الوقاحة ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾ وتجاوزا عن الحق والحد ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منهم، إن ذلك شيئ باطل عاطل ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي مثل هذا التزيين المبني على ما وقر في القلب زينا لكل أمةٍ عملهم من الخير والشر ويستمرون عليه إلى أن يموتوا ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ الله ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الأعمال الحسنة أو السيئة المبنية على ما في قلوبهم من النية الحسنة أو السيئة.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)﴾

ثم ذكر الله تعالى بعض أحوال المشركين الفاسدة فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي أقسم المشركون بالله ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي أيمانا بالغة حدها من الاهتمام: ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من الله تعالى دليلا على صدق محمد صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي بتلك الآية قل يا رسولي ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ولا تحدث ولا تحصل ولا تنزل إلا بأمره وإرادته ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه نحن نعلم أنا إذا أنزلنا الآيات المقترحة حسب اقتراحهم تعاندوا وأولوها على غير الحق، ولا يؤمنون وما دام الأمر كذلك فلا تنزل الآيات إلا حسب إرادتنا وحكمتنا.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ أي وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق، ونُحَوّل أبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه،

وذلك لأنا وجدناهم مستمرين على العناد والاستكبار فهم لا يؤمنون بالآيات المقترحة على فرض إنزالها ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي بالرسول أو بما نزل عليه وهو أكبر آية عالمية ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي عند ورودها بادي بدء في أول الزمان.

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني ونتركهم في حالهم السيئ مِن الطّغيان حال كونهم يعمهون ويتحيرون لا تبقى عندهم بصيرة في أمورهم.

<304>

الجزء الثامن

<305>

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ جاء تحقيقا لما عليه طبيعة أولئك المشركين المعاندين من الاستمرار على الكفر وعدم الاهتمام بقوارع الأحداث وزواجر الآيات فيقول ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة كما طلبوا إنزالها ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ بإحيائهم ثم شهادتهم بأن الإيمان بالله وبرسوله واجب ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ أي لو حشرنا عليهم كل شيئ جماعات في موقف واحد ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ ما صح لهم الإيمان ولا استَقامَ لهم في أيّ حال من الأحوال ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي إلا في حال تعلق مشيئة الله بإيمانهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي ولكن أكثر الكافرين المشركين يجهلون عدم إيمانهم عند مجيئ الآيات لجهلهم بأن الله لم يشأ إِيمانهم.

قال صاحب روح المعاني: وتحقيق ذلك أنه قد حقق كثير من الراسخين إن ماهيات الممكنات المعلومة لله تعالى أزلا معدومات متميزة في نفسها تميزا ذاتيا غير مجعولة لما حقق من توقف العلم بها على ذلك التميز، وإنما المجعول صورها الوجودية الحادثة، وإن لها استعدادات ذاتية غير مجعولة تختلف اقتضاءاتها، فمنها ما يقتضي اختيار الإيمان والطاعة، ومنها ما يقتضي اختيار الكفر والمعصية والعلم الإلهي متعلق بها كاشف لها على ما هي عليه في أنفسها

من اختلاف استعداداتها التي هي من مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، واختلاف مقتضيات تلك، فإذا تعلق العلم الإلهي بها على ما هي عليه في أنفسها من اختلاف استعداداتها حسب ما يقتضيه استعدادها من اختيار أحد الطرفين الممكنين أعني الإيمان والطاعة أو الكفر والمعصية تعلقت الإرادة الاِلهية!!! بهذا الذي اختاره العبد حال عدمه بمقتضى استعداده تفضلا ورحمة، لا وجوبا لغناه الذاتي عن العالمين المصحح لصرف اختيار العبد إلى الطرف الآخر الممكن بالذات إِن شاء، فيصير مراد العباد بعد تعلق الإرادة الإِلهية مرادا لله تعالى.

ومن هذا يظهر أن اختيارهم الأزلي بمقتضى استعدادهم متبوع للعلم المتبوع للإرادة مراعاة للحكمة تفضلا، وأن اختيارهم فيما لا يزال تابع للإرادة الأزلية المتعلقة باختيارهم لما اختاروه، فهم مجبورون في ما لا يزال في عين اختيارهم، أي مساقون إلى أن يفعلوا ما يصدر عنهم باختيارهم لا بالإكراه والجبر، ولم يكونوا مجبورين في اختيارهم الأزلي لأنه سابق رتبة على العلم السابق على تعلق الإرادة. والجبرُ تابع للإرادة التابعة للعلم التابع للمعلوم الذي هو هنا اختيارهم الأزلي، فيمتنع أن يكون تابعا لما هو متأخر عنه بمراتب، فمن وجد خيرا فليحمد الله تعالى؛ لأنه سبحانه متفضل بالإيجاد لما اختاروه لا يجب عليه مراعاة الحكمة، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه لأن إرادته جل شأنه لم تتعلق بما صدر منهم من الأفعال إلا لكونهم اختاروها ازلا بمقتضى استعدادهم، فاختارها تعالى مراعاة للحكمة تفضلا. والعباد كاسبون بالله تعالى إذ لا كسب إلا بقوة ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والله تعالى خالق أعمالهم بهم لأنه سبحانه أخبر بأنه خالق أعمالهم مع نسبة العمل إليهم المتبادر منها صدورها منهم باختيارهم. وذلك يقتضي أن المخلوق لله تعالى بالعبد عين مكسوب العبد بالله تعالى، ولا منافاة بين كون الأعمال مخلوقة لله تعالى، وبين كونها مكسوبة لهم بقدرتهم واختيارهم. وما شاع

من الأشعري من أنه لا تأثير لقدرة العبد أصلا، وانما هي مقارنة للفعل، وهو بمحض قدرة الله تعالى فمما لا يكاد يقبل عند المحققين. وقدرة العبد عندهم مؤثرة بإذن الله تعالى لا استقلالا كما تزعمه المعتزلة، ولا غير مؤثرة كما نسب إلى الأشعري، ولا هي منفية بالكلية، كما يقوله الجبرية. وهذا بحث مفروغ منه، وقد أشرنا إليه في أوائل التفسير، وليس غرضنا هنا سوى تحقيق أن عدم إيمان الكفار إنما هو لسوء استعدادهم الأزلي الغير المجعول المتبوع للعلم المتبوع للإرادة ليعلم منه ما في كلام الشهاب وغيره. وقد حصل ذلك بتوفيقه تعالى عند من تأمل وأنصف.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117)﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ الآية كلام مستأنف نزل لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم مما أصابه من جانب مشركي قريش من الأقاويل والأفاعيل، فيقول الباري جل شأنه: ومثل ما جعلنا لك أعداء من قريش وغيرهم من الجهات الكثيرة جعلنا لكل نبي ممن تقدمك عدوا بل اعداء ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ أي المتمردة من النوعين عن الإيمان وكذلك من المؤمنين الفسقة الجهلة الذين يلفقون أكاذيب ينشرونها بين الناس، وجهة عداوتهم أنه ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي يلقى بالسرّ أو بالإشارة بعض إلى بعض ما يكون عيبا على الرسول الذي يعادونه، ويكون ما يوحيه إليه ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ أي القول الباطل المزين بالأكاذيب، وقوله ﴿غُرُورًا﴾ مفعول له للفعل السابق، أي وإنما يوحي بعضهم إلى بعض ذلك غرورا واستكبارا واعتمادا على النفس بدون مستند واقعي ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ما قدروا على ذلك الإيحاء لأنه تعالى قادر على كل ممكن فعلا أو لا، وإنما أملي ذلك لهم ترفيعا لدرجات الأنبياء والمرسلين وتمرينا لهم ولأتباعهم على مصابرة الأعداء ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ إلى وقت المحاسبة والجزاء يوم الدين ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ﴾ على الوجه الصحيح الثابت وإنما يؤمنون بها على ما تلقوه ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ ويختاروا القوت للأرواح الخبيثة والقوة للنفوس الأمارة ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ أي وليكتسبوا ما هم يكتسبونه من القبائح التي لا تليق إلا بهم.

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ الجملة مستأنفة على إرادة القول والهمزة للإنكار. يعني قل لهم يا رسولي: هل أطلب حكما يحكم بيني وبينكم غير الله؟ وهل أميل إلى زخارف القول من الشياطين وأترك حكم الله تعالى وهو الذي أنزل الكتاب إليكم مفصلا فيه الأحكام ومميزا فيه الحق عن الباطل؟ ﴿ وَالَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾

السابق على كتابك وهم علماء اليهود والنصارى وأحبارهم ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي أن الكتاب المنزل إليكم ﴿مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالوجه ﴿الْحَقِّ﴾ ومتلبسا به ولكنهم يعاندون ويتجاهلون ابتغاء مرضاة الهوى وأهله. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا رسولي ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ المترددين في عملهم بذلك أو في أن القرآن منزل إليكم بالحق كنظائره والنهي تعريض بالناس الممترين الفاسدين، والا فسيد أهل اليقين من الواصلين إلى حق اليقين ولا يمكنه عدوله عن علم يلزم ذاته فإن علم الإنسان بنفسه ولوازمها الضرورية ضروري غير قابل للإنفكاك أبدا. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي كلامه وحجته على العالمين، وهي أن الدين عند الله الإسلام، وأن محمداً خاتم الأنبياء الكرام وأصحابه خير أمة أخرجت للرسل بمر الأيام، وأنه يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي حالكون ربك صادقا في ما أتى به من الكلام وعادلا في الأقضية والأحكام ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ ولا ماحي لها، ولا ناسخ لأحكامها الأساسية ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل ما يمكن أن يعلم ويخبر عنه. وهذا الذي نزل عليك وعَلمته هو الحق الثابت، ومن سلك طريقه اهتدى فلا تنحرف عنه ولا تسمع كلام الكفار المشركين وغيرهم ولا تطعهم ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ وهم الكفار على اختلاف أهوائهم ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأنهم ليسوا أرباب بصيرة ويقين في أمورهم ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يقولون ويعملون بالخرص والتخمين. ومن يسلك طريق الظن في الاعتقاد فهو ضال ومن يمشي على اليقين فهو مهتدٍ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ من أهل الخرص والظنون ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآَيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122)﴾

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتى اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله؟ فنزلت الآية رواه أبو داود والبزار والترمذي. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمدا فقولوا له: ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله بشمشار من ذهب (يعني الميتة) فهو حرام؟ فأنزل الله تعالى ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾. قال ابن عباس: الشياطين فارس وأولياؤهم قريش. رواه الطبراني وابن جرير.

روي عن زيد بن أسلم قال: نزلت الآية أي ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا﴾ في عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام وهو أبو جهل كانا ميتين في ضلالتهما فأحيا الله عمر

بالإسلام، وأعزه، وأقر أبا جهل على ضلاله وموته، وذلك أن رسول الله دعا فقال: ((اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام)) فاستجاب الله له في عمر. رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآَيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أمر مترتب على النهي عن اتباع المضلين. يعني أيها المؤمنون لا تتبعوا الكافرين، ولا تأكلوا مما لم يحبه الدين المبين، فكلوا مما ذكر اسم الله عليه لا ما ذكر اسم غيره تعالى عليه فقط، أو مع اسم الله جل جلاله؛ كأن يقول باسم الله واسم اللات ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي بينه وأوضحه بقوله ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ الآية من سورة الأنعام أيضا. وليس التفصيل ما في قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ الآية من سورة المائدة فإنها مدنية من آخر ما نزل فكيف يحال عليه ما ورد في مكة ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من الكفار ﴿لَيُضِلُّونَ﴾ الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام بأهوائهم الزائفة وشهواتهم الباطلة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مأخوذ من الوحي ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أي بالمتجاوزين على الحق إلى الباطل.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾ ما يعلن منه بين الناس ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ أي ما يسر منه كالزنا والمفاسد الخفية، أو ظاهر الإثم أعمال الجوارح وباطنه ما في القلب من الاعتقادات الفاسدة والحسد والحقد والغضب وتمني ما ليس له وقصد الإضرار بالغير فيما كان للإنسان سيطرة عليه ودخل في حد التكليف ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ أي يعملون المعاصي سرا أو علنا ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي يكتسبون أي إنهم يستحقون جزاءه على العدل من الله، وإن كان يجوز عفوه فضلا منه تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ معناه ولا تأكلوا من لحم حيوان لم يذكر اسم الله على ذبحه ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾

أي وإن ترك ذكر اسم الله تعالى تعمدا فسق وخروج من أدب الدين. وظاهر الآية حرمة أكل لحم حيوان لم يذكر اسم الله عليه سواء كان ترك الذكر عمدا أو نسيانا، وإليه ذهب الإمام داود الظاهري، ولكن يبعد تعميم الترك من العمد أو النسيان قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ لأن ترك التسمية لا يكون فسقا لأن الناسي غير مكلف. ومذهب الإمام الأعظم حرمة الأكل عند ترك التسمية عمدا ولا نسيانا. وكذلك مذهب الإمام مالك في بعض الروايات. وقال الشافعي: إن المقصود مما لم يذكر اسم الله عليه أنه ذكر اسم غيره عليه فترك التسمية عليه سهوا أو عمدا لا يحرم أكل لحمه. ومثله مالك في بعض الروايات.
والدليل ما رواه أبو داود وعبد بن حميد عن راشد بن سعد مرسلا: ((ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله تعالى أو لم يذكر)) ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ أي وإن إبليس وجنوده من شياطين الجن والإنس يوسوسون إلى أوليائهم وأصدقائهم الذين اتبعوهم من المشركين شُبهاً ضعيفة سخيفة في الموضوع ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بالباطل كما قالوا: إن الميتة قتلها الله، وَذَبائحكم أنتم قتلتموها فكيف تحرم ذبيحة الله وتحل ذبائحكم؟ ! وتلك الشبه أوهام واهية لا تطيعوا المشركين فيها ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فيها واستحللتم الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لبداهة أن ترك طاعة الرب لإطاعة غيره إشراك به تعالى. أعاذنا الله منه.

ثم أراد الله سبحانه تنفير المسلمين عن طاعة المشركين فقال: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ يعني أو من كان ضالا فهديناه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ﴾ أي وخلقنا لذلك الحي نورا عظيما يمشي به أي بسبب ذلك النور في الناس أي بينهم ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾؟ أي كمن صفته أنه في الظلمات المتراكمة بحيث لا يخرج منها ولا يقدر على التجاوز عنها.

والجواب الصحيح: لا؛ فإن الضال لا يكون كالمهتدي، كما أن الميت

لا يكون كالحي ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي كتزيين الأعمال الصالحة أمام المؤمن زين للكافرين وأمام أعينهم ما كانوا يعملون من السيئات من أكل الميتة وغيرها من المحرمات.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (123) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آَيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (124) فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (125) وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (127)﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا﴾ الآية اسم الإشارة استعملت هنا للإشارة إلى شيئ معقول معلوم عند الرسول كالمشار إليه المحسوس، أي كما جعلنا في مكة أكابر من المجرمين ليمكروك فيها، جعلنا سابقا وأجعل لاحقا ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ الطغاة الهواة للأوهام والأهواء الباطلة ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ من يزعمون أنه حجر عثرة أمام إرادتهم ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لأن وبال مكرهم وقتل أهل الحق وتشريدهم يعود عليهم إن عاجلا أو آجلا ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك شعورا يزجرهم ويردعهم عما به يشتغلون.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آَيَةٌ﴾ تدل على صدق الرسول وحقية ما جاء به
ووجوب نصره وتأييده ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ
رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي حتى يأتينا الوحي مثل ما أتى الرسول، ويتكلم
جبريل معنا كما تكلم معه، فرد الله تعالى ذلك عليهم بقوله
الكريم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وأي نفسية لها قدسية
وتناسب هذه الموهبة العالية وليس العلم بذلك من صفات
الناس، بل الله أعلم بذلك بل هو العالم لا غيره، والذين تمنوا
ذلك من المجرمين أمام حكم الله، والذين يعقبون قولهم ذلك
بأعمال بذيئة مخالفة للرسول من أفظع المجرمين و﴿سَيُصِيبُ
الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ﴾ وذل في الدنيا أو في الآخرة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾
حسب ما قدره وقرره في علمه ﴿وَ﴾ يصيبهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾
فيهما ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ مع الرسول وكتابه وأتباعه
المسلمين، ويا أيها الرسول الكريم لا تبتئس بما كانوا يمكرون
ويكفرون ويعادونك فإن الله تعالى نظر إلى العباد وميز أهل
الإطاعة والانقياد من أهل العداء والعناد فمنهم من قرر شرح
صدره، ومنهم من قرر بسوء اختيار سوء أعماله وخسرانه في
عاقبة أمره وهما فريقان متفارقان لا يتساويان ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ
أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فيجعل في قلبه علما وافيا بما
يجب اتباعه ويتنور ما أمامه للتطبيقات الفعلية ويرى وراء ذلك
لقاء بربه ووصولا إلى جزائه ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ على حسب
ما علم منه أنه يسيئ التصرف النفسي ويعارض النداء
القدسي ويتبع هواه كما يشاء ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ﴾ إزاء اعتناق الدين
والتزام مبادئه ﴿ضَيِّقًا﴾ لا يسع خزن الإرشادات ﴿حَرَجًا﴾ متعبا
إزاء التفكرات الدقيقة لنيل الحقائق ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾
أي يصعد في الهواء بدون طائر يطير فيه ويصعد في الأثير
العالي بدون قوة هائلة ينفذ بها فيه ﴿كَذَلِكَ﴾ وبمثل ذلك الجعل
المذكور ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ من الخذلان عن الإيمان
والدخول في الكفران ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يريدون أن
يؤمنوا بما جاءهم من

الرسول الأمين وما نزل عليهم من الكتاب المبين ﴿وَهَذَا﴾ القرآن العظيم الشأن وواسع البيان ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ طريقه الذي ارتضاه لسلوك السالكين وانحراف الهالكين ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ معتدلا ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيتفهمون دقائقها ويعلمون حقائقها ﴿لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء المتذكرين ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾ الجنة التي لا لغو فيها ولا أثام، وفيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من فرح القلوب على نهج آمال الكرام وهي معدة لهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ ومحبهم وناصرهم فيجازيهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (131) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ (133) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآَتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ منصوب على الظرفية، والعامل فيه أذكر. يعني أذكر يوم يحشر الله الثقلين فيه ﴿جَمِيعًا﴾ فيقول: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ وجماعته ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ﴾ إغواء ﴿الْإِنْسِ﴾ وإضلالهم ﴿وَقَالَ﴾ عند ذلك ﴿أَوْلِيَاؤُهُمْ﴾ الذين أطاعوا الجن: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ وانتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على الشهوات، وتمتع الجن بالإنس، حيث اتخذوهم قادة واتبعوا أمرهم وقضينا حياتنا في هذه الأمور التافهة، ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ﴾ وعينته ﴿لَنَا﴾ وهو يوم القيامة، فنحن مُعترفون بأنا مُقترفون فـ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى في جواب قولهم: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ ومنزلكم ومحل إقامتكم لتعذيبكم فيها ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ من وقت نقلكم من النار إلى برد الزمهرير فأنتم تتقلبون فيها كما قررنا ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في التعذيب بالنار أو بالزمهرير، و﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال الثقلين من القليل والكثير ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الذي تعلمونه من أحوال الكافرين وأتباعهم الشياطين الإنس والجن لإغوائهم ﴿نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ آخر منهم وتلك التولية ﴿بِـ﴾ سبب ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الأعمال السيئة، فإن المسيئ إذا تندم ورجع تاب الله عليه وغفر له وسامحه، وأما إذا استمر في غيه ازداد ساعة فساعة ويوما فيوما إثما واثما آخر وثالثا.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي من جملتكم، ولو أتى من الإنس فقط، فإن المشهور أن لا رسول يرسل من الجن أو من القبيلين على أن يراد برسول الجن الرسول من طرف رسول الإنس إذ لا مانع من أن

يؤمن من الجن أشخاص فينتخب منهم شخص ويرسل من جانب الرسول الإنسي إلى تعليم باقي الجن كما أرسل جمع من قبل المسيح عليه السلام إلى انطاكية. ويذكرهم الله بالرسالة فيقول: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ مع أنهم رسل عيسى لا رسل الله بالذات ﴿يَقُصُّونَ﴾ أي أولئك الرسل ﴿عَلَيْكُمْ آَيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي يوم الحشر واللقاء والحساب ﴿قَالُوا﴾ أي الفريقان: ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ بإيتاء الرسل وتبليغ الكل، ثم يقول الباري عز اسمه ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130) ذَلِكَ﴾ أي إتيان الرسل ثابت لـ ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (131) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي ولكل فرد من الجن والإنس درجات مما عملوا أي مراتب من سيئات ما عملوا صالحة أو سيئة، وعلى كل درجة من الخير درجات من الرضوان، وعلى درجة من الشر دركات من النيران، فكما أن كل مؤمن يدخل الجنة والتفاوت بحسب ميزان الحسنات كذلك الكافرون متساوون في استحقاق النار ولكن يتفاوتون في شدة العذاب على حسب درجة سوء المعاصي ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ في الليل والنهار وفي البراري والبحار، وهنا ينكشف معنى قوله صلى الله عليه وسلم: ((رأيت عمرو ابن لحي ويجرُّ أمعاءه في النار)) او كما قال.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ المطلق عن كل ما سواه وسائر الأغنياء إذا استغنوا عن بعض الأشياء فهم في حاجة إلى غيره، وأما الباري تعالى فغني بالإطلاق، ومع أنه غني مطلق عما سواه فهو ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ على العباد، وجهات رحمته لا تحصى، ولولا رحمته الواسعة لأباد أهل الكفر والعناد من العباد، وما دام كذلك فهو ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ ويستأصلكم بحيث لا يبقى منكم أثر ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق

﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ﴾ لم يكونوا على صفاتكم كمن نزل مؤمنا من سفينة نوح عليه السلام ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ بعد الموت من الأهوال والبعث والحشر والحساب ﴿لَآَتٍ﴾ متحقق لا محالة ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لنا عما نريده فإذا علمت أن الله تعالى هكذا ف ﴿قُلْ﴾ يا رسولي: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا﴾ ما تشاؤن ﴿عَلَى﴾ مقدار ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ من الإيذاء والإلقاءات والدس والإفتراء ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي بما خولني ربّي، وسائر على منهج الرسل من إرشاد العباد وتوجيههم إلى الله ووحدته وصفاته الكاملة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي من يكون له عاقبة حسنة وختام خير من بقاء في دار الدنيا ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ والمشركون هم الظالمون. وفي الآية الشريفة تهديد للكفار والمشركين الأشرار، وقد حقق الله تعالى جزء مما هددهم به، وهو أنه أخزاهم وأبادهم ولم يخل لهم كرامة وشأنا في الدنيا وسوف ينالون جزاءهم في دار الآخرة على ما قرره الله رب العالمين.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (136) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (137) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (138) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140)﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ شروع في بيان بعض آخر من الأحوال الفاسدة التي افتعلها المشركون، وهو أنهم كانوا إذا حصلوا على واردات مالية من الحرث والنسل أي من الزراعات والنتاج أخذوا منهما سهمين: سهما لله يصرف للضيفان وسائر وجوه الخير، وسهما للأوثان وما تحتاج إليه ! واذا دعت حاجة إلى صرف السهمين صرفوا من سهم الله على سدنة الأصنام. وأما السهم المختص بالأوثان فلا يصرفونه إلا إليهم. والباري تعالى ينقدهم على هذا العمل الدنيئ فقال: ﴿وَجَعَلُوا﴾ أي مشركو العرب ﴿لِلَّهِ﴾ تعالى ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ ه الله وأظهره ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾كفوائد الزراعة ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ كالفصلان والطليان ﴿نَصِيبًا﴾ أي قسما معينا ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ ونصيبا آخر ﴿وَ﴾ قالوا: ﴿هَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ يصرف في مصالحها ﴿فَمَا كَانَ﴾ معينا ﴿لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ﴾ معينا ﴿لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ وذلك تحكم وتعسف بلا داع ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فيما فعلوا من صرف سهم الله لمصالح الأصنام، وعدم صرف سهم الأصنام إلا للأصنام.

والحاصل: إنه بالرغم من أنه كان أصل عملهم فاسدا بدون مبرر وداع كان صرف نصيب الله إلى غيره من الأصنام دون العكس فسادا آخر. و﴿كَذَلِكَ﴾ العمل الفاسد الذي نشأ منهم عقيدة فاسدة وهي أنه ﴿زَيَّنَ﴾ الباري خلقا وإبداعا على أساس العلم بسوء اختيارهم في المستقبل

﴿لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ أي إن الجن أو السدنة القائمين على الأصنام زينوا لهم قتل الإناث من أولادهم فيدفنون البنات المسكينات وهن أحياء، وكانوا في ذلك فريقين أحدهما يقول: إن الملائكة بنات الله سبحانه؛ فالمناسب أن نقتل بناتنا ليلحقن بالله تعالى، والآخر يقتلهن خشية الإنفاق.

وقيل: خشية العار والإنفاق. وهو المروي عن جماعة. والآية الكريمة في الإسراء تصرح بالأول وإنما زينوا ذلك في قلوبهم ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي ليهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل فإن دينه كان صافيا عن هذه الخرافات، والشياطين من الإنس ألقوا إليهم هذه الخرافات باسم الدين حتى يتغير عليهم ما كان فيه من التكليفات المشروعة، وإن كان أصل الدين لم يبق كدين معمول به ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ما فعل المشركون هذه التلبيسات وما ألقوها إليهم ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي فاتركهم وافتراءاتهم الواردة على قلوبهم من الشياطين.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي وقالوا في شأن ذلك النصيب الذي أفرزوه لالهتهم هذه أنعام وحرث أي زرع وأنعام محجورة لله ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ وكان قولهم ذلك مربوطا ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ لا بدليل مشروع مقبول ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي وقالوا: هذه أنعام حرمت ظهورها؛ فلا تركب ولا تحمل ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي وكانت من بين أنعامهم أنعام لا يذكر اسم الله عليها أي لابد أن تذبح تقربا إلى الأصنام ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ ويفعلون بإسنادهم له إلى أمر الله به افتراء علي الله، ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. ﴿وَ﴾ من جهة أخرى ﴿قَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾ أي لأولادنا الذكور ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ أي على من هي من صنف أزواجنا أي الإناث وهن بناتهم ﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ وأما إذا كانت ميتة أي ولد ميتا فهم أي الجميع من الأولاد والبنات فيه شركاء

﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله ﴿وَصْفَهُمْ﴾ أي بيانهم المذكور السابق افتراء على الله ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فيجزي كل عامل حسب عمله. ثم ذكر الباري عاقبة أمرهم فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا﴾ وخفة عقل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من فوائد الأنعام ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)﴾ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ﴾ الآية عود إلى ما هو المقصود الأصلي من إقامة الدلائل على تقرير التوحيد، فيقول ﴿وَ﴾ الله ﴿هُوَ﴾ القادر

﴿الَّذِي أَنْشَأَ﴾ وخلق لكم ﴿ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ يعني شجرات مثمرة محمولة على العريش وهو عيدان تصنع كهيئة السقف ويوضع الكرم او شبيهه عليه ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أي وأنشأ لكم جنات غير معروشات وهي الملقيات على وجه الأرض كالكروم السطحية وأشباهها ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ أي ثمره الذي يؤكل منه اختلافا بالحجم واللون واللذة ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ من الأصناف المتشابهة في الصورة وغيرها ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أي يقال من جانب مالك الملك حسب التشريع: كلوا يا عبادي منْ ثَمَره ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ﴾ الذي أوجبه الله عليكم ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ إِن كان المراد بالحق حق الله أي الزكاة فالواجب العشر فيما وصل بلا كلفة، ونصف العشر فيما حصل بها، وإن كان حقا آخر واجبا قبل الزكاة فالمراد المقدار الذي تقرر في ذلك الوقت، وإن كان عبارة عن أجرة البستاني والعامل فيه فهو ظاهر ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في إيتاء الحق ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وعن أبي العالية قال: كانوا لا يعطون يوم الحصاد شيئا سوى الزكاة ثم تسارفوا (أي تبارَوا بالإسراف) فنزلت هذه الآية.

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وعن ابن جرير قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، جذّنخلا فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمْسى وليس عنده تمرة. فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي وهو الذي أنشأ لكم من الأنعام حمولة أي ما يحمل عليه

الأحمال، وفرشا أي ما يفرش منها للذبح قائلا لكم: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي كلوا بعض

ما رزقكم الله وهو الحلال؛ لأن الله تعالى لا يأمر بأكل الحرام ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي لا تتبعوا طرقه الإغوائية ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾

بدل من حمولة وفرشا، والزوج يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى كما يقال لمجموعهما. والمراد هنا الأول ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ قل للمشركين تبكيتا لهم: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ الله تعالى ﴿أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ أي انثى ذينك الصنفين ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ ذكرا كان أو أنثى ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ الله تعالى ﴿أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾؟ أي بهذا التحريم ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؟ فَنَسب إليه تعالى تحريم ما لم يحرّم۔ والمراد به على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عمرو بن لحى ابن قمئة الذي بحر البحائر وسيّب السوائب وتعمد الكذب على الله تعالى، وقيل كبراؤهم المقررون لذلك ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ أمر لرسول الله بعد إلزام المشركين بأن يبين لهم ما حرم عليهم لا اَجدُ في ما أوحي إلي محرّما ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أيّ طاعم كان من ذكر أو أنثى ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ﴾ ذلك الشيء المحرم ﴿مَيْتَةً﴾ والمراد بها ما لم يذبح ذبحا شرعيا، فيتناول المنخنقة والموقوذة والنطيحة وما أكل السبع ولم يصل إليه صاحبه في حال الحياة المستقرة حتى يذبحها ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ أي مصبوبا سائلا كالدم في العروق، وخرج به الدم الجامد كالكبد والطحال ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أي قذر أو خبيث مخبَّث ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ والمراد به الذبيح على اسم الأصنام فإنما سمي ذلك فسقا لتوغله في الفسق، وأصل الإهلال رفع الصوت ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء من ذلك ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي حال كون ذلك الرجل أو المرأة غير باغ على نصيب مضطر آخر ولا متجاوز مقداراً يكفيه ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

واستشكلت هذه الآية الشريفة بأنها حصرت المحرمات من المطعومات في أربعة: الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، والفسق الذي أهل لغير الله به. ولا شك أنها أكثر من ذلك ! وأجيب عنه بأن الآية مكية، وكلمة أوحي فعل ماض مجهول فالآية الشريفة تدل على التوقيت، ومعناها قل: لا أجد فيما أوحي إلي إلى هذا الوقت محرّما غير هذه الأربعة، وذلك لا ينافي ورود تحريم أشياء أخرى بعد ذلك الوقت، كما في آية سورة المائدة النازلة بالمدينة المنورة، وهي: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ الآية على أنه وسع الله تعالى في

المطعومات بقوله الكريم في سورة الأنعام ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ وفي سورة الأعراف ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ الآية وما يقال من أنهما ليسا مضبوطين إن أراد أنهما ليسا مضبوطين بضبط تحديدي لا يقبل الزيادة والنقص فمسلم، ولكن الدين يسر، ولم يقرر الأمور الاقتصادية على ذلك المنهج، وإن أراد أن الطيبات والخبائث لم يكونا مضبوطين عند أوساط الناس من العرب الموجودين في عهد نزول الآية بالحرمين فهو غير مسلم، فإن كل عاقل ذي طبع سليم يعلم أن الحيوانات المستقذرة والسامة كالحيايا والعقارب والسلحفيات والفئران والخنافس وما شاكلها، وكل حيوان يعيش على أكل الخبائث، وكل سبع ذي ناب متلطخ بدماء الحيوانات الضعاف، وكل طير ذي مخلب يصيد العصافير والطيور الضعاف الأخرى، وكل ما ذكر تحريمه في آيات المائدة والأنعام من الخبائث المستقذرة.. من الخبائث ولا تؤكل إلا في الاضطرار، وما عداها من الطيبات تؤكل بلا شبهة. وأما ما كان فيه شبه من الجانبين أي يعد من الطيبات عند بعض ومن الخبائث عند آخر فمن طاب هو عنده أكله، ومن خبث ذلك عنده تركه، ومن لم يكن له رأي فيه فالأصل فيه الإباحة فلم يبق اشتباه شرعي، لأن بعض المحرمات منصوصة وبعضها متروكة ومحالة على طبائع أوساط الناس المعتدلين، إذا لم يلحقه المجتهد بأحد الجانبين من الطيب والخبيث بالقياس، وأما إذا ألحقه المجتهد بأحدهما قياسا فلا تبقى فيه شبهة لمن اتبع ذلك الإمام. والأصل فيما لم يظهر فيه محرّم ولا مبيح الإباحة؛ لأن الأصل في الأشياء الحلّ والبراءة.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ أي كل ما له اطبع كالإبل والسباع والطيور، وقيل كل ذي مخلب وحافر وسمي الحافر ظفرا مجازا.

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي على الذين هادوا ﴿شُحُومَهُمَا﴾ الثروب وشحوم الكِلى، أي لا لحومهما فإنها باقية على الحل والثروب شحوم على الأمعاء والكرش ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ أي ما علق بظهرهما، ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ فإنه عطف على المستثنى وليس بشحم بل هو بمعنى المباعِرِ، فيكون الاستثناء منقطعا. وإذا اعتبرت مضافا مقدرا أي شحوم الحوايا كان الاستثناء متصلا ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وهو شحم الإلية لاتصالها بالعصعص. ﴿ذَلِكَ﴾ التحريم كان جزاء لهم ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ وعدوانهم على الأنبياء بقتلهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في ما أخبرنا به عن الماضي أو غيره. آمنا بذلك. ومن أصدق من الله قيلا؟.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ أي كذبك اليهود لقربها، أو المشركون ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ لا يعاقبكم باستعجال ﴿وَ﴾ لكنه ﴿لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ وسينتقم منكم على إنكاركم ما وقع منه تعالى من تحريم بعض الطيبات عليكم.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)﴾

قوله ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الآية بيان لنوع آخر من أباطيلهم؛ فقال تعالى ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ عدم إشراكنا ﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ نحن ﴿وَلَا﴾ أشرك ﴿آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ وما دام كان تحريمنا لما حرمنا مما شاء الله فلا عتب علينا، فرد الله تعالى عليهم بقوله ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل ما كذب هؤلاء المشركون الموجودون في وقت الرسالة كذب المشركون الذين من قبلهم في الأزمنة الغابرة، وكانوا يستدلون على تبريرهم في التكذيب بمثل استدلالهم من قبل، ومقصودهم الأخير من ذلك تكذيب الرسول في دعوى الرسالة من الله، وإن التوحيد مقصود لله، وإن الإشراك مذموم مردود عنده والدليل على ظاهره قياس استثنائي تقريره: لو شاء الله عدم إشراكنا ما أشركنا لأن مقابلة مشيئة الله ممتنعة، لكنا أشركنا، فينتج أن الله شاء إشراكنا ! فإذا جعلت هذه النتيجة صغرى لدليل يكون تقريره مع الكبرى: كل إشراك منا حصل بمشيئة الله تعالى، وكل امر حاصل بمشيئته لا عتب على العباد فيه، فإشراكنا لا عتب فيه علينا ويدل قوله تعالى: ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي ذاقوا عذاباً من عندنا مقررا لهم على أن قولهم لو شاء الله ما أشركنا لم يكن عن إيمان بالله ونفاذ قدرته حسب ارادته، وإنما قالوه عن كفر بالله وتملص للخروج من ربقة التكاليف والأحكام، وعن اتباع للظنون والأوهام التي دعتهم إلى الاعتقاد بأن كل ما شاء الله فمباشرته حلال، وليس كذلك لأنه وإن كان الممكن الموجود لا يخرج عن إرادته وقدرته لكن المرضي منه ما لم يكن فيه دخل إلا له تعالى، أو كان فيه دخل لكسب العبادِ المكلّفين على الطريقة المباحة المشروعة. وأما ما باشره على أساس سوء الاختيار وصرفه إلى ما لا ينبغي فهو وإن كان خلقه من الله تعالى وبإرادته وقدرته، لكن ذلك تابع لعلمه بأن ذلك الإنسان الفاسد يكفر بالحق ويجحد ويعاند، أو ينحرف عن إطاعة الله في تشريعه

ويقصده بسوء القصد على سبيل البغي والعدوان والعصيان. وذلك موجب لسخطه تعالى وعدم رضائه.

وحاصل الجواب: إن الدليل الذي استدللتم به مسلم بتمام أجزائه وإن أعمالكم السلبية والإيجابية كلها بمشيئته تعالى وإرادته، ولكن ليس كل مراد منه تعالى مرضيا، بل منه المرضي وهو ما وافق منهج الدين، ومنه ما هو غير مرضي كما خالف الدين والحق القويم. وعلاوة على ذلك فإنهم ليسوا عالمين بتوجه مشيئة الله الى إشراكهم قبل الإشراك، ولكن بعد أن أشركوا جاءوا يبررون إشراكهم بما قالوا، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ بتعلق مشيئة الله وإرادته بإشراككم، وعلى ذلك العلم أشركتم ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فتظهروه لنا إظهارا وافيا؟ والجواب: لا. وأيد ذلك الرد بقوله الرادع لهم وهو: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ الباطل الذي لا يغني من الحق شيئا ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾ يا رسولي ما دام كلامكم مبنيا على الاستناد إلى مشيئة الله تعالى ﴿فَلِلَّهِ﴾ خاصة ﴿الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أقصى درجات القوة لا لكم، لأنه ينظر إلى مشيئته حسب تعلق علمه الأزلي بأفراد العباد المجهزين بالحواس، والعقل، صرف الإرادة، وعلمه بأن أي واحد منهم يختار الأمر الحسن الموافق للحق ورضائه تعالى، وأي واحد يختار خلافه. وأنتم تنظرون إلى مشيئته بعد تحقق أعمالكم السيئة، وتبررون بتعلق المشيئة بها صدورها عنكم، فعلى اعتبار الباري لمشيئته واعتبار نفاذها في ما تتعلق به[3] ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾

[3] في روح المعاني: وقال شيخ مشايخنا الكوراني: (الحجة البالغة) اشارة الى أن العلم تابع للمعلوم وان ارادة الله تعالى متعلقة بإظهار ما اقتضاه استعداد المعلوم في نفسه مراعاة للحكمة جودا ورحمة لا وجوبا انتهى. ومآل ذلك مع ما ذكرناه واحد.

الله هدايتكم جميعا ﴿لَهَدَاكُمْ﴾ إذ لو شاء هدايتكم قسرا وتنفيذا منه ما منعها شيء وهداكم إلى ما اختاره من الدين ولم يستثن أحداً بل هداكم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لكنه لم يشأ ذلك إذ لا يبقى بعد الإرادة والتنفيذ القسري معنى لعبادة العابدين، وإنما يكون المعنى لصرف العبد اختياره إلى فعل ما أمر الله به ومخالفته لنفسه وهواها، وإلى ترك ما نهى الله عنه وتحمل أذى مخالفة النفس ومتمنياها[4]. ﴿قُلْ﴾ يا رسولي ﴿هَلُمَّ﴾ أي أحضروا ﴿شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾

وقال ابن المنير وجها آخر في توجيه الآية، وهو ان الرد عليهم انما كان لاعتقادهم انهم مسلوبو الاختيار والقدرة، وان اشراكهم انما صدر عنهم اضطرارا، وزعموا انهم يقيمون الحجة على الله ورسوله عليه الصلاة والسلام بذلك فرد الله عليهم قولهم في دعواهم عدم الاختيار لانفسهم وشبههم بمن اغتر قلبهم بهذا الخيال، فكذب الرسل، واشرك بالله عز وجل، واعتمد على انه انما يفعل ذلك بمشيئة الله تعالى، ورام افحام الرسل بهذه الشبهة.

ثم بين سبحانه انهم لا حجة لهم في ذلك وان الحجة البالغة له جل وعلا لا لهم. ثم أوضح سبحانه ان كل واقع بمشيئته وانه لم يشأ منهم الا ما صدر عنهم، وانه تعالى لو شاء منهم الهداية لاهتدوا اجمعون.

والمقصود من ذلك ان يتمحض وجه الرد عليهم، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد، وينصرف الرد الى دعواهم سلب الاختيار لانفسهم وان اقامتهم الحجة بذلك خاصة، واذا تدبرت الآية وجدت صدرها رافعا بصدور الجبرية وعجزها معجزا للمعتزلة، اذ الأول مثبت أن للعبد اختياراً وقدرة على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والعصيان، والثاني مثبت نفوذ المشيئة لله تعالى في العبد وان

---

[4] قال في روح المعاني: وقال الكوراني المراد لكنه لم يشأ اذ لم يعلم ان لكم هداية يقتضيها استعدادكم، بل معلوم له عدم هدايتكم، وهو مقتضى استعدادكم الأزلي الغير المعجول. وهذا تحقيق الحق ولا ينافي ما في صدر الآية لما علمت من مرادهم به. وفائدة ارسال الرسل على القول بالاستعداد وقطع اعتذار الظالمين. وقد أشرنا الى ذلك من قبل فتذكر.

جميع أفعاله على وفق المشيئة الالهية، وبذلك تقوم الحجة البالغة لأهل السنة على المعتزلة. والحمد لله رب العالمين. < 331>

الشيئ الحرام ﴿فَإِنْ﴾ حضروا و﴿شَهِدُوا﴾ أن الله حرّمه ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فإنها شهادة زور ومن أهل الفسوق والفجور لا أهل العدالة والحضور. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ﴾ كعبدة الأوثان ﴿وَ﴾ الذين ﴿هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يجعلون له عديلا مستحقا للعبادة. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وسبحان ربك رب العزة عما يصفون.

ومما يجب أن يعلم أن هناك مقدمات قطعية لا مجال للنزاع فيها، وهي أن الكائنات ممكنة وحادثة وأن لها خالقا واجب الوجود متصفاً بالكمال ومنزها عن النقص، وأنه عالم بجميع ما خلقه ويخلقه بذواتها وصفاتها الاستعدادية وغيرها. وأن الموجودات المخلوقة منها الجمادات والناميات والحيوانات، ومن الحيوان نوع الإنسان وهو مكلف ومسؤول باتفاق العقلاء، وأن أولئك العقلاء كما لهم الحواس الخمس يحسون بها ما يختص بواحد منها كذلك لهم العقول المدركة للنافع والضار في أمور الدنيا وأمور الدين. وأنه بحسب الظاهر عنده قدرة وإرادة وعلم بحيث يتمكن من تصور الأحكام والتصديق بها وتوجيه القدرة إليها بعد تعلق إرادته بها، ولا نزاع أيضا في أن الفعل يصدر منه ظاهرا وهو مصدره فعلا أو تركا خيرا أو شرا، إلا أنّ الكلام في أن علاقة العبد به هل أنه خلقه بلا دخل لله، تعالى عن ذلك. أو أن الله خلقه بلا دخل للعبد فيه مطلقا، أو أن الطرفين لهما علاقة به بالتأثير فيه أو في وصفه، أو أن علاقة الله تعالى به بالخلق والتأثير وعلاقة العبد فيه بالكسب؟ والحق الحقيق بالقبول الثابت بالدليل هو هذا الأخير أي أن الله تعالى خلق ذلك الفعل لكن عند توجه قدرة العبد وارادته إليه، وإن توجيه القدرة التابعة للإرادة هو المسمى بالكسب. فذلك العمل مخلوق لله تعالى يخرجه من العدم إلى الوجود فهو الخالق ومكسوب للعبد

لأنه حصل بصرف العبد قدرته وإرادته إليه، فالعبد كاسب ولا بأس بكون الفعل بين الله وعباده أي بخلقه وكسبهم. وعلى كل فالباري سبحانه وتعالى كان ولم يزل ولا يزال عالما بالعبد وبأنه يفعل ذلك ويترك ذاك لأن عدم علمه به نقص لا يناسب الباري تعالى وهذا العلم ليس كوسيلة إجبار للعبد في فعله بل هو مختار والله عالم به وباختياره أزلا وأبدا. ولكن شرار العباد من الكفار والعصاة يبررون صدور السيئات منهم بأنها تعلق علم الله وقدرته ولا يمكننا أن نتركه، ولكن هذه شبهة فاسدة؛ لأن علمه تعالى ليس من المجبر للعباد، وإنما علمه كمرآة فيها صور الأشياء وهي حاكية لها لا حاكمة عليها؛ فالناس مسئولون عن أعمالهم إن خيرا فجزاؤهم خير وإن شراً فجزاؤهم شرّ نعم لو كان الله أراد أن يعمل جميع الناس الخيرات كان قادرا على هدايتهم لها لكنه تعالى لا يجبر أحداً على شيئ وإلا لم يبق معنى لعبودية العباد فإن العبد يجب أن يطيع بالاختيار لا بالاجبار هذا والله اعلم.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ بعدما أظهر الله لهم بطلان ما
اعتقدوه من الإشراك وبطلان ما ادعوا تحريمه، أمر رسوله
صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم وينصحهم على الأسلوب
المرغوب ويبين لهم ما يستحق الاجتناب من العقائد الفاسدة
ومن الأعمال العاطلة الكاسدة فقال له صلى الله عليه وسلم:
﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أيها المشركون ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي من أن لا تشركوا به شيئا أي اشراكا
ضعيفا أو قويا، أو شريكا واحدا فصاعدا ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾
أي وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا تاما كاملا لا يشوبه شيئ من
الإساءة ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي وأن لا تقتلوا أولادكم ﴿مِنْ
إِمْلَاقٍ﴾ أي من أجل خوف فقركم ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ جميعا
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ من أصناف الزنا ما ظهر منها وما بطن،
مما يعمل علانية أو سرا باتخاذ الأخدان أو بالاستيلاء على
النّسوان ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها بالإسلام أو
بالمعاهدة ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كأن تقتل بالكفر بعد الإيمان، والزنا بعد
الإحصان، وقتل النفس المعصومة، كما في الحديث الشريف.
﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ خطورةَ وصيّة الله للعباد.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ أي لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه
﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالهيئة التي هي أحسن الهيئات كأن
تقربوا منه لحفظه وتنميته واستثماره ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي
حتى يبلغ رشيدا قال تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ والأشدّ: على وزن أفعل بفتح الهمزة وسكون
الفاء وضم العين جمعٌ لا واحِد له عند الفراء أو مفرد كآنك، ولم
يأت على هذا الوزن في المفرد غيرهما. وقيل: هو جمع

شِدّة كأنعم في جمع نعمة، أو شُدٍّ بضم الشين كوُدّ وآوُد، أو شَدّ بفتحها... وأيّا كان فهو من الشدة أي القوة. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي أتمّوهما للمشتري أو الآخذ بحق إتماما متلبسا بالعدل بحيث لا يتضرر المعطي والمعطى له ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي إلا بما في وسعها وطاقتها ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولا في حكومة أو شهادة أو استشارة أو نحوها ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه، وقولوا الحق ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَى﴾ أي صاحب قرابة لكم ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي ما عهد إليكم من الأمور المعدودة أو أي عهد شرعي أو ما عاهدتم الله عليه من الأيمان والنذور. ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يندرج فيه وتعملون بمقتضاه. ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ قرىء إنِّ بكسر الهمزة والتشديد على الاستيناف وأن بالفتح والتخفيف، وأنَّ بالفتح والتشديد- أي ولأن هذا الذي ذكر في السورة كلها، أو في الآيتين السابقتين صراطي وطريقي حال كونه مستقيما لا عوج فيه فاتبعوه، واسلكوا فيه حتى لا تهلكوا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ أي الأديان المختلفة ما عدا دين الإسلام، أو الطرق التابعة للهوى المختلقة من الناس من أنواع البدع المكفرة وغيرها، والأفكار المبتكرة الداعية إلى غير طريق الإسلام ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ أي فتتفرق بكم تلك السبل عن سبيل الله، ومعنى تفرق بكم تفرقكم وتزيلكم عنه. والمضارع من محذوف التاء في باب التفعل، ومنصوب لوقوعه جوابا للنهي. ﴿ذَلِكُمْ﴾ الاتباع لسبيل الله بالاعتصام والتمسك بالعروة الوثقى وترك اتباع السبل المختلفة ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عقاب الله تعالى وأخذه إن أخذه أليم شديد.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (156) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (157)﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تقرير للعمل بالوصية المذكورة سابقا، وتنبيه على أنّ هذه الوصية المودعة إياكم ليست مختصة بكم، بل هي سنة الله في عباده المرسلين لأمّتهم وأتباعهم ألا ترون أنّا آتينا موسى الكتاب أي التوراة ﴿تَمَامًا﴾ أي إتماما للكرامة والنعمة عليه و﴿عَلَى﴾ الإنسان ﴿الَّذِي أَحْسَنَ﴾ القيام بهِ من أمّته ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ومفصلا لكل حكم اعتقادي أو عملي مما يحتاج إليه في الدين ﴿وَهُدًى﴾ وارشادا ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالمكلفين ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لعلهم يصلون بنور التقوى إلى الإيمان الكامل بالبعث بعد الموت، وبلقاء ربهم المدبر لأمورهم في الدنيا والدين ﴿وَهَذَا﴾ القرآن العظيم ﴿كِتَابٌ﴾ كريم ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ بواسطة جبرائيل الأمين إليك ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير البركة من خير الدنيا والآخرة ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ في الأحكام الإيجابية والسلبية ﴿وَاتَّقُوا﴾ مخالفة ما فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا أيها الناس الذين أرسل إليهم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ﴾ من الله تعالى ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ والحق إنا كنا غافلين عن دراستهم، وما علمنا أحكامهما، وما استفدنا منهما شيئا

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ﴾ كما أنزل عليهم ﴿لَكُنَّا أَهْدَى﴾ وأرشد ﴿مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ قطعا لمعذرتكم وإزالة لغطاء غفلتكم ﴿بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي كتاب آياته بيّنة وحجة جليلة واضحة، وأنزل من ربكم الذي خلقكم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ يعني ومن الذي هو أكثر ظلما على نفسه ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون ﴿عَنْ آَيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي بالعذاب السيئ الشديد ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أي بسبب ما كانوا يستمرون على الإعراض عن آياتنا.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آَيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آَيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (158) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160)﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ جملة أو جُمَل مستأنفة مسوقة لبيان أن المشركين حصلت لهم عقدة نفسية لا تنحل بشيئ من الآيات سواء الآيات المقترحة منهم أو غيرها. وهل للاستفهام الإنكاري عند الجمهور. أي لا حق لهم في أن ينتظروا تلك الأمور لعدم انتفاعهم بها. ومعنى ظاهر الآية الشريفة: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ينتظر أولئك المشركون ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يوم القيامة في ظل الغمام حسبما

أخبر ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آَيَاتِ رَبِّكَ﴾ مما ترشدهم إلى الحق ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آَيَاتِ رَبِّكَ﴾ كطلوع الشمس من مغربها ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ في ذلك اليوم حال كونها ﴿لَمْ تَكُنْ آَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ لأنها وقت لم يعتبر الإيمان فيه لكونه ناشئا من خوف الأمر الجاري لا من خوف ذات الباري ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ عطف على آمنت، وأو للترديد الخلوي؛ لأنه يجوز استفادة المؤمن من الإيمان وكسب الخير إذا اجتمعا، ويمتنع استفادته خيرا إذا لم يكن له إيمان ولا كسب خير فتقدير الآية: لا ينفع نفسا إيمانها المجرد عن العمل إذا لم تؤمن قبل ذلك اليوم، ولا إيمانُها وكسبُها الخير إذا لم تؤمن ولم تكسب الخير قبل ذلك.

والحاصل: إن الإيمان المجرد عن العمل، وإن كان ينفع الإنسان، لكن لا ينفعه في ذلك اليوم إذا لم يتحقق قبله لأنه وقت اليأس، ولا ينفع فيه الإيمان وحده أو مع العمل. وأما قبل ذلك اليوم فإنّه إذا آمنت إيمانا وافيا، ولم تكسب خيرا، او آمنت وكسبت خيراً، فهو المستفيد الناجح، لكن النجاح من اجتماع الأمرين نجاح ظاهر، وأما من آمَنَ بدون العمل فنجاحُهُ ضئيل، وأما من كسب الخير بدون الإيمان أو لم يكسب الإيمان ولا الخير فلا خير فيه ومصيره إلى النار وبئس المصير.

﴿قُلِ﴾ يا رسولي بعد تبليغ الرسالة ﴿انْتَظِرُوا﴾ ما تنتظرونه من إتيان أحد تلك الأمور ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ لذلك اليوم، وحينئذ نحن المالكون وأنتم الهالكون ولله عاقبة الأمور. وكان الكلام هنا مع المشركين وظهر مصيرهم، ثم بين الله سبحانه حكم اليهود والنصارى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ من اليهود والنصارى وكل فرقة أخذت نوعا من العقائد والأحكام وصارت متميزة عن الأخرى بحيث تُعارض بعضها بعضا، كما أخرج أبو داود والترمذي وصححه، وابن ماجه وابن حبان وصححه، عن

أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقه، كلهم في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة)) ثم استثناء الواحدة من فرق كل من أهل الكتابين إنما هو بالنظر إلى العصر الماضي قبل النسخ، وأما بعده فالكل في الهاوية. وقوله لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ أي لست بالنسبة إليهم وملحوظا منهم في شيئ من الفرق، أو لست من السؤال عنهم والبحث عن تفرقهم، أو من عقابهم في شيئ تلك أمة قد خلت.

وأما إخباره صلى الله عليه وسلم عن افتراق أمته إلى ثلاث وسبعين فهو مما أخبره به ربه الذي أوحى إليه الكتاب وهو حق اليقين. وأما تعيين الفرقة الواحدة المستثناة فواضح عند من له إنصاف؛ لأنه صلى الله عليه وسلم بينها في قوله: ((وهم الذين على ما أنا عليه وأصحابي)) والفرقة المتمسكة بكتاب الله وسنته السنية، وبما هو عليه وأصحابه، كما في نص الحديث الشريف واضح لائح. واعتبار الكل في النار إلا فرقة المقصود به الاستحقاق للنار من حيث الاعتقاد، وإلا فالمستحق للنار من جهة الأعمال كثير من كل فرقة إلا قليلا من أهل التقوى جعلنا الله تعالى بفضله من المتقين. وبعد أن قال: إنك لست منهم في شيئ قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ أي هو وحده يتولى أمورهم ويدبرها حسب حكمته كما قال ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ أي بالخصلة الواحدة من الخصال الحسنة والطاعة المقبولة أصلا أو فرعا إيمانا أو عملا فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا فضلا من الله. وتقدير الجزاء المساوي للحسنة وتضعيفها إلى عشرة من

الأمثال موكول إلى علم البارئ المتعال. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ والمماثلة موكولة إلى علمه وحكمته أيضا. وجملة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أساس للإيمان لجزاء الباري للعباد فإنه هو العليم بالأحوال والعقائد والأعمال والاستمرار عليها، أو التحول في المآل ولا مقياس لذلك إلا عند رب العالمين.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (164) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165)﴾

قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي﴾ الآية أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يبين ما هو عليه من الدين الحق الذي هو الإسلام فقال له ﴿قُلْ إِنَّنِي﴾ لاشك ﴿هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج فيه ولا اختلال حال كونه ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ دينا ذا قيام بذاته، أعني ملّة إبراهيم، أي اعتقاده في وجوب وجود الله ووحدته واتصافه بالكمال المطلق وأنه خالق كل شيئ وهو على

كل شيئ وكيل ﴿حَنِيفًا﴾ مائلا عن الباطل إلى الحق ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في يوم من الأيام. وعندما بلغ سن الشعور والنور تنور ما أمامه فتفكر في ملكوت السموات والأرض حتى هداه إلى حضرة قدسه. ﴿قُلْ﴾ يا رسولي: ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ التي أصليها ﴿وَنُسُكِي﴾ وعبادتي كلها حجها وعمرتها، وصيامي وقيامي، وسائر طاعاتي ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وحياتي ومماتي كل ذلك ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا نصيب لي فيها إلا أن الله جعلني كاسبا لها وأقوم بها. ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في تلك العبادات وغيرها، فهي له لا لغيره، بل لا شريك له ولا مثيل لذاته وصفاته وأفعاله، ولا مشابه ﴿وَبِذَلِكَ﴾ القول الذي أعلنته ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ في هذا الدين القويم الذي اختاره الله تعالى لي ولأمتي إلى يوم القيامة.

﴿قُلْ﴾ في استنكار ما هم عليه من الإشراك ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ تعالى ﴿أَبْغِي﴾ وأطلب ﴿رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وعادل في جميع أحكامه، ﴿وَ﴾ قرر أنه ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ خطيئة من الخطايا ﴿إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ﴾ أي لا تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾ أي نفس آثمة ﴿وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَى﴾ بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ببيان الحق لأهله والباطل لأهله ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي يخلف بعضكم بعضا ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الأعراض والأوصاف الممتازة المميزة للهويات ﴿دَرَجَاتٍ﴾ لا يعلمها إلا الله ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة المختبر في ما أمركم بفعله أو نهاكم عنه ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ إذا أراد أن يعاقب ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفر الله لنا ورحمنا برحمته الواسعة بفضله وكرمه إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

فرغت من كتابة تفسير سورة الأنعام قبيل العصر من اليوم الخامس والعشرين من جمادي الأولى سنة ألف وأربعمائة وأربع من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، المصادف السادس والعشرين من الشهر الثاني من سنة ألف وتسعمائة وأربع وثمانين ميلادية. وأنا المؤلف الخادم عبدالكريم الكردي الشهرزوري. غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين.

<342>

سورة الأعراف، مكية الا من آية (163) الى آية (170) فمدنية، وآياتها (206) نزلت بعد سورة (ص).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المص (1) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (3) وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (4) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (7) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9)﴾

قوله ﴿المص﴾ فسره المفسرون على تأويلات كثيرة. منها: أنه بمعنى المُصَوِّرِ، ومنها أنه بمعنى أنا الله اَعْلَمُ واُفَصِّلُ. ومنها أنه ونظائره أسماءٌ للسّور إلى غير ذلك...

<343>

وأقول: إن هذه كلها تخمينات وظنون لا تُغْنِي عَن الحق شيئا، والحق أنها رموزٌ بين الله تعالى ورسولهِ صلى الله عليه وسلم، وليس إلى معرفتها سبيل إلا بالتوقيف مِنه عليه الصلاة والسلام.

﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي هذا المقروء كتاب يهدي إلى الصواب أنزِل إليك مَعَ الملك الأمين على الوحي والتنزيل جبرائيل، وليس للاكتساب سبيل إليه، وإنما هو موهبةٌ ربانية قدسية مستوعبة لسعادة الدارين يدعُو المكلفين إلى الشرف الخالد والخلق الماجد، ويبعد عن القلوب ظلمات الأوهام، ويوجهها إلى الله الواحد العلام، ويمنع الرذائل والدنايا، ويُوسّع دائرةَ الفضائل على البرايا، وَيَنْشر العقائدَ السليمة والأحكام العملية المستقيمة. وكتاب كذلك يَتعَبُ صاحُبهُ بنشره وتأييدِه ونَصْره، وَيزدَحِم الجُهلاء والطُّغاة على التشكيك في أمره. ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ وضيق ﴿مِنْ﴾ تلقّيه ونشر ﴿ه﴾ فَإنه نَزَل مع التوفيق ولا يكن في قلبك اَذىً من إيذاء الكافرين لك ومعارضتهم لدعوتك؛ فإنه جَرَتْ سنةُ الله بذلك على التحقيق، فإنه انزِل إليك ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ﴾ وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين ﴿وَ﴾ أرسل إليك لتكون ﴿ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي للذين يُشَارِفونَ الايمانَ أو سُجلت أَساميهم في علمه الأزلي باستعدادِهم الزكي الجلي، وإذا أنزل ذكرى لهم فقل لهم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أيّها المؤمنون أو أنزِلَ كدعوة عامة للأنام، فقل لهم: اتبعوا ما أُنزل إليكم مِن ربكم فمن آمن به فهو السعيد الأمين، ومن كفر به فعليه ما عليه يَومَ الدين ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ أيها المكلّفون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون ذاته الواحد الأحد ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ مُزّيفة ضالّة مُضِلة ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنها لا قائمةَ لها في مقام الكرامة، وأن عبادتها ناشئة عن الجهل والتقليد الخالي عن الحق وظاهرة من اللآمة.

وكما أن سنة الله جرت بمعاندة الكفار لما نزل من الكتب السماوية، بل ولكل دعوة تخالف النفس وهواها كذلك جرت بإهلاكهم عندما طغوا وبغوا وخرجوا عن الحدود الاحتمالية كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ دمرناها وأبدْنا ما فيها من الطغاة والبغاة ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا عليهم ﴿بَيَاتًا﴾ أي حالكونهم بائتين داخلين في الليل نائمين ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أو جاءها بأسنا وهم قائلون داخلون في نوم القيلولة. والمقصود إن عذابنا باغتهم في أروح أوقاتهم وأفرغها وهو وقت المنام بالليل أو المنام المعروف بالقيلولة قبل الزوال. والفاء في قوله تعالى ﴿فَجَاءَهَا﴾ للتعقيب الذكري، وإلا فالتدمير والإهلاك كشيئ واحد في زمان واحد بلا تعاقب زمني ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي دعاؤهم واستغاثتهم ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ أي زمان نزول البأس عليهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي إلا قولهم واعترافهم بظلمهم على أنفسهم وعلى الناس حين لا ينفعهم الندم والاستغاثة قطعا وفوت المعصومين من الحيوانات والصبيان والمجانين بالبأس الوارد تابع لإرادة إهلاك الظالمين، فإن إرادة إهلاك الجوهر مقارن لإرادة إفناء الاعراض وإرادة إفناء الملزوم إرادة إفناء اللازم. وليس كل إفناء ناتجا عن الغضب والسخط الناشئ عن الجريمة، فإنه تعالى مالك الملك وملِك الملوك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني ولا نكتفي بإهلاك أولئك الكافرين بعذاب الدنيا بل والله ﴿لَنَسْأَلَنَّ﴾ يوم القيامة الكفار ﴿الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الرسل حتى نعذبهم بالسؤال عذاب الهوان والحقارة، وبعد افتضاحهم وعجزهم عن الجواب الشافي نأمر بجرهم الى جهنم وعذابهم عذابا معمما لأحوالهم وأوقاتهم، ولا ينتهي بل يستمر أبدا. ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجيبوا حتى يكون جوابهم زيادة في عذاب الكافرين

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي على المرسلين المسئولين بعد إحالتهم العلم إلينا قصة أعمالهم السيئة ونخبرهم بها إخبارا متلبساً ﴿بِعِلْمٍ﴾ منا على تفاصيلها ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم حين قصدوا أعمالهم، ولا وقت مباشرتهم لها، فما غرب عن علمنا شيئ منها ﴿وَالْوَزْنُ﴾ أي وزن الأعمال ﴿يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ لا خلاف فيه ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي موازين حسناته ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ في الخيرات ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بإضاعة فطرتهم السليمة وفكرتهم المستقيمة ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فإعراضهم عن أحكام الله، وتكذيبهم بالآيات، وبإضاعتهم للفطرة والفكرة.. كل ذلك صار من أسباب شقائهم الأبدي والعياذ بالله. ودرجات التدرج إلى تلك الغاية الفاسدة أوّلاً إهمالُ النصائح، ثم الأعمال الفاسدة، ثم الاستمرار في الغي، ثم المعاندة والمعارضة للحق، ثم الموتُ على الكفر والعياذ بالله.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (10)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ترغيب للمشركين في قبول دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بتذكير النعم الواصلة منه تعالى إليهم، فيقول قل لَهُم: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وجعلنا لكم في الأرض قرارا وتمكنا، وأقدرناكم على التصرف فيها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أي ما تعيشون به من المطاعم والمشارب. أو أقدرناكم على مادة من النقود تتوصلون بها إلى ذلك، ومع ذلك فأنتم ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون نعم الله تعالى في أوقات قليلة بالنسبة إلى تمكنكم في البلاد وقدرتكم على التصرف فيها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ معناه: ولقد خلقنا أصلكم آدم، ثم صورناه ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم فجعل خلق آدم وتصويره كخلق المخاطبين وتصويرهم لأنه أصلُهم. وعليه فتكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان على معناها الوضعي الحقيقي، ويجوز أن يراد بالآية الشريفة خلق الأناس المخاطبين في عصر النزول وتصويرهم. وتعتبر كلمة ثم للتراخي الذكري، أي خلقناكم وصورناكم كما خلقنا سابقا أباكم آدم وصورناه. ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ﴾ سجود الاحترام والتشريف، وكان فيهم إبليس في صورة الملك ومغمورا بينهم، واستفيد انسحاب الأمر بالسجود عليه وعلى الملائكة فكأنه واحد منهم تقديرا، فصح الاستثناء المتصل في قوله <347>

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لأن دخول المستثنى في المستثنى منه قد يكون تحقيقيا وقد يكون تقديريا، وعلى فرض عدم دخوله فيهم اعتبارا يكون الاستثناء منقطعا. وقد وقع ذلك في مواضع من القرآن الكريم. ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ قال الله تعالى له: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ يا إبليس ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي من أن تسجد له، أو ما الذي منعك من السجود ورغبك في أن لا تسجد له؟
فكلمة ﴿لَا﴾ على الأول زائدة وعلى الثاني صامدة. وقوله تعالى ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ نص في توجيه الأمر بالسجود إليه مع الملائكة إما بدلالة ظاهر العبارة من الله، أو بالقرينة المصاحبة للأمر الوارد، أو بأمر خاص ورد عليه علاوة على ما يستفاد من أمر الملائكة. ﴿قَالَ﴾ إبليس في جوابه تعالى وبيان المانع: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ المانع من السجود له هو فضل عنصري على عنصره حيث ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ وهي عنصر لطيف علوي ونيّر قويّ التأثير ﴿وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وهو عنصر كثيف سفلي تحت الأقدام، والفاضل لا يسجد للمفضول. أي وأمرك بهذا العمل الذي يخالف ظواهر العادات غير مناسب ولا يُطاعُ. ولم يدر أنّه قد يكون في العنصر المفضول فوائد لا توجد في الفاضل وعلاوة عليه فالرب حكيم ولا يأمر بشيئ إلا وفيه حكمة تفوق عقول العاقلين. ولما ظهر فيه التكبر والتمرد المردود ﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي فانزل من الجنة يا إبليس ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ أي لا ينبغي لك ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي في الجنة فإنها ليست دار الكبرياء والعصيان، وإنما هي دار العبودية والرضوان.
﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأذلاّء لا مِن الكابرين الأجلاّء.
﴿قَالَ﴾ إبليس ما دام أمرتني بالهُبوط من العلو إلى السفل، وأخْرجتَني من دارِ الكرامة على رَفض السجود لذلك المخلوق ﴿أَنْظِرْنِي﴾ وامْهلني للانتقام من ذريته ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي إلى آخر أيام التكليف حتى أتَمَكنَ من إغوائهم وأخذ ثأري منهم

﴿قَالَ﴾ الله تعالى له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إلى ذلك اليوم
﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي فبسبب إغوائك لي أي
خذْلِك لي وعَدَمِ إفاضة اللطف والتوفيق عَلي حتى أسْجُدَ،
وجَرى مني ما جرى، وسمعت ما أسمع من الأمر بالهبوط
والخروج، ووقعت فيما أرى ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾
أي على صراطك، وأقطع عليهم السبيلَ إليك بكل ما في
إمكاني ﴿ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ﴾ بالإغواء والتلبيس والتدليس ﴿مِنْ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ﴾ بالمغريات التي أمامهم مدة من الحياة من الشهوات
التي زينت للناس على كثرة أصنافها ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وبتدارك ما
فاتهم من خلفهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ وبما لذ وطاب
لهم من المشتهيات المحرمة التي في متناول أيديهم يمنة
ويسرة، أو عن جهة النظر إلى أقرانهم المجاورين لهم يمينا
وشمالا المتنافسين معه في تحصيل الكماليات من المال
والمنال ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ﴾ عند ذلك ﴿شَاكِرِينَ﴾ لك على
نعمائك، وصابرين على بَلواك، فإن الناس كثيرا ما يعبدونك
على بُعدٍ من المشتهيات والمغريات، وعلى الصيانة من
المصيبات والابتلاءات، فإذا أتتهم تلك فلا تبقى العبودية
الخالصة هنالك. ﴿قَالَ﴾ تعالى: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ اعتقادا
وعملا و﴿مَدْحُورًا﴾ مطرودا مُبْعَدا عصيانا وزللاً، والله ﴿لَمَنْ
تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ على ما ذكرت، وما عبدني خالصا خاليا عن
الاعتقاد والآمال الفاسدة والمطامع والمطامح الكاسدة
﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ منهم و﴿مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فإني طيب لا أقبلُ إلا
الطيب، وأنا المعبود بالذات، ولا أريدُ إلا مَن يعبدني بالذات
بحيث لا يشوب عبادته شيءٌ من المفاسد والرذائل، فمن وفي
بذلك فأنا أحْسِنُ إليه إحسانا يليق بكرامتي، ومن خالف ذلك،
فإن شئتُ عفوتُ، وإن شئت عذبت. تمت القواعد عندي
بكلماتي، ولا تبديل لكلمات الله العليم الحكيم. <349>

﴿وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآَتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ أي بعد أن صار ما صار من سجود الملائكة لآدم، وامتناع إبليس منه، وطردِه من الجنة، وإعلان الشيطان العِداء لآدم وذريته... قلنا في مقام التربية والنصح والإرشاد: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴿فَكُلَا﴾ من الأرزاق الموجودة فيها ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ واشتهيتما ﴿وَ﴾ لكن ﴿لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ المخصوصة وهي شجرة الحنطة، فإنها أساس الشجار ووسيلة الاستكبار والدمار ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم ﴿فَ﴾ لما عَلِمَ آدمُ

بذلك وحق العالم أن يكون مُنْتَبِهاً لا ينخدع بالوساوس والأوهام
﴿وَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي ألقى إلى قلوبهما الوسوسة
والتردد بما ألقى إليهما من الإغواءات، وإنما فعل ذلك ليطيعاه
فيما أمر به من أكل الشجرة المنهيّ عنها ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾
الشيطان ويظهر بنتيجة الأكل ﴿مَا وُورِيَ﴾ وستر ﴿عَنْهُمَا مِنْ
سَوْآَتِهِمَا وَ﴾ كان كيفية الوسوسة أن ﴿قَالَ﴾ لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا
رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ أي عن أكلها لاي علة ﴿إِلَّا﴾ لـ ﴿أَنْ
تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾: من المفسرين من فَسر
الاستثناء بقوله: إلا كراهة أن تكونا ملَكَين محفوظين، أو كراهة
أن تكونا من الخالدين في الجنة يعني لو أكلتما منها كنتما مِن
عِداد الملائكة، وكنتما من الخالدين في الجنة، والله يكره ذلك
فنهاكما عن أكلها. ومنهم من فسرها بقوله: إلا محبة أن تكونا
ملكين أو تكونا من الخالدين في الجنة، يعني إذا لم تأكلا منها
تبقيان كالملائكة في الجنة وتكونان من الخالدين فيها. وأما إذا
أكلتما منها فتصيران من أصحاب السر في العالم أي في
العرش والفرش والجنة وأي محل آخر كان ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي
اَقسم لَهُما، وقال والله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فيما بينته
لكما ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي فنزلهما الشيطان عَن الرتبة العالية
وهي إطاعة الباري تعالى في الاجتناب عن الشجرة بما غرهما
به من القسم أو من تجاوز ما حدّ لهما إلى غيره ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾
﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا﴾ أي تهافَتَ عن بدنهما
الغطاء الصَّدَفيُّ السّاتِرُ وظهرت لهما عَوراتهما وانفَعَلا من
ظهورهما، فإن مقتضى الطبيعة السليمة ستر العورة لا كشفها
﴿وَطَفِقَا﴾ شَرعا ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ أي يلزقان ببدنهما أو
بسوأتيهما ﴿مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ بعد وقوع الواقعة
معاتبا لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ أي عن أكلها
﴿وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا﴾ ولذريتكما ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؟ !
واضح

العداوة ﴿قَالَا﴾ معتذرين إلى الله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ بخروجنا عن حدود حكمك والتعرض للشجرة بالأكل منها ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ أي وإن لم تسامح عن ذلك بعدم العقاب وترحمنا بالرضا عنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

استشكل ذلك على أهل السنة القائلين بعصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر والصغائر لاسيما في ما أمروا به أو نهوا عنه باهتمام واحتياط كما هنا. وأجيب عنه:

أولا: بأن ذلك لم يكن من باب التشريع بل من باب الإرشاد والنصيحة؛ وليس في مقابلتهما ومخالفتهما معصية.

وثانيا: بأن ذلك كان عن نسيان كما قال تعالى في سورة (طه): ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

وثالثا: بأن ذلك الأمر كان من الصغائر والعصمة إنما تشترط عن الكبائر قبل النبوة وبعدها. وأما الصغائر فيجوز صدورها عنهم قبلها.

﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ يا آدم وحواء وذكرهما بضمير الجمع احتراما أو لملاحظة من في صلب آدم وتربية حواء من الذرية لاسيما الشرفاء المرموقين حالكونكم وذريتكم المتناسلة إلى يوم القيامة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ بسبب المنازعات الواقعة بينكم لمعارضة أفكار بعضكم لبعض، وسوق المشتهيات والمغريات إلى التنافس والجدال، وبجهل بعضكم بحقائق الأمور أو عناده لها مع العلم بها بالعناد والغرور ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ بالاستيطان أو الاستيداع ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وتلذذ وتمنع من أرزاقها وما ينال فيها من اللذائذ والشهوات إلى حين حدده الله تعالى.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض براً وبحراً ﴿تَحْيَوْنَ﴾ تقضون مدة حياتكم ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ كذلك ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ وقت البعث

والنشور وقال صلى الله عليه وسلم: ((كما تَحيَون تموتون وكما تموتون تبعثون)) وأقول اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين.

﴿يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ﴾ خطاب للناس كافة ويقول: يا بني آدم أينما كنتم ومتى ولدتم وعشتم ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ﴾ أي هيأنا لكم لباسا يستر عوراتكم التي كشفها يسيئكم لأنه مخالف لأدب الإنسان السليم الطبع المعتدل الحال، فإن السّوءتين منفذان يخرج منهما الهواء والمواد السيالة والمتعفنة التي تشمئز عنها الطبائع، وما حولهما وما فوقهما وما تحتهما من السرة والركبة وما بينهما من ملحقاتهما في الاستحياء والخجل من كشفها ﴿وَ﴾ كما أنزلنا عليكم لباسا كذلك انزلنا عليكم ﴿رِيشًا﴾ أي مالا ومتاعا من الألبسة الفاخرة الجميلة والحلى المباحة للنساء والجواهر المستعملة في الخاتم وغيره للرجال. أو المراد بالريش اللباس الذي يكون علاوة على ساتر العورة من المواد الجميلة المستحسنة، فإن الريش الجمال. فيكون الكلام مما حذف فيه الموصوف. أي وأنزلنا عليكم لباسنا ذا ريش وجمال وذلك كله من موجبات الجمال ظاهراً ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ أي العمل الصالح الذي يستولي جماله على الجباه والوجوه. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ لكم من لباس البدن الساتر له و﴿ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ﴾ التي تدل على حكمة الباري

وعموم فضله. وإنما زودهم بذلك كله لعلهم يذكرون فيعلموا أن ذلك من نعمة الله المُنزلة عليهم فيصلوا بالعلم بالنعمة إلى العلم بالمُنعِم هذا.

ومن المفسرين من فَسَّرَ إنزال اللباس بإنزال المطر من السماء حتى ينبت النبات الذي يؤخذ منه بعض الألبسة، وتعيش به المواشي التي يؤخذ من أصوافها وأوبارها واشعارها ألبسة واقية راقية وكافية وافية.

ثم بعد تذكيرهم بتلك النعم الجسام نبههم على الإخلاص في العمل واليقظة حتى يسدّوا المجاري على الشيطان فقال: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي لا يوقعنكم الشيطان في الفتن، ولا يُوسوس لكم ﴿كَمَا﴾ وسوس في قلوب آدمَ وحواءَ و﴿أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ﴾ هذين ﴿مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا﴾ حتى لا تتكرر المصيبة فـ ﴿إِنَّهُ﴾ قوي متمكن من الإلقاءات، ومطلع عليكم و﴿يَرَاكُمْ هُوَ﴾ أي الشيطان ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ من ذرياته أو من مطلق الجن ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ والعدو الذي لا تراه العيون أشد خطرا. وراقبوا قلوبكم حتى لا يكون فيها محبة وولاية لشياطين الإنس والجن ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ وأحباء ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإذا أحببتموهم كنتم من غير المؤمنين.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آَبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب، والغرض منها بيان رسوخهم في الضلال ومباشرة الأعمال السيئة، وتبرير موقفهم منها بأمر الله وبأنها شيمة آبائهم. فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ أي فعلة قبيحة متناهية في القبح، غير مقبولة في العقول السليمة كعبادة الأصنام والفجور وشرب الخمور ﴿قَالُوا﴾ لتبرير موقفهم ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ فنقلدهم فيها، فإنّ تقليد الآباء فيه شرف وإباء ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ وما أمر الله به وجب فعله ﴿قُلْ﴾ في الرد عليهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ فسقط الدليل الثاني ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ أنه كلامه بل تعلمون أنه ليس من كلامه. وأما تقليد الآباء في العمى فلا يقبله إلا أولو العمى ﴿قُلْ﴾ لهم مُعلِناً ما أمرَ الله تعالى به حتى لا يتقولوا عَلَيهِ: ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي العدل أي المعتدل الوسط من كل شيئ بلا إفراط ولا تفريط لا في العقائد، ولا في الأعمال لا في المدح ولا في الذم. فاعلموا أن العالم مخلوق وأن الله خالق كل شيئ، وأنه هو الغني المطلق، وأن ما سواه من آثار قدرته المفتقر إليه حدوثا وبقاء ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي توجهوا إلى عبادته بإخلاص عند العبادة في كل مسجد جامع أو غيره ﴿وَادْعُوهُ﴾ أي اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي الطاعة فعلا أو تركا. أو ادعوه تعالى لكشف الضر ودفع الشر وجلب الخير، وتضرعوا إليه؛ فإنه هو القادر فوق عباده، وهو المحاسب والمجازي في يوم ميعاده. واعلموا أنه ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ وأنشأكم وأحياكم من النطف المربوط بالوالدين، وسواكم وهَداكم ورزقكم وآتاكم من الحال والمال ما يناسب حكمته ثم أماتكم وأبلاكم وأبقاكم في عالم البرزخ متنعمين أو متعذبين حسب أعمالكم.. يَبْعَثكم أينما كنتم في البر والبحر مجتمعي الأجزاء أو متفرقيها، وبعد أن بعثكم ونشركم وحَشَركم ﴿تَعُودُونَ﴾ إليه سبحانه

وتعالى للحساب حسب الكتاب وميزان الأعمال، فإن ذلك سهل عليه. ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة، فيأخذ كل منكم طريقه إلى مرجعه من دار الجحيم أو جنة النعيم لأنه تعالى ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ لسابق علمه باستعداده الحسن الداعي إلى العقائد والأعمال الحسنة فمآله إلى الجنة ﴿وَفَرِيقًا﴾ آخر من أهل سوء الاختيار ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ فـ ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي تولوهم وأطاعوهم فيما أمروا به ونهوا عنه، وكل ذلك لترجيح الهوى على الهدى، وتقديم العاجل على الآجل، فكان مآل حالهم الخسران المبين ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ ويزعمون ﴿أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

﴿يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (32) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (33) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان أناس من الأعرابـ يطوفون بالبيت عُراةً حتى ان كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة. فأنزل الله تعالى هذه الآية لإيجاب ستر

العورة عند الطواف، وفي وقت الصلاة؛ لأن الطواف والصلاة في واد واحد فعليه المراد بالزينة ساتر العورة والأمر للوجوب.

وحمل بعضهم الزينة على لباس التجمل لأنه المتبادر منها. ونسب للباقر رضي الله عنه وروي عن الحسن السبط رضي الله تعالى عنه أنه كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فقيل له يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: إن الله تعالى جميل يحب الجمال فاتجمل لربي، وهو يقول خذوا زينتكم ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فأحبّ أن ألبس أجمَل ثيابي. ولا يخفى أن الأمر حينئذ لا يحمل على الوجوب لظهور أن هذا التزين مسنون لا واجب. وعلى الاحتمال الأول تفهم سنية التزين عند كل صلاة لأنه لما كان ستر العورة واجبا وهو زينة، ظهر استحباب ما عداه لكونه زينة أيضا.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مما طاب لكم من الحلال ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بتحريم الحلال، ولا بتحليل الحرام، ولا بالزيادة على المعتاد ليوجب الفساد في المعدة. فكل ذلك حرام يجب الاحتراز عنه. وقد اشتهر أن قلة الطعام يوجب قلة المنام وقلته لأهل الطاعة يوجب القرب إلى الله العلام، فيقلل من الكلام إلا فيما وجب أو سنّ في الإسلام.

ثم الإسراف كما يكون في الكمية يكون في الكيفية، فمن ليس عنده إلا ما يكفي قوت عياله لا يجوز له اشتراء ما يستوعب جُلَّ مالِهِ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وما اشتهر بين الناس من الدعوة إلى ترك الناعم من المأكل والمشرب والملبس وليس له على ذلك شبهة فضلا عن حجة.. يردّه بوضوح قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ فإنه بظاهره دليل جليل جليّ لحل كلّ ملبوس جميل ناعم، وأكل كل طعام

لذيذ مرغوب عند الطاعم إلاّ ما استثناه الله تعالى من المسكرات وسائر المحرمات كلبس الذهب والحرير للرجال، ولبس الثوب المعصفر والمزعفر وما عرض عليه الحكم بالتحريم كأن يكون من أموال الغير بدون إذن شرعي منه. وأما حرمة الخيلاء عند لبس النواعم فليست من لبس الملبوس وإنما هي ناشئة عن فساد نفس اللابس. والحاصل إن المواد المخلوقة مخلوقة للانتفاع يقول تعالى ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لكن ليس المراد بطريق الفوضى بل إباحته بطريق الشرع على الحدود المقررة، فإذا روعي الشرع فلا بأس فيه قطعا، بل للمؤمنين اختصاص زائد بما ذكر لكرامتهم عند الله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. أي هي لهم بالأصالة لكرامتهم الزائدة عند الله تعالى ومشتركة بينهم وبين الكافرين في الدنيا و﴿خَالِصَةً﴾ لهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ﴾أي مثل تفصيلنا لهذا الحكم نفصل الآيات في الأحكام الأخرى ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ما فيها من الفوائد والعوائد النافعة في الدنيا والدين.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ أي الأعمال الفاحشة القبيحة من باب الاعتقاد كعبادة الأوثان، ومن باب الأعراض كالزنا وسائر أنواع الفجور سواء ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ كالمعتاد عند الفساق من بيوت الدّعارة ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ مما يفعل سرا بالفاسقات من جانب الأخدان ﴿وَالْإِثْمَ﴾ من شرب الخمور والميسر المعتاد بين الناس ﴿وَالْبَغْيَ﴾ أي التعدي على حقوق الناس المالية أو الأدبية بغير الحق مما يوجب تعزير من يتعدى عليها ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي حجة وبرهانا. بل أقام الأدلة القاطعة على مقابلها وهو التوحيد لله من ملاحظة الأنفس والآفاق ومعجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَأَنْ تَقُولُوا﴾ أي وحرم أن تقولوا ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

بالإلحاد في صفاته وأعماله، ونسبة البنات إليه، والقول بأن الملائكة بنات الله، والقول بالحلول والاتحاد كما هو معروف من أهل الإلحاد، وبعد أن قلت لهم ما أمرت به قل لهم ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وقت محدود للدوام في الأرض، أو وقت معين لانتهاء قوتها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي أجل أفرادها ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قالوا: إن قوله تعالى لا يستأخرون ساعة جزاء للشرط، وله فائدة أنه إذا جاء الأجل فهو قطعي الثبوت. وقوله تعالى لا يستقدمون لا يناسب جعله جزاء لأنه لا يتصور استقدام الشيئ عند حدوثه، فمنهم من أجاب بأن جملة لا يستقدمون ليست معطوفة على الجزاء حتى ينسحب عليه الشرط، وإنما هي جملة مستقلة معطوفة على الجملة الشرطية نفسها، ولم يرض به المحقق الهندي، وقال: إن ذلك المعنى ليس فيه دقة ولطافة. والحق أن مجموع الجملتين كناية عن تحتم الأجل وعدم قبوله للتغير والتبدل. أي إن لكل أمة أجلا محتوما قطعيا لا مجال فيه للتبدل والتغير بأي وجه من الوجوه فالمتعاطفتان مرتبطتان بالعطف قبل ربطهما بالشرط. أي إذا جاء أجلهم لا تبدل فيه.

﴿يَا بَنِي آَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (35) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (36) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآَيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (37) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآَتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (38) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39)﴾

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ﴾ خطاب لكافة الناس. وقد أخرج ابن جرير عن أبي يسار السلمي قال: إن الله تبارك وتعالى جعل آدم وذريته في كفه فقال: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ الآية... ثم بثّهم. والذي ذَهَب إليه بعضُ المحققين: أنها حكاية لما وقع مع كل قوم. والذي يترجح في العقل هو: أن هذه الآية الكريمة مقول القول المحذوف (وحذف قول من حديث البحر) أي قلنا: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ﴾ الآية... وإذا اعتبرت حذف القول قبل قوله السابق ﴿يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ واعتبرت هذه الآية وما قبلها مرتبطة بها.. كان أحسن.

وعلى كل حال فالآية الشريفة بيان لكلامه تعالى ووصيته لبني آدم. وقوله لهم ما جاء في الآية الشريفة. وحاصلها: إنا نادينا بني آدم على عهد كونهم ذراري في صلب آدم عليه السلام أو في عالم الأرواح ونصحناهم... أو يقال إن هذا استعراض لوصاياه سبحانه لكل رسول حتى يُبَلِّغَ أمتَه مضمون الآية.

والمعنى: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي من نوعكم من البشر حالكونهم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي﴾ أي يعرضون عليكم أحكامي وشرائعي، ويخبرونكم بها ﴿فَمَنِ اتَّقَى﴾ وخاف عقاب ربه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ <360>

عقيدة وقولا وعملا ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من مكروه في
المستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على مفقود في الماضي. ﴿وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ ولم يقبلوها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (36) فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لنفسه ﴿مِمَّنِ﴾ كذب
و﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي تعمد الكذب عليه ﴿أَوْ كَذَّبَ
بِآَيَاتِهِ﴾ المنزلة على الرسول ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ
الْكِتَابِ﴾ أي يصيبهم ما كتب لهم وقدر في اللوح المحفوظ من
خير أو شر، أو أن المعنى أولئك ينالهم نصيب مما كتب لهم من
متاع الدنيا ولذائذها ومشتهيات النفس فيها مدة حياتهم ﴿حَتَّى
إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ الموكلون بقبض الأرواح ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿أَيْنَ
مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام؟ ﴿قَالُوا﴾
في جوابهم ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ لا ندري أين مكانهم ﴿وَ﴾ عند ذلك
﴿شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ قال الله سبحانه
وتعالى لأولئك الكافرين: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي مع أمم ﴿قَدْ
خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي كفار النوعين من الأمم
﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ في ذلك المصير المقرر ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي
لَعَنَت أختَها ونظيرها في وضع الكفر والجحود فتلعن التابعة
المتبوعة على أساس أنها أضلتها وجاءت بتقاليدَ لادينية ولا
عقلية، فيدخلون في دار الجزاء فوجاً فوجا لاعِناً بعضُهم بعضاً
﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي اجتمعوا فيها ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ
لِأُولَاهُمْ﴾ أي عن بيان أحوالهم وبالنسبة إليهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾
الناس المتنفذون رأياً وشخصيةً وتقدما في التقاليد ﴿أَضَلُّونَا﴾
عن طريق الحق ﴿فَآَتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ بالنظر إلى عذابنا ﴿مِنَ
النَّارِ قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم ومنهم ﴿ضِعْفٌ﴾ من النار
أي مضاعف ما يعتبر جزاء من الأصل ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك
من شدة العذاب، فإن المبتلى يفقد الميزان فيعلم القليل كثيرا
والكثير قليلا ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ
فَضْلٍ﴾: معناه أنه بعد ما قال الله سبحانه لكل ضعف لم >
<361

يبق لكم علينا من فضل يُعَبَّرُ عنه بخفة العذاب بل كلّنا متساوون ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ المُضاعَف ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (40) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (41) وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا﴾ أي الآيات المنزلة مِنّا على عبادنا المرسلين، ومنها الآياتُ المنزلة على خاتم أنبيائي ورسلي محمد صلى الله عليه وسلم، سواء كانت الآيات آيات العقائد والأحكام، أو آيات قصص الأمم الماضية، أو آيات الإرشاد والوعظ والتذكير وغير ذلك ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي تعاظموا وتكبروا عن قبولها والإذعان بها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي لا تفتح لأرواحهم إذا ماتوا كما تُفتّح لأرواح المؤمنين، أو لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم. وقيل المراد لا يصعد لهم عمل ولا تنزل عليهم البركة.

وكونُ السماءِ لها أبواب تفتح للأعمال الصالحة والأرواح الطيبة

أمر ممكن أخبر به الصادق فلا حاجة إلى تأويله. وإذا أولناه بالإكرام وقبول الأعمال ونزول الرضا والرحمة عليه فهو جائز مستحسن لكثرة نحو ذلك التأويل في آي التنزيل. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ وَهُو الحيوان المعروف ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ يعني ثقبة الأبرة. وهذا تعليق بالمستحيل لأن مساواة المكان للمتمكن وسعة المعبر للعابر واجب عقليّ وخلافه ممتنع. وهذا مثل ما يقال حتى يبيضّ القار، ويشيب الغراب.
وقرئ بضم الجيم وفتح الميم المشدّدة أو المخففة وبفتح الجيم وسكون الميم، وفسر في جميع ذلك بالحبل الغليظ.
وفي القاموس: وكسكّر وصُرَدٍ وعُنُق وجَبَل حَبلُ السَفينةِ، وقرئ بهن حتى يلج الجمل. ﴿وكَذَلِكَ﴾ أي وبمثل ذلك الحرمان من الجنة والدخول في النار ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ بتكذيب الآيات والاستكبار عن قبولها ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي فراش تحت أقدامهم ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ جمع غاشية أي أغطية نارية ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي وبمثل ذلك المذكور ﴿نجزي الظالمين﴾ بما ذكرنا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة معترضة معناها لا نكلف أي مكلف إلا ما في طاقته.
وخبر الموصول المبتدأ قوله ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي ملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ أي قلعنا ما في قلوبهم من حقد وعداوة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي تجري من تحت غرفهم المسكونة مياه الأنهار زيادة في مسرّتهم. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ الفوز العظيم﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ لذلك أو لغيره من الخيرات ﴿لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ إليه بتصديق الرسل الكرام. ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ وكل ما وعدونا من درجات المؤمنين حَقٌّ يُطابقُ الواقع ﴿وَنُودُوا﴾ عند استقرارهم في دار النعيم من الملائكة

الكرام ﴿أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب ما عملتوه من الخيرات المعنوية والمادية، أو بسبب عملكم الخالص لها.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ كَافِرُونَ (45)﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي وينادي أصحاب الجنة بعد الاستقرار فيها ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي ينادي من هو يعرفه لا لمجرد الإخبار بل لاستحضار وعده تعالى ووعيده للفريقين ومزيد شكر أهل الجنة والتحدث بالنعمة ومزيد أسف أهل النار؛ فيقولون لهم متكاشفين متقاربين متواجهين على ما يبرز لنا العلم اليوم وهو جزء لا يتجزأ من آثار قدرة الحي الذي لا ينام ولا يموت: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ على ألسنة الرسل الكرام حقا بلا شائبة تخلف ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ﴾ أنتم أيضا ﴿مَا وَعَدَ﴾ كم ﴿رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ من العذاب والعقاب ﴿قَالُوا﴾ أي أصحاب النار في جواب أصحاب الجنة: ﴿نَعَمْ﴾ قد وجدنا ذلك حقا بلا شائبة خلاف ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي فأعلن معلن بين الفَريقين بأعلى ما يعلو به صوته ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ وطرده الأبدي من رحمته الواسعة الدائمة ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ أي كانوا في الدنيا يصدون ويمنعون الناس ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أنفسهم أولا والناس الآخرين تاليا وكانوا ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون جعلها عوجا في عيون الناس وعقولهم ﴿وَهُمْ﴾ لسوء حالهم ﴿بِالْآَخِرَةِ﴾ بمجيئها مع ما فيها من الجحيم وجنة النعيم ﴿كَافِرُونَ﴾.

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي قال ما من مؤمن ولا كافر إلا وله في الجنة والنار منزل مبين، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ودخلوا منازلهم رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله تعالى. ثم يقال: يا أهل الجنة رِثوهُم بما كنتم تعملون فيقتسم أهل الجنة منازلهم. وهناك تجري بينهم المُناداة والمُناجاة ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. نسأل الله الفوز بالنعيم المقيم بفضله إنه جواد كريم. ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49)﴾

قوله تعالى ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي وبين فريقي أصحاب الجنة والنار، أو بين نفس الجنة والنار حجاب يمنع وصول بعضهم إلى بعض مع انه لا يمنع رؤية بعضهم بعضا وكلامَ بعضهم مع بعض كما في قوله تعالى ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ﴾ ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ أي وعلى أعالي الحجاب ﴿رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ أي رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم وعلامتهم المميزة لكل

منهم. وفي أولئك أقوال كثيرة. ولكن الحق والانصاف والمماشاة مع ظاهر الآية الكريمة القول بما قاله بعض من المحققين: إن أصحاب الأعراف قوم عَلَت درجاتهم وأعطاهم ربهم رتبة الاطلاع على أحوال الفريقين، وهم من عدول الأمم المنتسبة للأنبياء أو عدول أمة الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأن كلمة الرجال ظاهرها الآدميون. و﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ ظاهرها الفضل والاختصاص بمعرفة الناس صنفا وشخصاً، ولا تناسب تلك الرتبةُ أهل الفترة الذين لا مقام لهم، ولا أناسا آخرين على شَبَهِهم. ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ حين رأوهُم وعرفوهم: ﴿أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ عند ذلك الكلام لكونهم في مقام المأمورية بملاحظة الفريقين وإلقاء الكلمات التبشيرية لبعض مع التبريك والتهنئة وهم أهل الجنة وعبارات التعبير والتأنيب لبعض، وهم أهل النار أعاذنا الله تعالى منها ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أن يدخلوها على وعد الله تعالى فضلا ورحمة. وهذه الجملة أيضا تدل على أن من على الأعراف رجال مؤمنون ومن أصحاب الإيمان والأعمال الصالحة.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ وأبصروا أحوالهم المرئية الفظيعة خافوا جدا و﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ في دار العذاب ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) وَ﴾ عند ذلك ﴿نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ المعلومة من وجوههم وجباههم، وعلموا أنهم من أي قوم وقبيلة ﴿قَالُوا﴾ ﴿مَا﴾ الذي ﴿أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الذي كنتم تعتمدون عليهم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي واستكباركم على الله ودينه بالاعتماد على النفس أو القبيلة أو غيرها ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ المسلمون ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ وهم حقراء وفقراء لا قدر لهم ولا قيمة؟ الذين قال الملائكة لهم بأمر الله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، وهذه الآية

الكريمة ايضا دليل جلي على أن أهل الأعراف رجال أشراف من أهل الفضل والميزة عند الله، وأنهم كشهداء على الفريقين ومطلعون على أحوالهم السابقة واللاحقة.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآَيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (51) وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ يعني وبعد استقرار الفريقين كل في مكانه وانغمار أهل الجنة في أنواع النعيم وانهيار أهل النار في وديان الجحيم وانكشاف الفريق الأول للفريق الثاني لحكمة ربانية منها: زيادة مسرة أهل الجنة، وزيادة أَلَمِ أهل النار ينادي أهل النار أهل الجنة بالطريقة المعمولة إذ ذاك: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ الذي يطفئ حرارة الأجساد والتهاب الأكباد ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ معطوف على قوله تعالى من الماء بتأويل قوله أفيضوا بما يناسب المطلوبين. أي أوردوا علينا. أو بتقدير عامل مناسب للمعطوف، ثم عطف العامل على العامل كما هو مذكور في النحو في نحو قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أو بتضمين العامل الأول ما يناسب المطلوب الثاني ﴿قَالُوا﴾ أي أهل الجنة جوابا لأهل النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ أي المطلوبين ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي منعهما عنهم منع الحرام عن المكلفين ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾

أي اتخذوا دينهم المزيف الذي اعتنقوه صورة لهوا ولعبا. أو اتخذوا دين الإسلام الذي كلفوا باعتناقه لهوا ولعبا. والفرق بينهما أن اللهو صرف الوقت فيما لا ينبغي أن يصرف فيه، واللعب الفرح بما لا يحسن أن يفرح به ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ شَغَلَتهم عن اِطاعة مَوْلاهُم ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ أي نعامِلُهُم معاملة المنسي ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي مثل ما نسوا لقاءنا في هذا اليوم ﴿وَمَا كَانُوا بِآَيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي وبما كانوا ﴿بِآَيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فهو معطوف على ما نسوا. أي كما نسوا لقاءنا وكما كانوا يجحدون بآياتنا. والمراد بالنسيان التغافل وعدم الاهتمام بالأمر، وإلا فما عملوا ذلك حتى ينسوه ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ بينا ما فيه من العقائد والأحكام تفصيلا مبينا﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ منا بكلياته وجزئياته حالكون الكتاب ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به لأنهم المهتدون به المقتدون بأحكامه.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (53)﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ الاستفهام توبيخي. أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة بعدم إيمانهم وجحودهم شيئا ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي ما يؤول إليه أمر الكتاب من ظهور صدق بتحقق ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ أي يوم تظهر الحقائق المذكورة فيه، وهو يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ في الدنيا وتركوا العمل به من قبل متأسفين ومتحسرين:

﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ وكل ما جاؤا به من الكتاب ومحتوياته كان صدقا وحقا، ونحن ظلمنا أنفسنا بتركنا الإيمان به ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ اليوم ويدفعوا عنا العذابَ ﴿أَوْ﴾ هل ﴿نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من الكفر والعصيان والله سبحانه يقول ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي خسروا مدة بقاء أنفسهم في الدنيا حيث صرفوها فيما أهلكهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي وضاع عنهم كل ما قالوه افتراء.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (55) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (57) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (58)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ شروع في بيان مبدأ الفطرة، وخلق العالم، وإظهار عجائب صنعه التي

تدل بوضوح على وجود الباري ووحدته وصفاته الذاتية والفعلية. فيقول: إن ربكم أي صانعكم ومربيكم هو الله الذي خلق السماوات والأرض بما فيها وما امتزج معها ككرة واحدة من الماء في ستة أيام. والمشهور أنه ابتدأ الخلق يوم الأحد وانتهى يوم الجمعة ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

يقول أهل التأويل: استوى أمره، أو إن معناه استولى على العرش، وذلك لأن العرش جسم والاستقرار على الجسم من صفات الجسم، ويوجب تجزئة المستقر بحسب المستقر بالفتح وذلك يوجب التركيب المستحيل على الله تعالى. على أن العرش إن كان قديما يستلزم القول بقدم بعض الأجسام مع أن المسلمين متفقون على أن لا قديم غير ذات الباري تعالى وصفاته. وإن كان حادثا أي إن الباري تعالى لم يكن في الأزل محتاجا إلى المحل ثم لما خلق العرش احتاج إليه واستقر عليه يستلزم عروض الحاجة على الغني المطلق. فتأويل الآية ما مر لا غير.

ويقول أهل التفويض: نحن نقول بالآية ونؤمن بمعناها بدون ملاحظة الكيفية، فالاستواء على العرش معلوم وكيفيته مجهولة. وقد ذكرنا شيئا من الموضوع في أول سورة (آل عمران) فراجعه.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ والاسمان مفعولان لما قبلهما أي يجعل الليل غِطاءً ساتراً للنهار ويغشيه به، ولم يذكر عكسه للعلم به، أو لأن لفظ المفعولين يحتمل المعنيين لأن المعنى الأول مبني على جعل الليل مفعولا أول والنهار مفعولا ثانيا، والعكس مبني على العكس، والكل محتمل ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أي يطلب الليلُ النهارَ ليغطيه فور نهايته، فيطلب في معنى يعقب أي يعقبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما بشيء ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ أي وخلقها ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ أي بقضائه وقدره ﴿أَلَا﴾ أيها الإنسان العاقل ﴿لَهُ الْخَلْقُ﴾ أي الإيجاد من العدم إلى الوجود ﴿وَالْأَمْرُ﴾ أي التصرف في

كل ما خلقه ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي البقاء لله رب العالمين. أو كثرت وازدادت الآثار الفاضلة من رب العالمين، لأن البركة جاءت بمعنى البقاء وبمعنى كثرة الآثار الفاضلة.

في تفسير البيضاوي: وتحقيق الآية والله سبحانه وتعالى أعلم أنّ الكفرة كانوا متخذين أربابا، فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه سبحانه وتعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم، فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب، كما أشار إليه بقوله ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وعمد إلى إيجاد الأجرام السفلية فخلق جسما قابلا للصور المتبدلة والهيئات المختلفة، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثار والأفعال... وأشار بقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولا، وتصويرها ثانيا، كما قال تعالى بعد قوله ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾

أي مع اليومين الأولين. لقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ثم لما تم له عالم الملك عمل إلى تدبيره كالملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة. فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب، وتكوير الليالي والأيام. ثم صرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم إن اليوم في اللغة مطلق الوقت فإن أريد هذا فالمعنى: خلق الله السموات والأرض في ستة أوقات. وإن أريد المتعارف فاليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسماوات فيقدر فيه مضاف، أي مقدار ستة أيام. هذا إذا نظرنا إلى سرعة تأثير قدرته. وإن نظرنا إلى خلق الأمور على مهلة وإناة وملاحظة لترتيب المسبب على الأسباب فيمكن لك أن تفسر الأيام الستة بستة آلاف

سنة لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ولا تهتم بكثرة الأوقات فإنها تضمحلّ عند النظر إلى الأزل والأبد فاحفظه. ثم إنه تعالى بعد أن بين التوحيد وأخبر أنه المتفرد بالخلق والأمر.. أمر عباده أن يدعوه مخلصين فقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ أي الذي عرفتم أفعاله وشؤونه لقضاء حاجاتكم ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي ذوي تضرع أو متضرعين ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي سرّا ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي المتجاوزين عن الحد المقرر بأن يرفع الداعي صوته بحيث يؤذي من يليه، أو لطلب الشيئ الحرام فعلا أو تركا، أو يطلب ما لا يليق به، أو ما لا يمكن له حصوله، فكل ذلك اعتداء.

أخرج أحمد في مسنده وابو داود عن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول أللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل)) ثم قرأ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

وذكروا للدعاء آدابا كثيرة منها: الكون على طهارة، واستقبال القبلة، وتخلية القلب من الشواغل، وافتتاحه واختتامه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ورفع اليدين نحو السماء، وإشراك المؤمنين فيه، وتحري ساعات الإجابة. ومنها: يوم الجمعة عند كثير ساعة الخطبة، ويدعو فيها بقلبه، ووقت نزول الغيث، والإفطار، وثلث الليل الأخير، وبعد ختم القرآن، وغير ذلك مما هو مبسوط في محله.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ وهذا النهي يعم أنواع الإفساد وأهمها إفساد عقائد المؤمنين، وإفساد ذات البين، وإفساد الملك على الرعايا وبالعكس، وإفساد الأولاد على الوالد وبالعكس، وإفساد الزوجة على الزوج وبالعكس، وإفساد الطلاب على الأستاذ وبالعكس، والمراد بإصلاحها إصلاح الله تعالى لها وخلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق.

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مصدران وقعا حالين عن الفاعل، أي خائفين وطامعين خائفين من رد الدعاء للقصور في الإخلاص، وطامعين في إجابته تفضلا وإحسانا، أو خائفين من عقابه وطامعين في ثوابه ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولا يكون الداعي محسنا إلا إذا كان خائفا طامعا كما ذكرنا.

واستشكل تذكير قريب مع أن الرحمة مؤنث وأجيب عنه بأجوبة. منها: أن الرحمة وإن كان مؤنثا اكتسب التذكير من المضاف إليه. ومنها: أن لفظ قريب صيغة النسبة أي ذات قرب. ومنها: أن الرحمة بمعنى الإحسان.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾: عطف على الجملة السابقة أو على جملة خلق السموات والأرض ﴿بُشْرًا﴾ بضم الباء وسكون الشين مخفف بُشُرا بضمتين كنذر جمع نذير، فيكون جمعا لبشير يعني وهو الذي أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته أي قدّام رحمته أي قدام نزول المطر النازل من رحمته وكرمه ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ يعني حتى إذا حملت الرياحُ سحابا ثقالا بالندى والرطوبة ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ﴾ أي إلى بلد ﴿مَيِّتٍ﴾ أي لا ماء فيه. والبلد كل موضع من الأرض عامر أو غيره خال او مسكون. والطائفة منه بلدة والجمع بلاد. وتطلق البلدة على المفازة ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾ أي في البلد ﴿الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي الثمرات المستثمرة هناك، والاستغراق عرفي لا حقيقي، أو باعتبار مجموع البلاد ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي مثل إخراج النبات من الأرض على البذور المنشقة، أو من إبداعنا الأساسي بإحداث القوى النامية هناك نخرج الموتى من القبور أو غيرها ونحييها بجمع الأجزاء الأصلية المتفرقة أينما كانت، أو بخلق أمثال الأجزاء البالية ورد النفوس إليها. فإن القادر على الإبداء قادر على الإعادة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتتفكرون حتى تعلموا أن الواجب الوجود مبدأ لكل موجود.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ ومعناه الأرض الكريمة التي لا سبخة ولا حرة يخرج نباته حسنا وافيا كثير النفع بإذن ربه ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ والبلد السبخة أو الحرة لا يخرج نباته إلا قليلا لا خير فيه. وهذه الآية تفيد الناظر فيها أن الآيات النازلة من الله كالأمطار الغزيرة التي تنزل من رحمة الله بعباده، والإنسان الطيبُ القلب كالبلد الطيب يأخذ الآيات ويستفيد منها سعادة الدارين، والإنسان السيئ الخلق الشرس المشاكس كالأرض السبخة لا يستفيد منه الاهتداء إلى الحق، بل يزيد به طغيانا وكفراً أعاذنا الله منه ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ﴾ الدالة على شمول قدرة الباري لكل ممكن ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله تعالى. ومنها إرسال الرسول الرؤوف الرحيم، وإنزال آيات القرآن الكريم لدعوة الناس إلى سلوك الصراط المستقيم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (60) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (64)﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾: جواب قسم محذوف، أي والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدَه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تعبدوه وحده ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة أو يوم الطوفان ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ﴾ يا نوح ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي واضح لا شبهة فيه ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني ليس بي ضلالة ولكن لست رجلا خاليا عن المواهب الربانية، بل إني رسول من رب العالمين ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ من جهة الاعتقاد والأحكام ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ والمعنى كما إني أبلغكم الرسالات أرغبكم في قبولها وأتحرّى ما فيه صلاحكم بكل ما لديّ من الاستطاعة، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي وأعلَمُ مِن الله بالوحي أموراً لا علم لكم بها، وأنا أُلْقيها إليكم لتأخُذوها وتنتفعوا بها.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ أي من عشيرتكم ووطنكم، تعرفون أصله وفصله ومَولِدَه ومنشأه، كما تعرفون أنّه ليس فيه ما يدعو إلى الشبهة والاشتباه. وإنما جاءكم ذكر من ربكم ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾ ويُحَذِّركُم عذاب الله ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ ولكي تتقوا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فعلة مجيئ الذكر ثلاث: الأول الإنذار من موجبات عذاب النار. والثاني: تقوى ربكم ولزوم طريقة الإيمان والإحسان واجتناب مالا ينبغي. والثالث: نزول الرحمة وخلعة القبول منه تعالى عليكم.
﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي فاستمروا على تكذيبه، وأنه ليس رسول الله تعالى فغضبنا على المكذبين فأمرنا نوحا بتهيئة سفينة ليدخلها واتباعه في حال الطوفان الموعود فهيأها ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي في السفينة المصنوعة بأعيننا ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي عمى القلوب عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد. وأصل ﴿عَمِينَ﴾ عميين بياءين على وزن فرحين؛

ثقلت الكسرة على الياء الأولى فنقلناها إلى ما قبلها وحذفناها لالتقاء الساكنين فصار عَمينَ على وزن فعين.

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72)

قوله تعالى: وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ متعلق بمضمر معطوف على أرسلنا فيما سبق، أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هُودًا بدل من أخاهم قَالَ هود. يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ عذاب يوم

عظيم ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعوى الرسالة. ﴿قَالَ﴾ هود عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والرسالة من الله تقتضي الاتصاف بالرشد، فكيف يكون الرسول سفيها خفيف العقل؟ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وأصل النصح في اللغة: الخلوص يقال: نصحت العسل إذا خلصته من الشمع. وقد يستعمل لخلوص المحبة للمنصوح له والسعي في إرشاده إلى ما يسعده. وعلى ذلك حمل ما أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله تعالى، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم)). ومقصود سيدنا هود: أني فيما أبلغكم به لست متهما بخيانة؛ لأني معروف بينكم بالنصح والإخلاص والأمانة.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ أتستغربون أن ينزل الله تعالى على عادته وسنته الماضية في الكائنات كتابا جامعا لأسباب سعادة الدارين على رجل من قومكم معروف النسب والحسب ﴿لِ﴾ يبشركم بالجنات على الإيمان والأعمال الصالحة و﴿يُنْذِرَكُمْ﴾ بالدركات النارية على الكفر والأعمال السيئة. وذلك مما لا يتعجب منه لأنه من السنن الربانية المتواترة. وعلاوة على ذلك إذا نظرتم إلى أنفسكم في العالم رأيتموها فائزة بنعم لا تحصى فلا يجوز التغافل عنها ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ واستوليتم على ما استولوا عليه، وجعلكم ملوكا، فإن شدادا بن عاد ملك جزيرة العرب وما والاها ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ﴾ أي وزاد اختصاصاتكم في ما بين المخلوقين، ولم يؤت أحَداً مثَل ما آتاكم، فصرتم سادةً على الخليج وبابِ المندبِ وممر البحار من جهتكم تحتَ سيطرتكم.

أو زادكم في الإبداع ﴿بَسْطَةً﴾ زيادة في الجسم وقوة، وخلقكم رجالا طوالا أبطالا مهولين ومهابين ﴿فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ﴾ أي نعمه وفضائله الواردة عليكم من كثرة الأموال والأرزاق والكماليات ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بإسنادها إلى الله تعالى تهيئة أسباب وابداعا فتشكرونه عليها بتوحيده وعبادته. ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا﴾؟ فقابلوه على وجه لا عقل فيه ولا رعاية للواقع، وجعلوا جملة دعوته متوجهة إلى ناحية خاصة دنيوية وهي عاداتهم التي كانوا عليها، وجعلوها أساسا لرقيهم وشوكتهم على التوهمات المزيفة. وكأنهم يقولون له إنك تحسدنا على قوتنا وسيطرتنا في العالم وتريد هدم أساسنا بالحيلة والخديعة فلا نترك عاداتنا ونستمر عليها ولا نخاف وعيدك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بالإخبار بنزوله ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي من مالك أمركم ﴿رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي عذاب يؤول إلى ما يستقذر لأنهم بعد أن هلكوا بالرياح المتموجة صاروا أجسادا هامدة فتحولوا جيفا مستقذرة. فالمراد بالغضب بعدُ إما غضب الله الوارد عليهم، ويكون عطف السبب على المسبب، أو نوع آخر من العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

وحاصل كلام سيدنا هود عليه السلام أنه يقول: بعد ما عارضتموني على الإيمان بالله وتوحيده قد ثبت العذاب عليكم واستقر ما تستحقونه، فما لكم من محيص عنه. ثم عاد يوبخهم على عاداتهم الدنيئة في عبادة أخشاب وأحجار جعلوها نصب أعينهم فقال:

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾؟ يعني أتخاصمونني في ذوات جامدة معمولة من الأخشاب والأحجار، ووضعتم لها وضعا جعليا أسماء وألقابا لا تليق بها، كاسم الاله الفلاني والفلاني، من غير أن يكون هناك مدلول صحيح ومصداق واقعي، وما نزل الله تعالى باعتبارها من أيّ

سلطان وبرهان يفيد القلب اطمئنانا على أنها مما يليق اعتبارها ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ نزول العذاب الذي تستهزؤن به ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لوقوعه، لكنا نعلم بحلوله عليكم عاجلا في الدنيا وإن عليكم في الآخرة عذابا أشدّ وأبقى تَبقَوْنَ فيه خالدين.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أي هودا ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي من المؤمنين ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي برحمة عظيمة منا ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا﴾ أي استأصلناهم جميعا بسبب معصية هي من أشد المعاصي وأفظعها عند الله وهو تكذيبهم بآياتنا المنزلة على رسولنا هود، ﴿وَ﴾ بسبب أنهم ﴿مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي استمروا وأصروا على العناد بحيث لم يبق لهم نور الإيمان.

وقصتهم طويلة مكتوبة في التفاسير وخلاصتها: أن قوم عاد كانوا في الأحقاف جنوبي اليمن، واستولوا على كثير من الأمم، فأرسل الله إليهم هودا فكذبوه، فابتلاهم الله بجدب وقحط، حتى أن رأوا سحابا مظلما ظهر لهم من واد يسمى وادي المغيث ففرحوا به، وظنوا أنه سحاب يمطرهم، فجاءتهم من تلك السحابة ريح عقيم قوية، سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام على الدوام، فدمّرت الدور والقصور والخيم، وضَرَبَ بعضها على بعض، وأهلك كل من فيها، إلا من نجاه الله او خرج منها بوحي منه كسيدنا هود ومن معه ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (74) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (78) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (79)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ يعني وأرسلنا إلى القوم المعروف باسم جدّهم الأعلى ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح، وقد سكنوا بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، وهم من قبيلة عاد، ونزحوا إلى تلك البقعة ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ وهو ابن عبيد بن اسف بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي معجزة ظاهرة الدلالة على رسالتي. وقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ استئناف مسوق لبيان البينة، أي ناقة مخلوقة بقدرة الله وإبداعه على غير قاعدة التناسل الحيواني. وهذه مبتدأ، وناقة خبر أول، ولكم خبر ثان. وآية حال من فاعل الظرف. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ <380>

مما تعيش به ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ أي لا تمنعوها من الرعي والسقي ولا تؤذوها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأن معارضة المعجزة مهلكة ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي خلفاء لهم بعدهم ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ مكّنكم بالاستيلاء عليها وتعميرها واستغلالها والاستفادة من وجوه المعايش والمكاسب فيها ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي تبنون في أراضيها المسطحة قصورا رفيعة تسكنون فيها وتتمتعون بأنواع من متاع الحياة ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ مسكونة. روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم اتخذوا القصور في السهول ليُصيّفوا فيها، ونحتوا من الجبال بيوتا ليُشتّوا فيها، ﴿فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لمعنى العامل لأن عثا بمعنى أفسد. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ الملأ: الاشراف لأنهم هم الذين يملأون مجالس الشورى وغيرها من مجالس الأمة ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ لا لكلهم بل ﴿لِمَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آَمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (76) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أي نحروها ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي استكبروا عن امتثال أمره ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب والدمار ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (77) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ هامدين موتى لا حركة لهم. والرجفة: هي الصيحة السماوية النازلة عليهم. وقيل الرجفة: خفقان القلب. ويجوز اعتبارهما معا على اعتبار أن خفقان قلوبهم وموتهم نشأ من الصيحة السماوية. ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ سيدنا صالح بعد أن جرى عليهم ما جرى مغتما متحسراً على ما فاتهم من الإيمان ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ بما في طاقتي بلا قصور ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ على <381>

حكاية الحال الماضية، أي شأنكم الدوام على هذه الحالة الفاسدة، فكان مآلكم هذه العاقبة السيئة والعياذ بالله.

وقصة ثمود باختصارها: إن عادا لما هلكوا عمرت ثمود بعدها وتمكنوا في الأرض فاستوطنوا ديارهم بين الحجاز والشام، وبنوا القصور في الصحراء للصّيف، ونحتوا من الجبال بيوتا للشتاء، فداموا في رفاه وأخذوا يعبدون الأصنام. فبعث الله تعالى إليهم صالحا وهو شاب، فدعاهم إلى الله وتوحيده حتى شمط وكبر ولم يتبعه إلا قليل من المستضعفين. فلما ألحَّ عليهم سألوه معجزة، فقال لهم: أي شيء تريدون؟ فقالوا: تخرج غدا معنا إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم، فتدعو اِلهك، وندعو آلهتنا، فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا. فقال لهم صالح: نَعَمْ. فخرجوا وخرج معهم، فدعوا أصنامهم أن لا يستجاب لصالح في شيئ مما يدعو به. ثم قال جندع بن حراش وهو في ذلك الوقت سيدهم: يا صالح اَخْرِجْ مِنْ هذه الصخرةِ (لصخرةٍ واحدةٍ في الحجر) وتسمى بالكائبة ناقَةً مخترجة، أي تُشاكِلُ البُخْتَ فإن فَعَلْتَ صَدّقناك وآمَنا بك. فَاَخذ عليهم صالحُ مَواثيقَهم، وصلّى ركعتين، ودعا، فَتَمخّضَتِ الصّخرةُ تَمَخُّضَ النَّتوجِ بولدها فانصَدَعَتْ عن ناقة عشراء جَوْفاءَ ووَبراءَ، كما وَصَفوا، ثم نتجت ولداً مثلها ! فآمن به جندع ورهطٌ مِن قومه، وأراد أشرافُهم أن يؤمنوا به، فَمَنَعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، والحَبّاب صاحبُ اَوْثانِهم، ورباب بن ضمر كاهنهم. فلمّا خرجت الناقة قال لهم: هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرضهم ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترده غبا فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال له الآن: بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها، 382 ثم ترفع رأسها وتتفجج لهم فيحلبون ما شاؤا من اللبن فيشربون ويدخرون، ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لا تقدر تصدر من حيث ترد لضيقه عنها، حتى إذا كان الغد يومهم فيشربون ما شاؤا ويدخرون ما شاؤا ليوم الناقةِ، وما زالوا في سعة ورغد وكانت الناقة تصيِّف إذا كان الحرّ بظهر الوادي فتَهرب منها مواشيهم، وتَهْبِط إلى بطن الوادي في حرّه وجدبه، وتشتو في بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره في برد وجدب،

فَأَضَرَّ ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله تعالى بهم والبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم، فعتوا عن أمر ربهم فَاَجْمَعوا على عقرها. وكانت امرأتان من ثمود يقال لإحديهما عنيزة بنت غنم بن مجلد وتكنّى بأم غنم، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزا مُسِنّة ذات بنات حسان، وذات مال من إبل وبقر وغنم، ويقال للأخرى: صَدوق بنت المختار، وكانت امرأة جميلة غنية ذات مواش كثيرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرّت بمواشيهما فدعت صدوق رجلا يقال له الحباب لعقر الناقة، وعَرَضَتْ عليه نفسَها إن هو فعل فأبى. فدعت ابن عم لها يقال له مصدع ابن مهرج وجعلت له نفسها إن هو فعل فأجابها إلى ذلك. ودعت عنيزة أم غنم قَدّار بن سالف وكان رجلا أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه لزَنْيةٍ ولم يكن لسالف، لكنه ولد على فراشه، فقالت: أعطيك أيّ بناتي شئت على أن تعقر الناقة، وكان عزيزا منيعا في قومه، فرضي وانطلق هو ومصدع فاستغويا غواة ثمود، فأتبعهم سبعة، فكانوا تسعة رهط، فانطلقوا ورصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم، فانتظم بها عضلة ساقها، وخرجت أم غنم فأمرت إحدى بناتها وكانت من أحسن الناس وجها فسفرت <383>

عن وجهها ليراها قدار، ثم حثته على عقرها فشدّ على الناقة بالسيف فكشف عن عرقوبها، فخرّت، ورَغَتْ رُغاءً واحدة، فتحدر سبقها أي ولدها الفصيل، وانطلق هاربا حتى أتى جبلا منيعا هناك. وكان صالح عليه السلام قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يدفع عنكم العذاب ! فخرجوا في طلبه، فرأوه على الجبل وراموه ولم ينالوه، وانفجت الصّخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: لكل رَغْوَةٍ اَجَلُ يومٍ، ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾. ولما جاء وقت العذاب على ثمود بقول سيدنا صالح عليه السلام ورأوا العلامات، طلبوه ليقتلوه، وهرب ولحق بحي من ثمود يقال لهم بنو غنم، فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب، فطلبوه منه فقال: ليس لكم إليه سبيل، فتركوه وشَغَلهُم ما نزل بهم. ثم خرج عليه السلام ومن معه إلى الشام، فنزل رملة فلسطين، وكان رجل من ثمود يقال له: أبو رغال، وهو أبو ثقيف في حرم الله، فمنعه الحرم من عذاب الله تعالى، فلما خرج أصابه ما أصابهم، فدفن ومعه غصن من ذهب.

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبره فأخبر بخبره فابتدره الصحابة رضي الله عنهم بأسيافهم، فحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن.

وروي أنه عليه السلام خرج في مائة وعشرين من المسلمين، وهو يبكي فالتفت فرأى الدخان ساطعا فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفا وخمسمائة دار. وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال: إن صالحا لما نجا هو والذين معه قال يا قوم: إن هذه دار قد سخط الله عليها وعلى أهلها فاظعنوا والحقوا بحرم الله تعالى وأمنه، فأهلوا من ساعتهم بالحج وانطلقوا حتى وردوا مكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا، فتلك قبورهم في غربي الكعبة.

وروى ابن الزبير عن جابر أن نبينا صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: لا يدخلن أحد منكم القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم. وذكر محي السنة البغوي أن المؤمنين الذين مع صالح عليه السلام كانوا أربعة آلاف وأنه خرج بهم إلى حضرموت، فلما دخلها مات عليه السلام، فسميت لذلك حضرموت، ثم بنى الأربعة آلاف مدينة ويقال لها حاضورا. ثم نقل عن قوم من أهل العلم أنه توفي بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة، ولعله المعول عليه.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (81) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (82) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (83) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (84)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ أي وأرسلنا لوطا. فيكون قوله ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ظرفا لأرسلنا. وأكثر النسابين على أنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام، ورواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما. ولم يذكر لقب قومه لأنهم لم يعهدوا باسم معروف، وكانوا يسكنون سدوم، واختصوا بالفاحشة المنكرة المشهورة. أي قال لقومه في مقام النصح والتوبيخ على المنكر واستنكاره: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ الخصلة ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ وحالها أنها ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾؟ ! بهذه الصورة

العادية المستبشعة ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ وتجامعونهم ﴿شَهْوَةً﴾ لأجل قضاء النفس الأمارة ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي متجاوزين عنهن وهن محل الشهوة عند أصحاب الطباع السليمة ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ كلمة بل للإضراب الانتقالي عن الإنكار المذكور إلى الإخبار بما أدى إلى ذلك وهو تَعَود الاِسراف والتجاوز عن الحدود. وإلا فإن كان الداعي لصرف الماء التناسل أو الاستيناس الاِعتيادي، أو تكوين عائلة تحصل بها راحة، فالاستيناس بالنساء الطيبات الطاهرات كفيل به، أو إراحة النفس من ثوران الشهوة فالوسيلة المشروعة كافية، وإن كان ارتكاب الفواحش والاختباط في الأنجاس فهو عين الاسراف المحرم ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ شيئ مستساغ نقلا أو عقلا ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي من محل سكناكم وبلدكم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فإنهم أناس يدعون النظافة وإنهم يتطهرون ويتباعدون عن هذه الأشياء ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ المختصين به ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ فما نجيناها من العذاب لأنها ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الفائتين الهالكين.

ثم بين الله تعالى طريق تعذيبهم وإهلاكهم بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي أمطرنا عليهم نوعا عجيبا من المطر كانت بدل قطرات الأمطار قطعات الأحجار، كما قال في آية أخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ ﴿فَانْظُرْ﴾ يا من يمكنه النظر للاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾؟ أي كيف كان مآل تلك الفرقة المرتكبة لتلك الفعلة الشنيعة؟

ثم إن لوطا عليه السلام بعد إنزال العذاب على قومه لحق بعمه إبراهيم، فلم يزل معه حتى قبضه الله تعالى. وروي أن سارة زوجة إبراهيم عليه السلام كانت أخته لأنها بنت هاران، كما أن لوطا كان ابنا له.

وفي الآية دليل على أن اللواطة من المعاصي الكبائر الفواحش، ولذلك سبت إهلاك قوم بأسرهم.

روي أن لوطا بن هاران بن تارخ لما هاجر مع عمه إبراهيم إلى الشام نزل بالأردن، فأرسله الله تعالى إلى أهل (سدوم) وهي بفتح السين والدال المهملة أو المعجمة قرية سميت باسم بانيها، وفي المثل (واجور من قاضي سدوم) فدعاهم إلى الله، ونهاهم عما ابتدعوه من الفاحشة فلم ينتهوا عنها، فأمطر الله عليهم الحجارة فهلكوا. وقيل خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم. وهكذا صاروا مثلا في الهلاك والدمار لأهل العظة والاعتبار. أعاذنا الله تعالى من الأشرار وأعمالهم الموجبة للنار بمنه.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إليهم، وهم أولاد مدين بن إبراهيم خليل الله، شُعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين. أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيبا يقول: ((ذاك خطيب الأنبياء عليهم السلام لحسن مراجعته قومه))

والمراجعة مفاعلة من الرجوع وهي مجاز عن المحاورة. وإنما عني النبي صلى الله عليه وسلم ما ذكر في هذه السورة كما يعلم بالتأمل فيه ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يريد المعجزة التي كانت له. ولم تذكر في القرآن الكريم، كما لم تذكر أكثر معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام. وفي الكشاف: إن من معجزاته محاربة عصا موسى عليه السلام للحيّات حين دفع إليه غنمه ليرعاها ووقوع عصا آدم عليه السلام في يده في المرات السبع. وولادة غنمه الدرع حين وعده أن يكون الدرع من أولادها. وهو من الخيل والشاة ما اسودّ رأسه وابيض سائره. واعترض بأنه يحتمل أن يكون إرهاصا لرسالة موسى. ويجاب عنه: بأنه يجوز في مثل ذلك أن يكون معجزة لرسول بالفعل وإرهاصا لرسول بالقوة. ويحتمل أن يكون معجزته إيحاء الله إليه نقص القوم من المكائيل والموازين متى وأينما نقصوا فيخبرهم بذلك. وفي بعض الكتب: إن معجزته أنه كلما صعد على جبل يَطْويهِ ويَصلُ إلى قمّته مع مَن معه من قومه، فيكون ذلك دليلا على رسالته. كما يجوز أن تكون معجزته بلاغته الزائدة في خطبه ونصائحه بحيث لم يبق مجال لمنكريه إلا العناد والعدوان. فقال: ما دام جاءتكم البينة من الله على رسالتي فتأدبوا وأطيعوا الأمر والنهي الصادرين مني ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ إذا عاملتم الناس ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يعني لا تنقصوا من الأشياء التي تخص الناس في المعاملات وأدّوها إليهم كاملة وافية ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالجور والعدول عن نهج العدالة في الأمور كلها ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بالشريعة التي أتَيتكُم بها أو بما استقرّ عندنا من شريعة أبينا إبراهيم عليه السلام ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي بيّنت لكم ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وحَسن، وما عداه قبيح غير مرضي ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

<388>

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي ولا تقطعوا الطرق عن العابرين للتجارة وسائر المكاسب حالكونكم تخيفون من مرّ عليكم، أو تخيفون من آمنَ بالقتل. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن بلادهم كانت يسيرة أي غنية بالموارد وكان الناس يمتارون منهم، فكانوا يقعدون على الطريق ويخيفون الناس، أن يأتوا شعيبا ويقولون لهم: إنه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم! ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِهِ﴾ أي وتمنعون من آمن بالله وأراد السعي في الخير عن سبيل الله أي عن الطريق الموصلة إليه ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجا وفسادا بإلقاء الشبه إلى أذهان المشتبهين الضعفاء، فإن ذلك يعتبر جريمة كبيرة، بل أكبر الكبائر وهو الكفر بالله، والعياذ به من ذلك. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾ من حيث العدد فكثركم الله وزادكم عددا. فقد حكي أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت، فجعل الله في نسله البركة والنماء. أو المراد بالقلة الإقلال من المال، يعني كنتم فقراء فأغناكم الله من فضله ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ بتدمير ما عمروا وإماتة من وَلَدوا واعلموا أن كل عاقل يجب عليه الاحتراز عن أسباب الدمار ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آَمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ﴾ منكم ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ به، ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ يعني ما دام صار الأمر وعاقبته أنه لم يؤمن القوم كلهم، ولم ينفعهم الإبلاغ والنصيحة، وانقسموا إلى قسمين: قسم آمنوا، وقسم بقوا على كفرهم ﴿فَاصْبِرُوا﴾ على ما نلقاه من عاقبة الأمر ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ المؤمنين والكافرين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لا مبدل لحكمه، وهو أسرع الحاسبين. ففيه تنبيه للمؤمنين على أنهم يلقون الأذى من الكافرين وواجبهم الصبر عليه، كما فيه تهديد ووعيد للكافرين بأنهم ينالون عقابهم.

فهرس الكتاب